فتوح عبدالمحسن الخترش

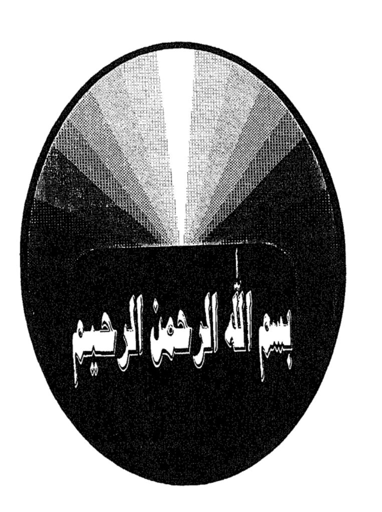
الكويت كانت وطني

زهرة فريز



الطبعة الأولى
١٩٩٧

تقديم ومراجعة المؤرخ الكبير سيف مرزوق الشملان


بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٩٩٧

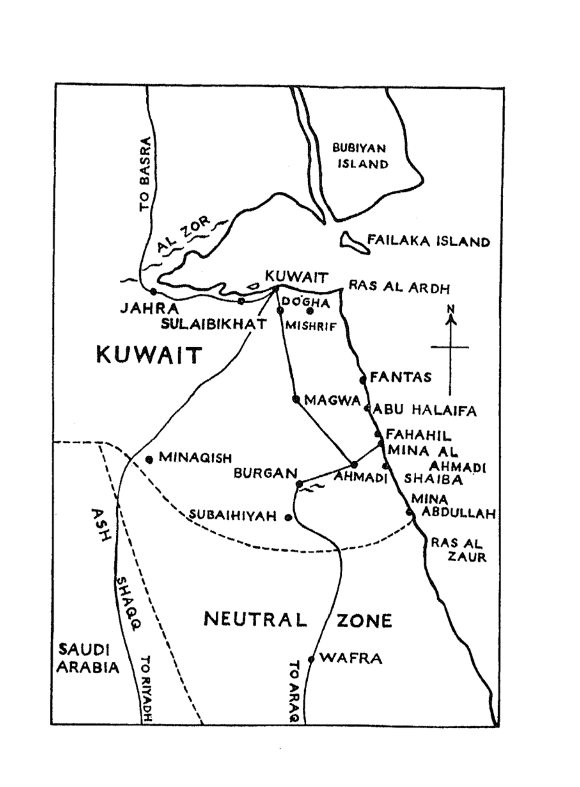
تنفيذ وإخراج وطبع ذات السلاسل: تليفون: ٢٤٦٦٢٦٦/٢٤٦٦٢٥٥ ص.ب: ١٢٠٤١ الكويت

تأليف: زهرة فريز

كانت الكويت وطني

KUWAIT WAS MY HOME

ترجمة: أ.د فتوح عبدالمحسن الخترش



BUBIYAN ISLAND
TO BASRA
AL ZOR
FAILAKA ISLAND
KUWAIT
RAS AL ARDH
JAHRA
DOGHA
SULAIBIKHAT
MISHRIF
N
KUWAIT
FANTAS
MAGWA
ABU HALAIFA
FAHAHIL
MINA AL AHMADI
MINAQISH
BURGAN
AHMADI
SHAIBA
MINA ABDULLAH
SUBAIHIYAH
ASH SHAQQ
RAS AL ZAUR
NEUTRAL ZONE
SAUDI ARABIA
TO RIYADH
TO ARAQ
WAFRA

مقدمـــة

لعائلة الكولونيل ديكسون الذى استقر في الكويت منذ عام ١٩٢٩ حتى وفاته عام ١٩٥٩ أفضالهم في دراستهم عن الكويت، فقد كان الكولونيل ديكسون المشهور بـأبو سعود والـذى كـان من مواليد بيروت سنة ١٨٨١ ودرس اللغة العربية فيها، وأصبح ضابطًا في الجيش البريطاني في منطقة الهند، وبسبب معرفته باللغة العربية أصبح الحاكم العسكري على مدينة الحلة فـي العراق عـام ١٩٢٢ ثم نُقل بعد ذلك إلى البحرين معتمدًا بريطانيًا فيها، واشترك في مؤتمر العقير الذى قرر حدود الكويت، وتحدث عن ذلك الموضوع فـي كتابه المعروف (الكويت وجاراتها). وقد تقـاعد سنة ١٩٣٦ وأصبح ممثلاً للشيخ أحمد الجابر الصباح حاكم الكويت في شركة نفط الكويت حتى وفاته سنة ١٩٥٩ ودفن في الأحمدي.

من كتبه المشهورة (عرب الصحراء)، أما زوجته المشهورة بأم سعود والتى توفيت قبل تحرير الكويت بشهر واحد، ونُقلت من مدينة الكويت خلال الاحتلال العراقي عندما كانت مريضـة وتعالج في مستشفى الأحمدى، وقد كان اهتمامها بالكويت كبيرًا، وألفت كتابها المعروف (أربعون عامًا في الكويت) وكانت قد قضت في الكويت أكثر من ٦٠ عامًا. وحافظت على منزلها المعروف بيت ديكسون من الهدم بسبب النهضة العمرانية، وهذا المنزل كان ملك لأشهر تاجر للؤلؤ في نهاية القرن التاسع عشر وهو بيت محمد بن على العصفور تاجر اللؤلؤ المشهور، وفي عام ١٩٠٤ أسكن الشيخ مبارك في هذا البيت أول معتمد بريطاني وهو الكولونيل نوكس وظل فـي هـذا المنزل كمقر للمعتمدية البريطانية حتى عام ١٩٣٦، ثم انتقل إلى مقر السفارة الحالي، وكان يُعرف في ذلك الوقت (بقصر المهندس)، ويُرجى من الحكومة الكويتية تحويل هذا البيت (بيت ديكسون) إلى مُتحف يتحدث عن العلاقات البريطانية الكويتية منـذ بدايتها حتى الآن. وكذلك مقتنيات أسرة السيد ديكسون. ومن كتبها المعروفة أيضًا (النباتات البرية في الكويت والبحرين)، وهو من الكتب التى زينتها بالصورة التوضيحية.

ومن هذه الأسرة السيدة زهرة التى نقدم كتابها الآن وهي من مواليد الهند سنة ١٩٢٥ وسُميت زهرة على اسم صديقة والدتها التى قُتلت بسبب رفضها الزواج من ابن عمها. وقد روت هذه القصة كاملة في كتاب (الكويت وجاراتها)، والسيدة زهرة تجيد العربية، وقد عملت فترة من الزمن مندوبة لصحيفة الأهرام المصرية، وتمتاز بحبها للكويت حيث عاشت طفولتها. وفي عام ١٩٤٦ بعد عودتها من بريطانيا واكتشافها التغيير الكبير الذى حدث لمدينة الكويت بعد اكتشاف النفط، سجلت في كتابها (الكويت كانت وطني) قصة التحويل في ذلك الوقت حتى أصبح هذا الكتاب وثيقة هامة لدارسي التحول الاجتماعي والاقتصادي في الكويت. فيه يحكي عن التحول من اقتصاد البحر إلى اقتصاد النفط، وتصف كيف فتح أول شارع في ذلك العام وسُمي الشارع الجديد في تلك الفترة ولازال هو الشارع الجديد حتى الآن.

ولأم سعود ابن أكبر من زهرة وهو من مواليد سويسرا عام ١٩٢٣ وقد عاش في الكويت سنوات طويلة، وقد رفض القس عندما ولد في تلك الفترة تسميته باسم سعود باعتباره اسم إسلامي، وقد سُجل في الأوراق باسم سنت ثم توجو ثم باسم سعود وهو اسم محبب لدى والديه، وقد قضى عمره بالعسكرية، فلم يكن له أي نشاط أدبي مثل والديه.

والمترجمة الدكتورة فتوح عبدالمحسن الخترش قد قامت بنقل هذا الكتاب لأهميته التاريخية. ومن مؤلفاتها أيضًا (العلاقات السياسية البريطانية الكويتية) وكتاب (التاريخ السياسي للكويت في عهد الشيخ مبارك الصباح)، وكتاب (التاريخ السياسي للبحرين حتى عام ١٩٠٤)، وكتاب (العلاقات السعودية اليمنية) الذى نالت عليه درجة الدكتوراه. وألفت عددًا آخر من الكتب حول قطر، وترجمت كتاب الكويت وجاراتها لديكسون، ولها نشاطات أدبية.

وأخيرًا فإن لي ملاحظتان أود ذكرهما لأهميتهما: الأولى أنه في كتاب (أربعون عامًا في الكويت) ١٩٢٩ - ١٩٦٩ تأليف أم سعود (فيوليت ديكسون) قلت في مقدمتي للكتاب صفحة ٤ بأن زهرة ديكسون ولدت في العراق سنة

١٩٢٢، وهذا خطأ تاريخي وقعت به، فالصواب أن زهرة ولدت في الهند سنة ١٩٢٥، وأخوها سعود ولد في سويسرا سنة ١٩٢٣.

أربعون عامًا في الكويت كتاب شيق ترجمه لي أحد المترجمين العرب بألف دينار منذ أكثر من عشر سنوات. وقدمت للكتاب وراجعته وعلقت على ما يحتاج للتعليق بالهامش، مع الصور القديمة. ويقع الكتاب في ٤١٣ صفحة طبعته على نفقتي الخاصة سنة ١٩٥٩، وسأطبعه بإذن الله تعالى طبعة ثانية مع الملاحظات والتقاريظ والصور.

الملاحظة الثانية أن زهرة وصلت إلى الكويت في مايو ١٩٢٩ وهي طفلة عمرها نحو خمس سنوات وعاشت في الكويت سبع سنوات إلى سنة إلى سنة ١٩٣٦، غادرت الكويت للدراسة وعمرها نحو إحدى عشرة سنة، وعادت إليها سنة ١٩٤٦ بعد عشرة أعوام حيث كان عمرها إحدى وعشرين سنة، وإليكم هذه الحادثة الطريفة وهي تتعلق بسعود وزهرة عندما كانا طفلين يعيشان في الكويت. سمعت من أحد كبار السن في فريجينا حيث بيت محمد العصفور (بيت ديكسون) كما يسمى حاليًا، وبطل الحادثة أحد البحارة الذى شاهد سعودًا وزهرة وهما يرطنان (يتكلمان الإنجليزية) فاستغرب منهما كل الاستغراب كيف أن هذين الطفلين يرطنان عنكريزي – وكان أهل الكويت في الماضى يطلقون على الإنجليزي عنكريزى – وهو على كبر سنه لا يعرف شيئا من اللغة العنكريزية، قال: والله عجب يا جماعة، عيال دكسن يهال أطفال يرطنون عنكريزي بُلْبُلْ (بكلا طلاقة) وحنا الواحد منا أشكره يمشى على زنده التيس ما نعرف شيء ما نعرف إلا يسْ يَمْ. مع تمنياتي للمترجمة بالتوفيق في عملها في خدمة تاريخ الكويت وتراثه.

سيف مرزوق الشملان

صور حديثة للمؤلفة

من أرشيف المؤرخ الكبير سيف مرزوق الشملان

هذه الصورة في منزل الأخ غازي الريس سفير دولة الكويت في لندن آنذاك، بعد تناول طعام في الوليمة التى أقامها الأخ غازي لسعود وزهرة ديكسون يوم السبت الموافق ٣٠ يناير ١٩٩٣.

من اليمين: سيف الشملان – زهرة ديكسون – سعود ديكسون

سيف الشملان – ١٦/١١/١٩٩٦



هذه الصورة التقطت مساء يوم الجمعة الموافق ١٩٩٣/٢/٢٦م في لندن بفندق دوشستر في احتفالات السفارة باليـــوم الوطني لدولة الكويت ويوم التحرير.

من اليمين: سعود ديكسون – عبدالرحمن الظفيري الملحق العسكري بسفارة الكويت في لندن – زوجة سعود ديكسون كما أعتقد – الكاتب الإنجليزي الذى ألّف كتابًا عن أسرة آل صباح – سيف الشملان – زهرة ديكسون.

سيف الشملان – ١٩٩٦/١١/١٦



المحتويات



في يوم من أيام شهر سبتمبر ١٩٤٦، كنت أشق طريقي وقت الأصيل في سيارة تترنح على الطريق من البصرة إلى الكويت، وسط سحابة من الأتربة والغبار.

والطريق البرية من البصرة إلى الكويت تمتد عبر مائة ميل من صحراء جرداء لا تنزل بها إلاّ جماعتان قرويتان صغيرتان، إلى جانب البدو الرعاة الذين يحطّون الرحال في تلك المنطقة عندما يطيب الكلأ. والسير عبر هذا الدرب المهجور نوع من المخاطرة بالنسبة للمسافر الذى لا يتهيأ للرحلة متزودًا بما يكفى من معلومات، وهو – في أحسن الأحوال – رحلة شاقة مضنية. ولكن البهجة كانت تغمرني بعد ظهر ذلك اليوم من سبتمبر، فهذه هي المرحلة الأخيرة من رحلتى التى طال انتظارها من بريطانيا إلى مهد طفولتي.

وبينما سيارتنا تحث الخطى صاخبة مزمجرة على الدرب الوعر الذى يستخدم كطريق لاجتياز الصحراء، رحت أفكر من جديد في بلدى الصغير الذى كان مرتع صباي، والذى تعلمت فيه اللغة العربية على يد ممرضة من أهل البلاد، حتى أصبحت لغتى الثانية.

وكان أبي قد عُيِّن في بادئ الأمر وكيلاً سياسيًا بريطانيًا بالكويت عام ١٩٢٩، في وقت كان عدد الجاليتين الأوروبية والأمريكية لا يتجاوز الأحد عشر شخصًا. ولكن بعد رحيلي إلى بريطانيا للدراسة، تأسست شركة للنفط في الكويت، فأدركت أن المدينة ما كانت لتبقى على حالها.

وأخذتني الدهشة لكثرة ما جرى من تغيير، ففيما مضى، كان جو من الهدوء والعزلة يخيم على المدينة ويجعل منها ملاذاً للهاربين من صخب الحياة وتياراتها المتلاطمة في العالم الغربى. فما مدى ما طرأ عليها من تحوّل منذ أن غزتها قوى الآلة

التي صاحبت صناعة النفط؟ وهل سألتقي بنفس المناظر والمشاهد التي ألفتها منذ طفولتي؟ أم سأجدها وقد تغيَّرت إلى درجة تستعصى على الإدراك؟

وتزاحمت في خاطري التساؤلات.

وفي الأفق البعيد، لاحت لنا ملامح واحة صفوان ونحن على مسيرة ساعة ونصف الساعة بعد خروجنا من البصرة. وهنا، برزت أمامنا غابة من أشجار النخيل العملاقة، كعلامة من علامات الحدود العراقية – الكويتية، تلتف حول مجموعة من الآبار، وفيما وراء النخيل، كانت الصحراء تمتد متشحة باللون الأسود لمئات الخيام التي ينزل بها البدو الذين يتحركون دائمًا صوب موارد المياه العذبة عندما يسود الجفاف في فصل الصيف.

وكان أبي يعرف أن هناك في مكان ما بين هذه الخيام، خيمة معينة تقيم بها أسرة بدوية تعرّف بها منذ عهد بعيد. فكان سعيدًا لأننا أصبحنا ندّب بأقدامنا مرة أخرى فوق أرض كويتية، وبين عرب تربطه بهم أواصر المحبة والود – فأصر على أن نحيد عن دربنا وأن نسعى للوصول إلى هؤلاء الأصدقاء، وأن نقطع رتابة رحلتنا بالتوقف لتناول القهوة معهم.

وهكذا، وانصياعًا لمشيئته، اتجه بنا سائق السيارة العربي إلى يسار الدرب المألوف ليتخذ طريقه بين الخيام بحثًا عن خيمة Junaifir، أحد شيوخ قبيلة عجمان.

وكان أحد أقارب هذا الشيخ الطاعن في السن هو أول من لمح سيارتنا، فهرع يركض من خيمته ليرحب بأبي ويقودنا إلى الخيمة التي نبحث عنها. وبين نباح الكلاب، وصلنا بعد أبي إلى الخيمة السوداء المنشودة وكان الشيخ قد خرج بنفسه للقائنا، بينما نساء الأسرة يتأهبن عن بكرة أبيهم للتجمع من حولنا عندما تتوقف العربة، وما أن أدركوا أنني الطفلة التي عرفوها منذ عشر سنوات، حتى رحبّوا بي في حرارة وشوق، وكأنني طفلة من ذويهم عادت إليهم بعد طول اغتراب.

وترجلنا من السيارة، واتجهنا إلى داخل الخيمة، وجلسنا على سجادة بُسطت من أجلنا، بينما الشيخ يردد عبارات الترحيب المفعمة بالودّ التى تجدها في انتظارك على شفتى المضيف البدوى.

وقال الشيخ: بالطبع، ستتناولون طعام العشاء معنا الليلة، وسوف نذبح جملاً احتفالاً بعودة زهرة، وأشار إلى جمل يقف وحيدًا في قيده خارج الخيمة، وكان هزيلاً وفي أسوأ حال بعد أشهر صيف طويلة عزّ فيها الكلأ وندر العشب، وبعد أن تلاشى مخزون الدهن في سنامه. وسارعنا بالتأكيد لمضيفنا أنه ليس لدينا من الوقت إلا ما يسمح بتناول قدح من القهوة لجهلنا بواجب تلبية الدعوة الذى تحتمه تقاليد الضيافة البدوية، وأمر بذبح الجمل وإعداد الطعام.

وبينما الجميع يتجاذبون أطراف الحديث معنا، التف رجال من الخيمة حول نار غير ذات لهب تتأجج في جوف حفرة صغيرة في الرمال. وأقبل غلام يجرى يحمل إناء ملىء بروث الجمال ليضيف مزيدًا من الوقود إلى النار المستعرة تحت إناء القهوة المستقر فوق الجمرات. ثم تناول أحد الرجال حفنة من حبوب البن المحمصّة ووضعها في هاون مع قليل من الماء العذب. ومن خلال عملية متقنة لعبت القهوة من إناء لآخر، استكمل إعداد المشروب، وأصبح جاهزًا للتقديم، فتناولناه في غبطة وابتهاج.

كانت هذه هى المرة الأولى منذ عشر سنوات التى أتذوق فيها القهوة العربية بطعمها المرّ المضمخ برائحة حب الهال. وطوال الفترة التى قضيتها في بريطانيا، كنت قد نسيت حياة الصحراء، الحياة التى عشتها طفلة عندما نصبنا خيمتنا السوداء جنبًا إلى جنب مع البدو، وتعلمنا أسلوبهم في الحياة. وشعرت عندما ارتشفت القهوة العربية من جديد وكأن السنوات التى انقضت منذ رحيلي لم يكن لها وجود بأى حال.

وسأل أبى الشيخ عن الأبناء وعن أحوال الماشية والأغنام، وهل تمكنت من الصمود طوال أشهر الصيف دون أن يصيبها المرض؟ وكيف حال العشب والكلأ في

المنطقة؟ وهل هطلت أى أمطار في الصحراء حتى ذلك الحين؟ وعلى كل هذه التساؤلات أجاب الشيخ في اقتضاب وتركيز. ولقد كان الصيف عسيرًا، وقضى المرض على عدد كبير من الجمال في تلك السنة، ولكن الشيخ وأسرته ينعمون بصحة جيدة، كان الله رحيمًا بعباده.

وعلمنا أن الشيخ أمضى شهر رمضان، شهر الصيام، ضيفًا لدى ابن سعود عاهل العربية السعودية في عاصمته الرياض. وكان الشيخ يتحدث عن ملك بلاد العرب دون أى شكليات أو ألقاب رسمية، على نفس النحو الذى درج عليه جميع شيوخ الصحراء، وكأن الملك واحد منهم.

وسأل أبى عن أحوال ابن سعود الذى جمعته به صداقة وطيدة سنوات عديدة، فأجاب الشيخ: إنه في أحسن حال، ويتمتع بالقوة، وهو في حيوية غلام يافع، بل وهو أكثر حيوية من أبنائه.

وبينما الظلال تستطيل مؤذنة بحلول الظلام، نهضنا من مجلسنا لنقفل راجعين، بينما الكلاب التى رحبت بمقدمنا تعود إلى النباح من جديد وكأنها تتعجل مغادرتنا مخيم صفوان.

والمشاهد الطبيعية التى تمتد أمام ناظرينا في رتابة كئيبة هي السمة السائدة للأراضى الداخلية للكويت. وكانت شجيرات (العرفج) Arfaj هي النبات الوحيد الذى ينمو في التربة الرملية الجرداء، لأنه ما أن ينصرم فصل الصيف حتى لا يتبقى هناك أى أثر للنباتات الموسمية الهزيلة التى تنمو بعد أمطار الشتاء.

وفي حمرة الشفق وجهامته عند مغيب الشمس، عكرّ دبيب سيارتنا صفو سحلية صفراء ضخمة تكسو ذنبها الأشواك فقفزت فجأة إلى جحرها على جانب الطريق. وبعد فترة، وعندما أطبقت الظلمة بسوادها الدامس على الصحراء، شاهدنا ثعلبًا على ضوء المصباح الأمامى يتوقف لحظة مبهورًا ومأخوذًا بالأنوار المتلألئة التى تساقط عليه. ثم يقف مبتعدًا ليتوارى بين الظلال.

ومرة أخرى، لمست مدى قدرة الصحراء على تحويل الإنسان إلى قزم ضئيل لا حول له ولا قوة، خاصة عندما يمتد الليل وتحاصر المسافر الظلمة التى لا نهاية لها، ويلفه الهدوء المطبق من كل جانب، فيشعر بالعزلة المطلقة في جوف فراغ هائل بلا حدود.

وعندما يممنا وجهنا شطر الجنوب، لاح لنا في الأفق وميض يضرب إلى الحمرة وكأنه البشير بطلوع الفجر، ولكننا أدركنا بعد حين أن هذا الوميض الذى استوى في كبد السماء إنما هو لهيب الغاز المحترق في حقل النفط الكويتى على بعد خمسين ميلاً.

وبعد قليل، أمكننا أن نتعرف – والظلام لازال يحاصرنا – على تخوم سلسلة التلال المعروفة باسم الزور Zor والمطلاع Mutlaa، والتى لابد أن تمرّ من خلالها. فكانت الصخور الضخمة المطلة من سفوح هذه التلال تبدو داكنة سوداء على ضوء النجوم المتناثرة في السماء كلما شققنا طريقنا عبر فجوة من الفجوات المنتشرة بين التلال. ثم شاهدنا على الجانب الآخر الأكثر بُعدًا عنا أنوار الجهرة، تلك القرية الرابضة عند الركن الداخلي لخليج الكويت، والتى سنلتف من حولها لنتجه شرقًا نحو المدينة.

وعندما اجتزنا الجهرة، وكانت رحلتنا قد أوشكت على الانتهاء، وكانت أنوار مدينة الكويت تنعكس متكسرة رقراقة على صفحة المياه ونحن نستكمل دورتنا حول الخليج. وفي آخر الطريق، كان هناك عديد من السيارات والجمال وكأنها البشير بقرب الالتقاء بسكان من البشر.

وعندما توجهنا صوب مدينة الكويت، شخصت بناظري إلى الأمام لأرى من جديد ذلك المشهد الذى تعيه ذاكرتى لمدينة الكويت كما تبدو من طريق الجهرة: شريط منخفض الارتفاع من أسوار مشيدة من الطمى تظهر على البعد، مع عدد من الخيام السوداء تتناثر هنا وهناك، هي التى كانت ذات يوم الضاحية الخارجية

المتواضعة لهذه المدينة العربية التى عدت من المدن الهامة الآن.

وعندما دخلنا المدينـة تحـت جنح الظـلام، خـابت ظنونـي، ولم أدرك أننـا وصلنا إليها إلا عندما بلغنا إحدى البوابات العالية التى تكسـوها الأتربـة بينمـا تتمـدد أجساد متشحة بالبياض على طول الطريق. وهي تغط في النوم تظلّها النجوم.

وكان منزل أبى هناك على الشاطىء، على بعـد بضع يـاردات فحسـب مـن المرفأ. وعندما عبرنا وسـط المدينـة، تحولنـا إلى الطريـق الممتـد علـى السـاحل. وفجـأة تنسمت من جديد رائحة ورش صناعة وترميم السفن، والتى عرفتها جيدًا في وقت مـن الأوقات. وكانت رائحة زيت السفن النفاذة المـميزة تفـوح فـى الجـو، ومعهـا الرائحـة العطنة لطمى المرفأ الأسود.

وها أنا مرة أخرى ... في بيتى !

الفصل الأول
الخليج العربى

الفصل الأول

الخليج العربي ١٥١٥-١٩١٤

كان الترحال الذى لا يتوقف للبدو الرعاة في العصور بلا حدّ ولا حصر، وتحيطه الشكوك والريّب شأنه شأن رمال الصحراء المتحركة نفسها. وكان القدر المحتوم للجماعات الأسرية، أو لقبائل كاملة، أن تجمع مقتنياتها وتشق طريقها في بطء ومشقة مرتحلة للبحث عن مضارب جديدة لخيامها، تحت ضغط الضرورة الاقتصادية أو الاجتماعية.

وتفيد الروايات المتوارثة عبر الأجيال أن إحدى هذه الهجرات جرت منذ حوالى المائتين وخمسين عامًا، عندما رحلت جماعة بدوية صغيرة من قطر متجهة صوب الشمال الشرقى، متخذة طريقها على امتداد ساحل الخليج العربى. ومهما كان الدافع لحركتها، والذى لا نعثر له على أثر بين طيّات التاريخ، فقد أفضت بهم الطريق التى اختاروها إلى رأس الخليج، عند موقع ينحنى عنده الساحل بشدة نحو الداخل ليشكل خليجًا شاسعًا. وعند هذا الموقع، وجدوا ضالتهم المنشودة من الماء العذب، وعنده انتهت رحلتهم. وفي السنوات التالية أصبحت هذه البقعة منتجعًا صيفيًا دائمًا للجماعة، مع استمرار تجوالهم في الأراضى الداخلية عندما يطيب الكلأ ويخضّر العشب في الربيع. وبالتدريج، وبمرور الوقت، هجر زعماء الجماعة خيامهم، وانتقلوا إلى مساكن مشيدة على الساحل، وحول النواة التى تشكلت على هذا النحو، انبثقت المدينة التى تُعرف الآن باسم الكويت*.

وقليل هو المعروف من التاريخ المبكر للكويت، لأن المصدر الوحيد للمعلومات هي الأقوال المتوارثة المبهمة التى يتداولها أهل المدينة، إلى جانب الملاحظات

---

* تصغير كلمة كوت، وتعني الحصن.

والمشاهدات القليلة التى خلّفها الرحّالة الأوربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولكن الأمر الذى يبدو مؤكدًا، هو أن المدينةظهرت كمستوطنة عامرة ومستقرة حوالى عام ١٧١٠ على يد فريق من العتوب، وهم فخذ من العمرات Amarat، يشكلون قبيلة من قبائل عنيزة. وكان آل صباح هم رؤوس هذه الجماعة.

وكان قد سبق لآل صباح، وآل خليفة (الذين أصبحوا الأسرة الحاكمة في البحرين فيما بعد) أن نزلوا في قطر بعد الرحيل من نجد. ثم هاجرت الأسرتان إلى الكويت.

ولكن بعد فترة غير طويلة، عاد آل خليفة إلى قطر، ثم انتقلوا منها إلى البحرين، تاركين آل صباح شيوخاً معترفاً بهم للمستوطنة المتنامية في الكويت.

وقبل مقدم العتوب، كانت هناك مجموعات منعزلة من صائدى الأسماك على امتداد هذا الجزء من الساحل، ولكن من الواضح أن سلطة الشيوخ من آل صباح كان معترفاً بها من جانب أى جماعة وجدت هناك قبل مجيئهم.

وكان تقرير كارسيتن نيبور، الرحالة الدانيماركى الذى قام برحلته البحرية في الخليج عام ١٧٦٤، هو أول الكتابات التى تتحدث عن الكويت. ووفقًا لما أورده في تقريره، كانت الكويت في ذلك الوقت تابعة للأحساء، وهي المقاطعة الساحلية لشبه الجزيرة العربية التى تقع جنوبي الكويت مباشرة، ويذكر نيبور في تقريره أن: «الكويت أو القرين كما يطلق عليها الفرس والأوربيون، مرفأ على الساحل، على مسيرة ثلاثة أيام من الزبير أو البصرة القديمة، ويعتمد السكان في حياتهم على الغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك. ويقال أنهم يستخدمون في هذا النوع من الصناعة البحرية أكثر من ٨٠٠ مركب. وعندما يقبل الفصل المواتى من السنة، تكاد هذه المدينة تخلو من سكانها حيث يخرج الجميع، إما لصيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ أو لممارسة نوع آخر من النشاط التجاري».

ويحكم القرين شيخ من قبيلة عتبة، وهو من أتباع شيخ الأحساء، ولكنه يتوق

إلى الاستقلال في بعض الأحيان. وفي مثل هذه الحالات، يزحف شيخ الأحساء بجيشه، فيتراجع سكان القرين حاملين مقتنياتهم متوجهين إلى جزيرة فيلكا الصغيرة ليتخذوا منها ملاذاً ومأوى.

والأرجح أن قبيلة عتبة Othema التى يذكرها نيبور هي تسمية مشتقة أو خطأ في هجاء اسم قبيلة عتبة العربية أو العتوب (بنو عتبة) الذين تنحدر منهم أول الجماعات التى نزلت الكويت. ومن الواضح أن فيلدجة هي فيلكة (وتنطق فيلتشة)، وهي جزيرة صغيرة تقع عند مدخل خليج الكويت، والأرجح أنها كانت المأوى الذى يهرع إليه سكان المدينة عندما يشعرون بالخطر. ومازال العديد مما أبداه نيبور من ملاحظات حول الكويت صحيحًا حتى اليوم، ومازالت المدينة تشتهر بتقاليدها في أنواع النشاط البحرى، وأيضًا مازالت الداوات الكويتية تقوم برحلاتها التجارية السنوية عندما تحل أشهر الشتاء.

والكويت اليوم دولة مستقلة ترتبط ببريطانيا ارتباطًا وثيقًا منصوصًا عليه في معاهدة. ومنذ مطلع القرن، كان النفوذ البريطاني قويًا في هذه المنطقة ضيقة المساحة، وذات الأهمية الاستراتيجية في نفس الوقت. وطوال خمسة وخمسين عامًا ظلت بريطانيا تمارس حقوقاً وتحظى بامتيازات محددة في الكويت. كما قامت بتعيين وكيل للمقيم السياسي بها لرعاية مصالحها.

وتاريخ السنوات التى انتهت بتوقيع المعاهدة بين بريطانيا والكويت عام ١٨٩٩ هو تاريخ امتداد وتوسع المصالح البريطانية التجارية والسياسية في الخليج العربى، ولذا فمن الملائم في هذا الصدد أن نقدم عرضًا للأحداث التى جرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتى خرجت منها بريطانيا وهي القوة المهيمنة في الخليج.

كان البحث عن الأسواق الجديدة والتطلع إلى التوسع التجارى في الشرق هما أول ما جاء بالإنجليز إلى الخليج، فكانا هما الدافع الذى جاء بالبرتغاليين والهولندنيين أيضًا من قبلهم.

والبرتغاليون هم أول من دانت لهم اليهمنة في الخليج العربى بعد إبرامهم معاهدة مع الشاه الفارسي إسماعيل عام ١٥١٥ تمكنوا بمقتضاها من إقامة قاعدة لهم في هرمز. ومازالت أطلال الحصون البرتغالية على امتداد شواطئ فارس وشبه الجزيرة العربية تعيد إلى الذاكرة سياسة ألبوكيرك التى كانت تقضى ببناء الحصون حيثما تأسس مركز تجارى، كوسيلة لإجابر الحكام المحليين على الاعتراف بالسيادة البرتغالية.

وظلت البرتغال بلا منافس في مياه الخليج العربى لمدة تزيد على القرن، لأنه لم يحدث إلا في عام ١٦١٦ أن أرسلت شركة الهند الشرقية سفينتها التجارية جيمس إلى جاسك Jask للبحث عن أسواق فارسية جديدة لتجارة الأقمشة الصوفية. ونظرًا لما حظيت به شركة الهند الشرقية من ترحيب وتشجيع في فارس، كثّفت نشاطها التجارى في تلك المنطقة، ثم منحها الشاه عباس في عام ١٦١٩ حق احتكار تجارة الحرير في الخليج. وفي عام ١٦٢٢ كانت بريطانا تتحدى الهيمنة البرتغالية، وفي نفس السنة استولى الإنجليز على هرمز اعتمادًا على قوة من الفرس. وابتداءً من ذلك التاريخ أخذ النفوذ البرتغالى في التداعى، ولكن بريطانيا لم تصبح بلا منافس لتجارتها في الخليج، لأن الهولنديين – وقبل زوال النفوذ البرتغالى – كانوا قد بدأوا يتطلعون في حسد وترقب للثروات التى حققتها تجارة التوابل للبرتغال. وسرعان ما أخذ الهولنديون يزيحون شركة الهند الشرقية بعيدًا عن فارس، حتى دانت لهم السيادة البحرية في الخليج عام ١٦٣٩. ولم يتمكن الإنجليز من ترسيخ أقدامهم كقوة مسيطرة في الخليج إلا بعد أن دمر الفرس الوكالة الهولندية في الخارج عام ١٧٦٦، وبعد فشل ما قامت به القوات البحرية الهولندية من تهديدات بريطانيا بالقرب من ديارها في الغرب.

ولكن الملاحة التجارية الإنجليزية في الخليج واجهت عقبة خطيرة تمثلت في أعمال القرصنة التى تتخذ من ساحل عمان قاعدة لها، وكان ربابنة السفن العرب،

المتأثرين بالدعوة الوهابية التى تنادى بالموت للكفار، يمثلون تهديدًا حقيقيًا وخطيرًا للتوسع التجارى الذى تسعى إليه شركة الهند الشرقية على شواطىء الخليج.

ويقدم ج. س. بكنجهام في كتابه (رحلات في آشور، وميديا، وفارس) الذى نُشر عام ١٨٣٠، وصفًا شيقًا لأكثر زعماء القراصنة شهرة، المدعو رحمة بن جابر – الذى واصل أعماله الإرهابية ضد الملاحة في الخليج طوال السنوات العشرين الأولى منذ بداية القرن. ويذكر الكاتب أن (رحمة) كان من سكان الكويت المحليين، ولكنه كان يتخذ من قلعة الدمام على ساحل الأحساء قاعدة له على الشاطىء، ومنها ينطلق لمهاجمة السفن التابعة لمدينته ذاتها وكذلك سفن البحرين والبصرة ومسقط. وفيما يلى ما ذكره بكنجهام في معرض تناوله لعادات وطباع هذه الشخصية النابضة بالحيوية: «ينزع هذا الزعيم السفّاح إلى الشديدة في ملبسه وخصاله ومعيشته، وأينما ذهب، لا يمكن لغريب أن يميزه عن الحشد المتلف حوله من أتباعه. وهو يبلغ في بساطته درجة من القذارة تثير التقزز، ورداؤه لا يزيد عن قميص لا يستبدله بغيره أبدًا، ولا يُغسل منذ أن يرتديه لأول مرة وإلى أن يبلى».

توفى رحمه بن جابر عام ١٨١٨ في صدام مع حملة وجهها ضده شيوخ البحرين. وأثناء المعركة التى دارت في البحر أدرك أن هزيمته آتية لا ريب فيها، فأحرق سفينته بيده، ليلقى حتفه معها هو ومن كان برفقته من أتباعه*.

ومنذ البداية، كان نشاط شركة الهند الشرقية في بلاد غريبة يتطلب أن يكون في حوزتها سلاح وأسطول بحرى خاص بها، وأن تجرى مفاوضاتها السياسية باسمها، فاتخذت فرقاطاتها مواقعها في الخليج منذ أن اتسعت مصالحها في المنطقة. ولكنها قررت في نهاية الأمر، وفي مواجهة الهجمات المستمرة للقراصنة، أن تلجأ إلى إجراءات أكثر تشددًا، فأرسلت في ثلاث مناسبات – في أعوام ١٨٠٦ و ١٨٠٩ و

* الصحيح هو الشيخ رحمة بن جابر الجلاهمة الذى أشعل النار في سفينته خشية أن يقع أسيرًا لدى آل خليفة، فانفجرت السفينة بمن فيها، وكان ذلك سنة ١٢٤٢ هـ. [سيف مرزوق الشملان].

١٨١٩ - حملات مسلحة من بومباى ضد شيوخ ساحل القراصنة العرب. وأدت هذه الحملات إلى رضوخ زعماء القراصنة مؤقتًا. وفي شهر يناير ١٨٢٠ وقّع شيوخ دبيّ ورأس الخيمة والبحرين وأبوظبى والشارقة معاهدة عامة للسلام. وبالرغم من حظر القرصنة منذ ذلك التاريخ، لم تشعر الملاحة البحرية بالأمان إلاّ بظهور السفن البخارية التى لم يكن في مقدرة السفن الشراعية العربية أن تناطحها.

وحظرت معاهدة ١٨٢٠ أيضًا تجارة الرقيق. ولكن كان من العسير على تجار الخليج أن يسلموا بالتنازل والتخلى عن هذا المورد الثمين للأرباح، فاستمرت تجارة الرقيق، وعجز كل ما أعقب ذلك من معاهدات واتفاقات عن اقتلاع جذورها. ولم تتأثر هذه التجارة لدرجة فعالة إلا عندما صدرت التعليمات للدوريات البريطانية في الخليج بالقبض على أى سفينة تحمل رقيقًا.

وكانت قوة بريطانيا البحرية - وقاعدتها الهند - هي التى مكنها من تحقيق الوضع الذى صارت عليه في أوائل القرن التاسع عشر، وبدون هذه القوة كان من المتعذر أن تنجح فيما أنجزته من خطوات فيما يتعلق بالقرصنة وتجارة الرقيق. والواقع أن احتياجات شركة الهند الشرقية هي التى أدت إلى مبادرة بريطانية بممارسة المزيد من النشاط السلمى في الخليج. فقد أدركت سفن الأسطول التى شاركت في الحملات ضد القراصنة في عامى ١٨٠٧ و ١٨٠٩ مدى الحاجة إلى خرائط تفصيلية ودقيقة للخليج. وكانت هناك محاولات بالفعل جرت في عامى ١٧٧٢ لإجراء عمليات مسح أولية للساحل امتدت حتى وصلت إلى البصرة في شط العرب عام ١٧٨٥، ولكن تبين أنه من المتعذر عمليًا مواصلة هذه العمليات، فتوقفت، وربما يرجع ذلك إلى نشاط القراصنة. ولم يستأنف العمل إلاّ بعد توقيع معاهدة السلام في عام ١٨٢٠، ففي ذلك العام، وتحت إشراف الكابتن فيليب مورجان والكابتن جاى، بدأت عمليات المسح من جديد واستمرت طوال السنوات التسع التالية، فتوفرت المعلومات التى تستند إليها الخرائط التى بين يدينا الآن للخليج العربى.

ومنذ أن تفوق البريطانيون على الهولنديين في الخليج أخـذت بريطانيـا تدعـم تنظيمها السياسي في الأراضى المجاورة بخطى راسخة، لأنها اعتبرت موانـى الخليـج مخفرًا أماميًا للهند، فعقد العزم على أن تمارس نفوذًا لا منافس له عليها، لضمان أمـن ممتلكاتها في الهند، وتأسست قنصيلة بريطانية في البصرة عام ١٧٦٤، وحـل مسئول حكومى في بوشهر محل المقيم المعيَّن من قِبَلْ شركة الهند الشرقية. ويصور أحد المؤرخين هذا التطور فيقول: «.... وانتقلت العلاقات بين الخليج وإنجلترا من دفاتر التجار إلى ملفات رجال الدولة».

ولكن ما كان للدول الأخرى أن ترضى بالوقوف بعيدًا والترقب بينما بريطانيـا تحصل على الامتيازات التجارية والسياسية وتستأثر بها وحدها في الخليج. وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأت روسيا تطل برأسها وتمارس الضغوط في الجنوب، وأدى استيلاؤها على بعض الأراضى شمالى فارس واتساع نشاطها التجارى ونفوذها، إلى إحساس بريطانيا بالخطر الذى يهدد تفوقها الأثير لديها في الخليج العربى، وطوال القرن التاسع عشر، لم يتوقف اهتمام روسيا بالأراضى الواقعة شمالى الخليج، ودخلت في أواخر القرن في مفاوضات من أجل الحصول على محطة للفحم في الخليج، وفي نفس الوقت ظهرت - لأول مرة - الخطط الخاصة لمد خط حديدى من البحر المتوسط إلى الكويت، بتمويل من روسيا.

ودفعت هذه الدلائل المنذرة بالخطر بريطانيا إلى السعى للحصول على تعهدات أكثر إلزامًا من شيوخ الخليج، وفي عام ١٨٥٣ حلت معاهدة دائمة للسلام محل معاهدة ١٨٢٠، وقّع عليها شيوخ الساحل المتهادن، ولكن بريطانيا كانت تتلهف لإدخال هذه الدول العربية تحت حمايتها، وأن تربطها بها بتحالف أشد قوة وثباتًا.

ووفقًا لأحكام المعاهدة الجديدة الموقعة في مارس ١٨٩٢ تعهدت دول الساحل المتهادن: (١) بعدم إبرام أية معاهدات أخرى إلاّ مع بريطانيا العظمى، (٢) عدم

السماح بوجود أى وكلاء أجانب إلاّ بموافقة الحكومة البريطانية، (٣) عدم التخلى عن أى أراضى إلا بموافقة الحكومة البريطانية. وبعد أسبوع وقعت البحرين اتفاقية مماثلة في ١٣ مارس ١٨٩٢.

وكانت السيادة التركية تمتد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الأراضى التى تشملها العراق في الوقت الراهن، حتى الساحل الشمالى للخليج العربى. ولكن تركيا ساعدت بريطانيا ولم تكن عقبة في سبيلها نظرًا لما كانت تحظى به بريطانيا طوال هذين القرنين من مكانة خاصة لدى الباب العالى، ونتيجة للفرص المواتية التى أتيحت لها في بلاد العرب التركية (ما بين النهرين). والواقع أن بلاد ما بين النهرين كانت تعتبر – من جانب بريطانيا – امتدادًا تجاريًا للخليج العربى، حيث صرح اللورد كيرزون في عام ١٨٩٢ بأن: «بغداد تقع ضمن فئة الموانى الخليجية».

ولكن موقف تركيا من بريطانا أخذ في التغير منذ أواخر القرن التاسع عشر رغم استمرار المكانة الخاصة لبريطانيا لدى شيوخ ما بين النهرين. وكانت ألمانيا تشعر بالمودة ومشاعر الصداقة من جانب السلطات التركية، وبدأت في ممارسة تأثيرها خلال نشاطها التجارى في تركيا وبلاد العرب التركية. ودعمّت مؤسسة تونكهاوس مواقع أقدامها في الخليج العربى لتصبح منافسًا حقيقيًا للبيوت التجارية الإنجليزية.

وفي عام ١٨٩٩ حصلت ألمانيا من السلطان عبدالحميد على امتياز لمدّ خط حديدى من الأستانة إلى الخليج العربى، على أن تكون الكويت، بموقعها الجغرافى المتميز هي نقطة النهاية الشرقية الطبيعية لهذا الخط.

ولم تأبه بريطانيا بهذا الأمر في البداية نظرًا لانشغالها بالخطر الروسى واتساع النشاط التجارى الألمانى في تركيا. ولكن المغزى السياسى الخطير لمشروع الخط الحديدى بالإضافة إلى النمو المفاجىء للصناعة الألمانية واستيلائها على بعض الأسواق

التى كانت حكرًا لبريطانيا حتى ذلك الحين، فتح أعينها على نجد ما كانت تجسر على تجاهله.

وحتى ذلك الوقت لم تكن الكويت، التى تقع على الحدود الجنوبية لبلاد العرب التركية، قد وقعت بعد على أى معاهدة مع بريطانيا، وأكثر من مرة، كان مبارك يطلب الدخول تحت الحماية البريطانية. ولكن الكويت كانت تعتبر خاضعة لتركيا، ومن ثم فهى وضع يختلف عن وضع المشيخات المستقلة التى وقعت المعاهدات في عام ١٨٩٢. وفى عام ١٨٩٣ اعترف اللورد كيرزون (نائب الملك في الهند آنذاك) بأن الكويت تتبع تركيا، كما أعلن السير أرنولد ولسون أنها كانت تعتبر حتى عام ١٨٩٦ تحت النفوذ لتركيا. ولكن احتمالات تحوّل الكويت إلى محطة روسية للفحم أو نقطة نهاية لخط حديدى ألمانى، قطعت الشك باليقين وبدتت أى ظنون كانت لاتزال تراود بريطانيا في هذا الصدد. وف ٢٣ يناير ١٨٩٩ تم توقيع اتفاقية مع الكويت، تنفيذاً لتعليمات من كيرزون على غرار المعاهدات السابق إبرامها مع البحرين وشيوخ الساحل المتهادن.

وتعهد شيخ الكويت، وفقًا لأحكام اتفاقية جديدة وقعت في فبراير ١٩٠٤، بعدم السماح لأى مكاتب بريد بممارسة نشاطها في أراضيه إلا تلك التى تحددها الهند، وفي يوليو ١٩١١ تعهد بعدم منح أى امتيازات للغوص على اللؤلؤ أو استخراج الإسفنج إلاّ بموافقة بريطانيا، كما تعهد في أكتوبر ١٩١٣ بعدم منح أى امتيازات للنفط إلاّ بموافقتها أيضًا.

وفي عام ١٩٠٢ قامت بريطانيا بتسوية خلافاتها مع روسيا بتوقيع اتفاقية الوفاق الروسى - الإنجليزي* ، وأصبحت ألمانيا منذ ذلك التاريخ، هي المنافس الخطير في دائرة النفوذ البريطاني في الخليج العربى.

* الاتفاق الودي عام ١٩٠٧ وليس عام ١٩٠٢ [المترجم]

وقام اللورد كيرزون بزيارة الكويت أثناء جولته بالخليج عام ١٩٠٣. وكان الغرض الرئيسى لهذه الجولة هو إجراء محادثات مع شيوخ الخليج الذين تجمعوا للقائه في الشارقة في ٢١ نوفمبر وكانت سياسة اللورد كيرزون في الخليج تتركز في إدخال دولة تحت الحماية البريطانية مقابل ممارسة بريطانيا لنفوذها وسيطرتها الكاملة في كافة الأمور السياسية والتجارية. وشرح اللورد كيرزون سياسته للشيوخ المجتمعين للقائه، فقال: لقد أنقذناكم من الهلاك على يد جيرانكم، وفتحنا البحار أمام السفن من كافة الأمم، ومكنّاها من رفع أعلامها في أمان، ونحن لم نحتل أراضيكم أو نستولى عليها، ولم ننتقص من استقلالكم، بل حافظنا عليه. ونحن لا نعتزم التخلى عن هذه البلاد التى حققنا فيها انتصارات تكلفت الكثير، ولن نلقى بأكثر صفحات التاريخ تجردًا من الأنانية في غياهب النسيان. إن سلام هذه المياه وأمنها لابد أن يستمر، وسوف يظل استقلالكم مصونًا، وسوف يظل نفوذ الحكومة البريطانية هو الأسمى.

وفي يونيو ١٩٠٤ تم تعيين أول وكيل سياسى بريطاني بالكويت.

وفي هذه الأثناء لم يحرز مشروع خط البحر المتوسط - الكويت الحديدي أى تقدم، وقوبلت الاقتراحات التى سبق التقدم بها بمشاركة بريطانيا في تمويل هذا الخط بمعارضة شديدة من الدوائر الرسمية في بريطانيا. ولكن موضوع المشاركة أثير من جديد في عام ١٩٠٧، وتقدم اللورد هالدن للقيصر ولهلم الثاني باستعداد بريطانيا للتعاون في المشروع إذا حصلت على حق إقامة وتشغيل الجزء الممتد من بغداد إلى الخليج العربى. وفي عام ١٩٠٩ وبهدف التحديد الدقيق لعالم دائرتين للنفوذ، كانت بريطانيا على استعداد للسماح لألمانيا بحرية العمل شمالى بغداد مقابل أن تحصل هى على امتياز مماثل جنوبى بلاد ما بين النهرين. وبدأت المفاوضات مع تركيا حول هذا الموضوع في عام ١٩٠٩، ولكن لم يتم التوقيع على اتفاقية إلا في عام ١٩١٣ بعد أن اضطرت بريطانيا للتخلي عن العديد من مطالبها الأصلية. واعترفت تركيا بالوضع الخاص

لبريطانيا في الخليج، وسريان المعاهدات المبرمة بين بريطانيا والبحرين والكويت، مع الاعتراف بالكويت كدولة تتمتع بالحكم الذاتي، تحظى بريطانيا فيها بوضع متميز. كما تم الاتفاق على أن تكون البصرة هي نقطة نهاية الخط المقترح، وعلى ألا يتجاوز هذه المدينة إلاّ بموافقة بريطانيا.

ولكن هذه المعاهدة لم يُصّدق عليها على الإطلاق، نظرًا لنشوب الحرب في عام ١٩١٤، ولكن العلاقات الخاصة لبريطانيا بالكويت والمعترف بها في صلب المعاهدة استمرت منذ ذلك التاريخ وحتى وقتنا الراهن*.

* موعد صدور الكتاب عام ١٩٥٦.

الفصل الثاني
الشيخ مبارك
وابن سعود

الفصل الثاني

الشيخ مبارك وابن سعود

يمكننا القول بأن التاريخ الحديث للكويت يبدأ عام ١٨٩٦ بعهد الشيخ مبارك الصباح، لأن الكويت برزت على الساحة تحت حكمه في أواخر القرن التاسع عشر كدولة متكاملة الأركان ومستقلة عن جاراتها الأكثر قوة.

وتكشف الأحداث التى انتهت بتولّى مبارك السلطة عن بعض الدلائل التى تحدد ملامح شخصية هذا الحاكم الكبير الذى لازالت ذكراه عالقة بالأذهان في الكويت. وطوال السنوات التى انقضت قبل حكم مبارك، كانت الفوضى الشاملة هي السمة المميزة للشئون الداخلية في الكويت، وكانت سلطة الشيخ محمد منعدم الكفاءة ويحيط نفسه بمجموعة من مستشارى السوء. ووجد عرب الصحراء الذين لا يطيقون الإذعان لأى سلطة، أنه يمكنهم مواصلة ممارساتهم التقليدية في شن الغارات والقتال من وقت لآخر، دون أن ينالهم أى عقاب، فأخذوا يتجاهلون سلطة الشيخ دون مواربة حتى لم يعد هناك من وازع يردعهم أو قانون يلتزمون به. وفي نفس الوقت تسللت قبيلتا «شمر والظفير» إلى الكويت وأغارت عليها قادمة من نجد، بينما أخذت تركيا بالتدريج على أراضى جارتها الصغيرة من الشمال، بحيث لم يعد هناك وجود للحدود الكويتية في واقع الأمر.

وكان محمد الصباح مستسلمًا طوال سنوات حكمه لتأثير يوسف بن عبدا لله الإبراهيم مذعنًا لنصائحه، بينما يوسف هذا أجنبى من رعايا البصرة، ولا يخفى ميوله التركية رغم ما أدى إليه ذلك من انعدام شعبيته لدى الكويتيين الذين يتوقون إلى الحفاظ على استقلالهم عن تركيا*.

* يوسف الإبراهيم ليس صحيحا أنه عراقي بل كويتي [المترجم]

وأدى ضعف محمد وتراخي قبضته في إدارة شئون البلاد إلى إثارة مشاعر السخط والازدراء من جانب أخيه الأصغر مبارك، الذى جاهر بعدم رضائه أو اقتناعه بحكم أخيه. وصبّ انتقاداته اللاذعة على سياسة «دعه يعمل» المدمرة التى سمحت للبدو بتحدى سلطة الشيخ وأشاعت الفوضى بين القبائل.

وأدرك يوسف الإبراهيم أن مبارك خصم يستطيع أن يفرض مكانته لدى محمد، واستخدم ما له من تأثير قوى على الشيخ من أجل إخراج مبارك إلى الصحراء وتكليفه بمهمة إقرار النظام والقانون بين البدو. ولو أن محمد عين أخاه الأصغر للاضطلاع بهذه المهمة في محاولة جادة لإعادة السيطرة على الأوضاع، لما كان هناك ما هو أفضل من هذا الاختيار، ولكن الأمر صدر لمبارك بالخروج من المدينة دون تزويده بأى أموال لتغطية نفقات المهمة التي كُلف بها، حتى أصبح إطلاق لقب أمير البادية عليه ضربًا من الفكاهات التى تندر بها الكويتيون. وكان من الواضح أن الغرض الكامن وراء هذا الأمر كله لا يعدو أن يكون إبعاده عن المدينة فحسب. وعندما رحل مبارك، تمكن يوسف الإبراهيم من توطيد موقعه كمستشار أول للدولة.

وفي هذه الأثناء بدأ مبارك - وقد شعر بأنه منفىّ في الصحراء، عاجز عن الحركة لافتقاده للمال - بدأ في التخطيط للإطاحة بأخيه، والتحوّل عن سياسة الخضوع لتركيا التى يرفضها الجميع. وفي محاولة منه لتوفير الموارد اللازمة للإنفاق على أتباعه وتدعيم مركزه في البادية، ناشد أخاه محمد أن يمدّه بعشرة آلاف روبية، وقال أنه يريد هذا المبلغ ليتزوج ويشترى بيتًا في المدينة. وعندما قوبل طلبه بالرفض، قرر أن يلجأ إلى القوة، وإذا كان الهدف هو الاستيلاء على السلطة في الكويت، فلا مفرّ من التخلص من محمد، ومعه جراح الأخ الثانى، ويوسف، الأجنبى الخائن.

ولم يكن في مقدرة مبارك أن يحشد تحت قيادته قوة من المقاتلين بالحجم الذى يستطيع معه القيام بثورة، كما كان من المؤكد أنه يواجه أى هجوم مباشر ضد السلطة الحاكمة بالمقاومة من جانب جميع القوات التى تخضع لإمرة الطغمة الموالية

للأتراك التى تدير أمور المشيخة، وكان عليه أن يخطط لانقلاب يمكن القيام به اعتمادًا على ما لايزيد عن حفنة من الرجال، ومن ثم جازف بحياتــه وراهـن علـى أن شـعب الكويت سيسلم بالأمر الواقع فلا يبدى أى مقاومة ولا يهب لمساندة النظام الذى أطيــح به.

وفي ليلة السابع عشر من مــايو ١٨٩٦ توجـه مبـارك مـن الصحـراء إلى مدينـة الكويت وبصحبته اثنان من أبنائه، جابر وسالم، وسـبعة مـن بـدو عجمـان والرشـايدة محلّ ثقته. وقبل منتصف الليل مباشرة وصلوا إلى بوابة المدينة * ، ودخلوها تحت جُنح الظلام، واتخذوا طريقهم نحو بيت الحاكم. كان محمد نائمًا على السطح، كمـا يفعـل الكويتيون عندما تشتد الحرارة داخل المساكن، وما أن دخـل مبـارك، دون أن يلحظـه أحد، حتى تسلل في صمت إلى مخدع أخيه. وبعد أن أيقظه، أرداه قتيــلا بطلقـة مـن غدّارته، وكانت هذه هي الإشارة التى يترقبهـا بقيـة الرجـال الرابضـين أسـفل الـدار، وعندما عرفوا بقتل الشيخ، دخل جابر غرفة جراح وقتله بطعنة من سيفه بينمـا منـع الآخرون من الهروب لنشر الخبر *.

وبعد أن تـرك بعـض أتباعـه لحراسـة مسـكن محمـد، خـرج مبـارك مسرعًا للبحث عن يوسف الإبراهيم، وكان يسعى لقتله هو الآخر. ولكن المستشـار الأريـب لم يُعثر له على أثر، ومن الواضح أن الشائعات التى ترددت حول اعتزام مبارك العودة إلى المدينة بلغته في الليلة السابقة فنجا بنفسه وغادر الكويت على متن إحدى السفن. ورغم عدم تحقيق مبارك لكل ما كان يهدف إليه من الهجوم، إلا أنه كان على يقين من أنه

---

* الكويت ليس لها سور آنذاك. [سيف مرزوق الشملان].

* الرواية الصحيحة عن وصول مبارك إلى الحكم، راجع عبدالعزيز الرشيد، تـاريخ الكويـت ص ١٤٤، وكذلـك كتـاب الشـيخ يوسـف بـن عيسـى القنـاعي، صفحـات مـن تـاريخ الكويـت. [المترجم].

أصبح سيد الموقف الآن، ولم يعد أمامه إلا الحصول على تأييد أسرة الصباح، وعندئذ فسوف تتبعه جمهرة من الناس.

ومكث مبارك ما تبقى من تلك الليلة الدامية في بيت أخيه، وعندما لاحت بشائر الفجر، اغتسل، وارتدى ملابسه، وأدى الصلاة، ثم توجه إلى قاعة المجلس الكبرى حيث يجرى الشيخ مقابلاته كل صباح. ولم تكن أنباء مقتل محمد قد تسربت بعد من البيت الذى أُحكمت حراسته، وعندما بزغ الفجر كانت المجموعة الصغيرة من المتمردين هي وحدها التى تعرف أن مباركًا اعتلى العرش.

وكان أعضاء أسرة صباح هم أول من وصل إلى قاعة المجلس. وعندما دخلوا، وجدوا مبارك وقد اعتلى مكان الحاكم في صدر الغرفة. ورغم ما ران عليهم من رعب وتوتر، إلا أنهم لم يجسروا على إبداء مخاوفهم. واتخذوا مواقعهم في القاعة، وجلسوا بالطريقة المعتادة انتظارًا لما يحدث، بينما ترقبهم العين اليقظة المتحفزة لتلك الشخصية الفذة الآسرة التى سيطرة على المكان. وتوالى وصول علية القوم واحدًا تلو الآخر، ليتخذوا مجالسهم بدورهم في القاعة، بينما مبارك يرقب ما يجرى في صمت. وأخيرًا، وعندما امتلأت القاعة بالوافدين، أخرج سيفه من غمده وبسطه على ركبتيه، ثم أعلن أن محمد وجراح قد ماتا، وأنه تولى الحكم بدلاً منهما.

وكانت الميول التركية للحاكم السابق أحد الأسباب الكامنة وراء استيلاء مبارك على السلطة. وها هو الحاكم الجديد يعلن، وبدون موارية، إن الكويت بلد مستقل، ولا تدين بأى ولاء للأتراك. وفي مواجهة التهديدات التركية باستعادة سلطتها في الكويت، توجه مبارك إلى بريطانيا طالبًا حمايتها. وفي عام ١٨٩٩ تم توقيع معاهدة بين الطرفين اعترفت بريطانيا بمقتضاها باستقلال الكويت عن تركيا.

وبعد أن وطّد الشيخ مبارك ارتباطه ببريطانيا على هذا النحو، ازدادت العلاقات الكويتية التركية تدهورًا، إلى أن وصلت السفينة التركية «زحاف» إلى الكويت في ديسمبر ١٩٠١ لتوجه إنذارًا لمبارك وتطالبه إما بالموافقة على نزول قوة

مسلحة تركية بالكويت، أو مغادرة البلاد والتوجه للإقامة بالأستانة. وبكل حزم، رفض مبارك الإنذار التركي وكل ما قُدم إليه من اقتراحات، فلم يكن أمام زحاف إلا أن تقفل راجعة خاوية الوفاض.

وفي نفس الشهر انتشرت المخاوف بأن يقوم الأتراك، بتحريض الكويت من الألمان بدفع ابن الرشيد الحاكم القوى لوسط نجد إلى مهاجمة الكويت من من جهة البر، فأقبل الأسطول البريطاني لساندة مبارك، ونزلت قوة صغيرة إلى البر وتوجهت إلى الجهرة، بينما ظلت ثلاث طرادات رابضة بالقرب من الساحل للتدخل عند الضرورة. ولكن الهجوم الذى خطط له أعداء مبارك بلاشك، لم يقدّر له أن يتم.

وفي خريف ١٩٠٢، وضع يوسف الإبراهيم - الموالى لتركيا والذى كان نفوذه لدى الشيخ محمد أحد العوامل التى أثارت حنق مبارك ومعارضته - خطة لاسترداد السلطة في الكويت، ونزلت قوة كبيرة من أشراف العرب في الدورة على شاطئ العرب، تحت قيادة اثنين من أبناء جراح، بهدف الزحف على الكويت والإطاحة بمبارك. وبلغت أنباء هذه الحملة قائد الطراد البريطاني «لابوينج» في ٣ سبتمبر، فهرع إلى الكويت على الفور ليحذر الشيخ. وعندما وصلت السفينة البريطانية إلى الكويت، كانت المدينة في حالة من الترقب والحذر وهي تحمل السلاح. وبعد يومين، اعترضت لابوينج قوات العدو في البحر، وطاردتها، وأسرت قاربين على متنها ١٥٠ من الرجال المسلحين بعد قتال مرير.

وكانت هذه هي آخر محاولة تُبذل لخلع مبارك عن العرش. وفى نهاية القرن التاسع عشر، انفرط عقد ذلك الجزء من بلاد العرب الذى يشكل المملكة العربية السعودية الآن وفشت فيه الانقسامات نتيجة للعداء المتبادل بين العائلات القوية والقبائل المحاربة المتنافسة. وكان الحجاز الذى يضم الحرمين الشريفين مكة والمدينة، تحت حاكم البيت الهاشمى، وفي حماية تركيا، وانقسمت نجد بين الفريقين المتنافسين، آل الرشيد وآل سعود، اللذين ظلا لسنوات طويلة في عداء متصل. وكانت

هناك شمالي نجد إمارة ابن الرشيد الوراثية ، ومركزها مدينة حائل الحصينة في القصيم، بينما تقع إلى الجنوب إمارة ابن سعود، وعاصمتها بالرياض. وكان آل الرشيد على علاقة طيبة بالشريف حسين، الحاكم الهاشمي للحجاز، بينما يجمعه بابن سعود عداء دفين.

ولعدة أجيال متعاقبة، ظل آل سعود يحاربون آل الرشيد من أجل الهيمنة على نجد كلها. وأخذ الجانبان يتبادلان غزو واحتلال أجزاء من أراضي الطرف الآخر، مع تفوق هذا الطرف مرة والطرف الآخر في جولة تالية، إلى أن تغير مجرى الريح. ففي مطلع القرن كان آل سعود في حالة تراجع وانكسار، واضطر عبدالرحمن بن سعود إلى الفرار إلى الكويت، بينما وطد ابن الرشيد نفوذه في جميع أنحاء نجد.

وعندما لجأ الأمير عبدالرحمن إلى الكويت، كان بصحبته ابنه عبدالعزيز بن سعود، وكان لايزال في التاسعة من عمره. وشبّ الغلام إلى أن بلغ مرحلة الرجولة في بلاط مبارك، شيخ الكويت، ويقال إنه تعلم، تحت رعاية مبارك، الكثير من الدهاء السياسي الذى اقترن باسمه في السنوات الأخيرة.

وكانت الكويت تساند آل سعود في صراعهم من أجل الاستيلاء على نجد، فأدى ذلك إلى فتور العلاقات بين مبارك وابن الرشيد. ونظرًا لموالاة ابن الرشيد للأتراك، وتأكيد الكويت لاستقلالها عن تركيا وفقًا للمعاهدة المبرمة مع بريطانيا، ازداد لهيب العداء بين الطرفين.

وعندما بدا في عام ١٩٠١ أن الأتراك ربما تواطأوا مع ابن الرشيد للهجوم على الكويت، بدأ مبارك يدبر لإنفاذ حملة لملاقاة قوات ابن الرشيد في اتجاه الغرب. وناشد عبدالعزيز بن سعود، وقد عدا الآن شابًا في التاسعة عشر من عمره مفعمًا بالحيوية والتوثب، ولايزال مغيبًا في المنفى، ناشد مبارك أن يوليه قيادة فرقة صغيرة تتوجه إلى الشمال للتمويه وتشتيت الأنظار عن القوة الكويتية الرئيسية. وبات واضحًا في مجرى ما أعقب ذلك من أحداث، أن هذا لم يكن هو الغرض الحقيقي الذى يسعى إليه

الشاب عبدالعزيز بقيادة حملة تتوجه إلى الرياض، وإنما كان الأمير السعودى، بما يتسم به من جسارة وطموح كانا هما السمة المميزة لمسيرته فيما بعد، يخطط من أجل الخطوة الأولى لاسترداد ممتلكاته المتوارثة عن أسلافه من ابن الرشيد.

وقصة الطريقة التى استولى بها ابن سعود على رأس عصبة قليلة العدد من أتباعه على قلعة الرياض وقتله حاكمها الرشيدي من أكثر القصص دموية وقسوة في سجل التاريخ العربى، وكانت الأحداث التى جرت في ١٤ يناير ١٩٠٢ من الخطورة وعمق الآثار المترتبة عليها حتى طبقت شهرتها الآفاق وتردد صداها في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، وأما بالنسبة للكويتيين الذين مازالوا يذكرون تفاصيل مقتل محمد الصباح، فكان الانقلاب المدوى الذى تحقق في الرياض شبهًا لدرجة مذهلة بذلك الانقلاب الذى تولى به مبارك السلطة في الكويت منذ ست سنوات.

وفيما أعقب ذلك من سنوات، أخذ ابن سعود، وهو الآن أمير الرياض، يحقق نصرًا بعد نصر ضد ابن الرشيد، بمساندة مبارك في الكويت وقبائل المنتفق في العراق. وبعد أن أحكم قبضته على نجد، تحوّل إلى الجنوب نحو الأحساء فاستولى على الهفوف وانتزعها من الأتراك عام ١٩١٣، وطردهم من جميع ربوع الولاية.

وكان من الواضح في ذلك الوقت أن ابن سعود هو «سيد» وسط بلاد العرب، بحق الفتح، وأدركت بريطانيا أنه يمكنها أن تستفيد من الوضع الجديد إذا ارتبطت به بعلاقات الصداقة والود. وتحقيقاً لهذا الغرض، عقد لقاء في أواخر عام ١٩١٣ بين ابن سعود والوكيلين السياسيين البريطانيين في الكويت والبحرين.

وكان ابن سعود راغبًا أيضًا في التوصل إلى نوع من الاتفاق الودّى مع تركيا. وفي محاولة منه لتسوية الخلافات التى لازالت مستمرة بين الجانبين، التقى في عام ١٩١٤ بعدد من ممثلى الجانب التركى بالقرب من الكويت. ولكن التسوية التى انتهت إليها المحادثات لم يقدّر لها أن ترى النور نظرًا لاندلاع نيران الحرب في نفس السنة.

وفي أوائل حرب ١٩١٤-١٩١٨ ازداد الموقف في شبه الجزيرة العربيــة تعقيـدًا نتيجة لتحالف الشريف حسين، حاكم مكة، مع بريطانيا العظمـى، في نفس الوقـت الذى حافظة فيه على صداقته التقليدية مع ابن الرشـيد المـوالى للأتـراك. ورغـم ذلـك، شاركه ابن سعود، وهو العدو اللدود للشريف حسين، تعاطف مع قضية الحلفاء.

وعندما تبين في عام ١٩١٤ أن الألمان يسعون من أجل إبعاد تركيا من بريطانيا العظمى وإثارة البلدان العربية ضد الحلفاء أبلغت بريطانيا ابن سعود، عن طريق مبارك شيخ الكويت، أنها تعقد الأمل عليه لمساعدتها على المحافظة على السـلام والأمـن في شبه الجزيرة العربية.

وفي نفس الوقت، صدرت التعليمـات للكـابتن و. هـ. أ. شكسـبير، الوكيـل السياسى البريطاني بالكويت والذى سبق له أن التقى بسلطان نجد وقـام بـالعديد مـن الرحلات في بلاد العرب، من السير بيرسـى كوكـس، بـأن يقـوم برحلـة إلى الأراضـى الداخلية لبلاد العرب من أجل الاتصال بابن سـعود وضمـان مسـاندته للحلفـاء. وذكـر شكسبير في رسالة بعث بها في ٤ يناير ١٩١٤ أن السلطان يتعاطف من كـل قلبـه مـع الحلفاء، وأنه يرغب في إبرام معاهدة صريحة مع بريطانيا تمكنه مـن أن يجـاهر علنًـا بوقوفه إلى جانبها.

وبعد بضعة أيام من وصول رسـالة شكسـبير، اشـتبكت قـوات ابـن سـعود في معركة عند جراب Jarrab مع قوات ابن الرشيد الذى كان لا يزال يواصل القتال ضـده على فترات متقطعـة، وسـاعد شكسبير، وكـان مـن ضبـاط المدفعيـة، السـعوديين في تشغيل مدفع الميدان الوحيد الذى كان في حوزتهم وجاءوا به إلى ميدان المعركـة. ولكـن القوات السـعودية اضطـرت إلى الـتراجع في نهايـة الأمـر، وعندمـا ارتـد البـدو، أصـر شكسبير على الاستمرار بجوار المدفع إلى أن مزقته سيوف الرشيديين إربًـا. وظـل اسـم شكسبير يعيش مُكرمًا في ذاكرة العرب، سواء في الكويت حيث عمل كوكيل سياسـى، أو في العربية السعودية التى سقط قتيلاً بها من أجل قضيتها.

وبعد معركة جراب، تدهور وضع ابن سعود واهتزت مكانته إلى حد ما، واضطر طوال السنة التالية إلى تركيز جهوده وتخصيص موارده لقمع الثورة التى قام بها أهل عجمان، وهم من أكثر القبائل النازلة بأراضيه قوة وبأسًا، وحصل ابن سعود في هذا الصراع على مساعدات مادية من مبارك شيخ الكويت. وعندما اضطر ابن سعود إلى التقهقر أمام آل عجمان في أواخر عام ١٩١٥ ووجد نفسه محاصرًا منهم في الهفوف، أبدى مبارك مشاعر الصداقة المخلصة تجاهه فأرسل ابنه سالم وحفيده أحمد (شيخ الكويت السابق) على رأس جيش لنجدة السلطان ورجاله في المدينة المحاصرة.

ونجحت القوة الكويتية في رفع الحصار، ودمرت معسكر العجمان بالقرب من القطيف. ولكن زعماء الكويت وافقوا بعد هذا الانتصار، ورغم اعتراض عبدالعزيز، على لجوء العجمان الموجودين إلى الكويت. وحتى ذلك الوقت، كانت علاقات المودة العميقة لازالت قائمة بين الكويت ونجد نتيجة للصداقة الشخصية الوثيقة بين مبارك الصباح وابن سعود، ولكن تساهل القوات الكويتية إزاء المتمردين، بدأ مرحلة جديدة وممتدة من العداء المرير بين السلطان وشيخ الكويت، على نقيض ما سبق أن ساد العلاقات بين الجانبين من صداقة وتعاون.

ولو أن مباركًا امتد به العمر ليرى عودة قواته من الهفوف، فلربما انتهت المعركة التى نشبت بعد فك الحصار إلى لاشيء. ولكن حقيقة الأمر أن القوات الكويتية تلقت نبأ وفاة مبارك وهي لاتزال على مسيرة ثلاثة أيام من الكويت، وعلمت أن جابر – أكبر أبنائه – خلفه في المشيخة. حدث ذلك في شهر نوفمبر ١٩١٥، وبعد أقل من سنتين في فبراير ١٩١٧ توفى جابر ليخلفه أخوه سالم.

وينبغى ألا ننسى أن سالم كان هو قائدة القوة الكويتية التى وعدت والتزمت بإيواء العجمان في عام ١٩١٥، وأثار غضب ابن سعود. وكان للامتعاض الذى ساد العلاقات بين السلطان والشيخ الجديد أوخم العواقب بالنسبة لما صارت إليه الحال بين البلدين فيما بعد.

وفى عام ١٩١٨ فرضت بريطانيا حصارًا بحريًا على الكويت لاعتقادها أن الإمدادات تصل عبرها إلى الأتراك في دمشق. وكان الشيخ سالم على يقين من أن يد ابن سعود وراء هذه الخطوة، ومن ثم ازدادت حدة التوتر بين الحاكمين. وفي عام ١٩٢٠ وصل الوضع إلى نقطة الانفجار عندما حظر ابن سعود ممارسة أى نشاط تجارى بين مملكته والكويت. موجهًا بذلك ضربة قاصمة لاقتصاد الدولة الصغيرة، لأن التجارة مع المناطق الداخلية كانت أحد المصادر الرئيسية لدخل الكويت. وظلت المدينة تواجه الأخطار الناجمة عن الحصار الاقتصادى لمدة عشرين عامًا. وكان من المحتم أن تشهد تلك السنوات محاولات من جانب البدو السعوديين لشراء البضائع من الكويت وتهريبها إلى الداخل، ولكن العقوبات الصارمة التى يوقعها ابن سعود كانت دائمًا في انتظار كل من يخالف أوامر*.

ولم يُرفع الحصار نهائيًا إلاّ عام ١٩٤٠ بعد سنوات طويلة من المفاوضات بين شيخ الكويت، والوكيل السياسى البريطاني بالكويت، والملك ابن سعود، ولعب أبى اللفتاننت هـ. ر. ب ديكسون (أثناء توليه لمنصبه كوكيل سياسى بالكويت من ١٩٢٠ حتى ١٩٣٦) دورًا كبيرًا في تمهيد الطريق من أجل عودة العلاقات الودية بين الكويت والعربية السعودية. كما تمكّن من خلال صداقته الشخصية لابن سعود من أن يفعل الكثير من أجل الرفع النهائى للحصار.

وأثناء الفترة التى توترت فيها العلاقات بين الكويت والعربية السعودية في عهد الشيخ سالم، أصبحت مسألة الحدود الكويتية – النجدية مادة جديدة للنزاع، وفي شهر أبريل ١٩٢٠ ألحقت القوات السعودية الهزيمة بقوات القبائل الكويتية في معركة دارت رحاها عند حمض Hamdh بالقرب من جريه Jarryah داخل حدود

* ظل الناس يذكرون لعدة سنوات موقعًا معينًا خارج أحد الأبواب الرئيسية لمدينة الكويت، شهد حادثًا مروعًا في السنوات الأولى من الحصار، عندما تم العثور على اثنين من البدو السعوديين وقد ذبحا ذبح الشاه، عندما اكتشف ابن سعود أنهما دخلا مدينة الكويت بغرض التجارة.

نجد بمسافة كبيرة، وفي شهر أكتوبر من نفس العام، أنزل الكويتيون الهزيمة بقوات نجد التى تسللت إلى الجهرة. وفي شهر يناير التالى عرض شيخ المحمرة أن يرسل ابنه برفقة أحمد الصباح، لزيارة ابن سعود في محاولة منه للتوصل إلى هدنة، والتقوا بالملك في خفص Khafs شمال الرياض في ٢ مارس ١٩٢١. وبعد أن وصلت الأنباء (مع رسول يمتطى بعيرًا) بأن سالم توفى في ٢٣ فبراير، وعلى الفور أعلن ابن سعود أنه ليس هناك أى نزاع بينه وبين الكويت، ثم دفع أحمد الصباح للعودة إلى الكويت بأقصى سرعة حتى يتم انتخابه خلفًا لسالم، مع الدعاء له بالتوفيق، ووعهده بالمسالمة والود.

وبالرغم من كل ذلك، كان لابد من التوصل إلى اتفاق دائم رسمه حول مسألة الحدود الكويتية السعودية. وفي شهر ديسمبر ١٩٢٢ انعقد مؤتمر في عقير حضره كل من ابن سعود، والسير بيرسى كوكس، والوكيل السياسى البريطاني بالكويت ممثلاً لشيخها، انتهى بتوقيع معاهدة العقير التى رسمت الحدود الكويتية النجدية وفقًا لما ورد بها من أحكام، مع إقامة منطقة محايدة بين الحدود الجنوبية للكويت والحدود الشمالية للأحساء – وهي المقاطعة الشرقية لابن سعود على ساحل الخليج العربى. ومازالت حدود الكويت حتى الآن على النحو الذى حددته هذه المعاهدة.

الفصل الثالث
النفط في الكويت

الفصل الثالث

النفط في الكويت

رغم ضخامة الحصص التى تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الراهن في العربية السعودية والخليج العربى، إلا أنها لم تحصل على نصيب في مجال النفط في الشرق الأوسط إلا بعد معاناة شديدة ومن خلال مباحثات ديبلوماسية طويلة ومضنية.

فمع تحلل الإمبراطورية السابقة بعد الحرب العالمية الأولى، استحوزت الهيئات البريطانية والفرنسية والهولندية على حقوق التنقيب في الأراضى العربية التى وضعت تحت الانتداب. وكانت بريطانيا حريصة كل الحرص – قدر المستطاع – على دائرة النفوذ التى كانت لها اليد العليا فيها قبل عام ١٩١٤.

وكانت الولايات المتحدة تعمل على توسيع نشاطها ومشروعاتها التجارية فيما وراء البحار في السنوات التى أعقبت عام ١٩١٨. وأخذت تتطلع إلى الشرق الأوسط كمنطقة تتوفر فيها الفرص للاستثمار. ولكن بريطانيا تمسكت بأنه طالما أن الولايات المتحدة لم تصدِّق على معاهدة فرساي في أى وقت من الأوقات، ولم تكن عضوا في عصبة الأمم، إذن فليس من حقها أن تحصل على حصة من المشروعات الاقتصادية في أراض مثل العراق، وكانت تحت الانتداب بتفويض من العصبة. وأبدت الولايات المتحدة معارضة شديدة لهذه السياسة التى تهدف إلى استبعادها.

وأثارت اتفاقية سان ريمو الموقعة في عام ١٩٢٠ والتى تسمح لبريطانيا بالمساهمة في مشروعات النفط في العراق، شكوك الأمريكيين فتقدموا بمذكرة احتجاج إلى اللورد كيرزون، وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت، حول السياسة البريطانية في العراق. وكانت هذه المذكرة جزءا من المراسلات الديبلوماسية العديدة التى

أخذ الأمريكيون يطالبون فيها بأن يكون لهم صوتاً عند مناقشة امتيازات البترول في العراق، مطالبين بأن تكون لهم حصتهم في هذه الامتيازات.

واستمرت وزارة الخارجية الأمريكية في الضغط بكل إصرار من أجل معاملة الهيئات البترولية الأمريكية على قدم المساواة في الأراضي الواقعة تحت الانتداب، إلى أن حصلت هذه الهيئات بالفعل على حصة تعادل ٢٣,٧٥٪ من أسهم شركة نفط العراق.

ثم وجهت وزارة الخارجية الأمريكية دعوة غير مشروطة لشركات النفط في بلادها للمساهمة في اتحاد التنقيب عن نفط الشرق الأوسط يبلغ حجم الحصة الأمريكية فيه ١٪. وشاركت خمس شركات بالفعل في تأسيس الاتحاد الأول للتنقيب عن نفط الشرق الأوسط N.E.D.C ولكن ثلاث منها انسحبت بعد فترة. وظلت شركتا سوكوني فاكوم، وستاندارد أويل أوف نيوجرسي وحدهما في الميدان.

فكان هذا هو الانتصار الأول الذى تحققه دوائر النفط الأمريكية في الشرق الأوسط بمؤازرة وزارة الخارجية، وكان بمثابة نقطة البداية لتغلغل رأس الأمريكي في البلدان العربية. ومنذ ذلك الوقت، أدت زيادة الاستثمارات التجارية الأمريكية في البلدان العربية، وفي العربية السعودية على وجه الخصوص، إلى وضع أصبحت الولايات المتحدة معه على قدم المساواة مع بريطانيا التى كانت، ولردح طويل من الزمان، هي الدولة الغربية المهيمنة على التجارة في الشرق الأوسط.

ولكن رغم التوصل إلى اتفاق حول العراق، ظلت الولايات المتحدة التى اتجه اهتمامها الآن صوب البحرين، تعانى من العقبات المتمثلة في الأحكام الواردة في المعاهدات الموقعة بين بريطانيا ودول الخليج والتى كانت بريطانيا تتحكم، وفقًا لها، في الشئون الخارجية ومنح الامتيازات.

وفي عام ١٩٢٥ حصلت شركة بريطانية هي شركة (إيسترن آند جنرال سنديكيت) التى أسسها الماجور فرانك هولمز رائد التنقيب عن النفط في الخليج، على

امتياز في البحرين. وكانت الولايات المتحدة تسعى بكل طاقتها لدخول هذه المنطقة. ولكن النفوذ البريطاني كان قويًا، وبرزت عراقيل عديدة في طريق الهيئات الأجنبية التى حاولت التسرب إلى دائرة النفوذ البريطانية.

وفي شهر نوفمبر ١٩٢٧ حصلت شركة (إيسترن جالف أويل) الأمريكية على عقدين من باطن (الإيسترن آند جنرال سنديكيت) يمنحانها حق بيع أو شراء الأسهم في وقت معين وبسعر معين خلال مدة سريان العقد، فيما يتعلق بامتياز البحرين، وامتياز الكويت الذى لم يكن قد تم التصديق عليه بعد. ثم تحولت ملكية عقد البحرين إلى (ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا) في شهر ديسمبر ١٩٢٨. وتأسست (شركة نفط البحرين) التى تشرف الآن على تنفيذ امتياز البحرين بمساهمة كل من (ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا) و (شركة نفط تكساس). ومن أجل التصديق على الامتياز، تم تسجيله كاتحاد بريطاني وفقًا لأحكام القانون الكندى.

وأثار حصول الولايات المتحدة على موطئ لقدم في البحرين مخاوف شديدة لدى الحكومة البريطانية، فأخذت تضع العراقيل لدرجة هددت المعاملات التجارية في البحرين بالشلل، وواصلت وزارة الخارجية بالولايات المتحدة مساندة الدوائر التجارية الأمريكية، وطالبت في مارس ١٩٢٩ بأن تصدر الحكومة البريطانية بيانًا يفصح عن سياستها فيما يتعلق بالامتيازات في شيخات الخليج العربى، وأعلنت بشكل قاطع أنها سوف تسمح بمساهمة الشركات الأمريكية في هذه الامتيازات إذا وافقت على بعض الشروط المتعلقة باستخدام رؤوس الأموال الأمريكية. وانتهت المناقشات بين السلطات الأمريكية ووزارة الهند إلى نتيجة مرضية للطرفين.

وبعد أن نجح اتحاد (إيسترن جالف أويل كوربويشان) في تحقيق أهدافه في البحرين، تحول باهتمامه إلى الكويت. ولكن بريطانيا كانت تصر على ألاّ تحصل الولايات المتحدة على أى نوع من السيطرة على أى امتياز في الكويت على النحو الذى نجحت في تحقيقه في الكويت. وتمسكت بما يسمى ببند «الجنسية» الوراد ضمن

أحكام المعاهدة المبرمة مع الكويت والذى يحرم أى هيئة غير بريطانية من الحصول على أى امتياز، وفي شهر نوفمبر ١٩٣١، أثار «الإيسترن أويل كوربوريشان» انتباه وزارة الخارجية الأمريكية إزاء موقف بريطانيا من مسألة إمتياز الكويت.

وفي هذه الأثناء بدأت «شركة النفط الأنجلو إيرانية» البريطانية مفاوضاتها مع شيخ الكويت من أجل الحصول على امتياز، بعد أن ظلت تعلن حتى ذلك الحين أنه لا يعنيها ما يجرى في الكويت.

وفي شهر ديسمبر ١٩٣١ أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية ممثلين لها إلى الحكومة البريطانية للمطالبة بمعاملة المشروعات الأمريكية في الكويت على قدم المساواة. وبعد أن رفعت الشركات البريطانية والأمريكية سعر الامتياز نتيجة لما نشب بين الطرفين من مزايدات، تم التوصل إلى تسوية ناجحة في نهاية الأمر. وفي ٢٣ ديسمبر ١٩٣٤ وافق شيخ الكويت على منح امتيازين مدة كل منهما ٢٥ عامًا لكل من شركة نفط الكويت «كويت أويل كومباني» وهى شركة تابعة لشركة النفط «الأنجلو إيرانية» البريطانية، وشركة التنقيب عن البترول «أويل إكسبلورثان كومبانى» وهي شركة مابعة لـ «إيسترن أويل كوربوريشان» الأمريكية.

وبعد التصديق على عقد امتياز الكويت، بدأت أولى عمليات التنقيب في عام ١٩٣٦ عندما تم حفر البئر التجريبية في بحرة على الشاطىء الشمالى لخليج الكويت. وجاءت هذه البئر مخيبة للآمال، واختير موقع آخر للتنقيب بالقرب من تلال برقان Bargan على بُعد ٢٧ ميلاً جنوبى الكويت، وحوالى ١٤ ميلاً من الشاطىء. ويحتل بئر برقان الآن مركز القلب من حقول النفط الكويتية نظرًا لوجود النفط على عمق مناسب. ومنذ ذلك التاريخ تم حفر ١٦٩ بئرًا في المنطقة.

وكان من الممكن أن تبدأ حقول الكويت ضخ النفط منذ أوائل ١٩٤٠ لولا نشوب الحرب في أوروبا وما أدت إليه من إرجاء العمل. فمنذ بداية الحرب، توقفت كل أعمال الحفر، وردمت الآبار، ولم يبق في الكويت إلاّ عدد ضئيل من العاملين في

شركة النفط . ولكن ما أن انتهت الحرب حتى استؤنف العمل على قدم وساق، ومضت الشركة قُدمًا في تنفيذ خططها الإنتاجية.

وفيما بين حقل برقان والبحر تقع سلسلة جبال الظهر Dahar ممتدة بموازة الساحل. وفي عام ١٩٤٥ تم إنشاء أول خط للأنابيب من مركز للتجميع في الحقول إلى مجموعة من الصهاريج أقيمت على قمة سلسلة تلال الظهر، ومنها يتدفق النفط بقوة الجاذبية متجهًا إلى الفحيحيل، وهي نقطة على الساحل وقع عليها الاختيار كنقطة نهاية لخط الأنابيب. وفي يونيو ١٩٤٦ وفي احتفال رسمي كبير، أدار فخامة الشيخ أحمد صمامًا فانطلقت أول شحنة من نفط الكويت من أحواض تخزين متجهة إلى الناقلات المترقبة في البحر.

ومنذ ذلك التاريخ، كان أبرز الإنجازات التى تحققت في مجال النفط هو توسيع ميناء الأحمدى، وبناء أكبر أرصفة شحن النفط في العالم في هذا الميناء، ويمتد هذا الرصيف الذى اكتمل بناؤه في عام ١٩٤٩ لمسافة ٤١٠٠ قدمًا داخل البحر، ويتميز برأس على شكل حرف T تضم ثمانية مرافئ مجهزة لخدمة الناقلات، بالإضافة إلى ستة خطوط أنابيب تمتد تحت الماء لتوصيل النفط إلى الناقلات الراسية بعيدًا عن الشاطىء.

وتحتل صادرات النفط الكويتى في الوقت الراهن، بعد ثمانية أعوام من بدء الإنتاج المرتبة الثالثة بين صادرات البلدان المنتجة للنفط في العالم الحر[1]. (بعد الولايات المتحدة الأمريكية وفنزويلا). وتحصل الولايات المتحدة الآن على ٥٧,٨٪ من احتياجاتها من النفط الخام من الكويت.

وأنشىء معمل للتكرير في الميناء، تبلغ طاقته ٣٠٠٠٠ برميلاً في اليوم، تكفى لتوفير الكميات اللازمة من النفط والبرافين لتلبية احتياجات الشركة والسوق المحلية[2]. والنفط اللازم كوقود للناقلات، والسفن التجارية، وسفن الأسطولين البريطاني والأمريكي التى تفد إلى المحطة البحرية.

وكان العاملون في مجال النفط من البريطانيين والأمريكيين يقيمون عند بدء أعمال الشركة في مستعمرة مؤقتة في المقوع Magwa'a على منتصف الطريق بين مدينة الكويت وحقول النفط. ولكن الشركة بدأت البحث - عندما اتسعت أعمالها - عن موقع مناسب ومنعزل لتبنى فيه مدينة إدارية وسكنية دائمة. ووقع الاختيار على منطقة على سلسلة تلال ظهر شمالي مصنع الصهاريج مباشرة حيث شهدت الأعوام الثمانية الماضية بناء مدينة حديثة كاملة برزت شامخة في جوف الصحراء الجرداء سميت الأحمدى تخليدًا لذكرى الشيخ السابق.

وتتوفر في هذه المدينة مساكن فاخرة على الطراز الأوربى تسمح بإقامة ١٠٠٠٠ من العاملين البريطانيين والأمريكيين (يصاحب ٣٣٠ منهم زوجاتهم وعائلاتهم). كما تتوافر بالمدينة مدارس وكنائس وملاعب رياضية ونوادى ودار سينما، وغير ذلك من وسائل الراحة والترفيه اللازمة للسكان.

ومن أهم الأعمال التى تقوم بها الشركة في مجال إعداد العاملين، الإشراف على معهد التدريب في المقوع، الذى يتيح الفرصة لمائة وخمسين من شباب الكويت لإتقان المهارات المختلفة والمهن التى تحتاج لمهارات متوسطة.

ولاشك أن العقبات التى كان على شركة نفط الكويت أن تتخطاها من أجل تطوير موارد النفط تضاعف من أهمية وروعة ما تحقق من إنجازات بعد الحرب. فقد بدأت العمل في بلد لا توجد به أى صناعة، ولا وجود بالتالى لأى عمال مدربين، بل وبدأت العمل لا يتوافر فيه مرفأ ملائم مهما كان بسيطًا، أو وسائل لخدمة التجهيزات الثقيلة وتوصيلها إلى مواقع العمل. وقبل كل هذه المصاعب التكنيكية التى تعيّن على الشركة أن تواجهها، كان عليها أن تتعامل مع نوع من المناخ تثير حرارته اللافحة في الصيف المزيد من المشكلات في المجالين الميكانيكى والبشرى، وتجعل الحياة تكاد لا تُطاق بالنسبة لأناس قُدر لهم أن يعملوا تحت لفح الحرارة دون وجود الخدمات الملطفة المعروفة الآن والتى تجعل الصيف بحراراته مما يمكن تحمله. وبالرغم من كل

ذلك، ازداد إنتاج الشركة بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٥٢ سبع مرات.

وبدأت دوائر بترولية أمريكية أكثر عددًا مساهمتها في التنقيب عن النفط وتطوير صناعته في الكويت عندما منح الشيخ، في عام ١٩٤٨ امتيازًا يشمل نصف حصته في المنطقة المحايدة لشركة البترول المستقلة الأمريكية[٣].وأما العربية السعودية فكانت تلك النصف الآخر من أسهم المنطقة المحايدة، فقد سبق أن منحت امتيازًا مماثلاً لاتحاد نفط الباسيفيكي. وتم الاتفاق بين الجانبين على إدارة العمليات من خلال اتحاد أمينويل Aminoil على أساس الحساب المشترك.

ولم يسفر حفر أمينويل للآبار الخمسة الأولى في المنطقة المحايدة عن تدفق النفط ولكن النفط تدفق من البئر السادسة في منطقة الوفرة، في شهر مارس ١٩٥٣، ومنذ ذلك التاريخ واصلت الشركة الحفر في منطقة الوفرة حتى وصل عدد الآبار بها الآن (١٩٥٣) إلى ٢٤ بئرًا منتجة.

ويقوم خط للأنابيب يبلغ طوله ٣٢,٥ ميلاً ينقل النفط من الحقل إلى نقطة النهاية في ميناء الأحمدى، داخل دولة الكويت. وقد خرجت أول شحنة من النفط من نقطة النهاية هذه متجهة إلى طوكيو في ١٣ يناير ١٩٥٤، ومنذ ذلك الوقت، بدأ وصول ناقلة واحدة في المتوسط كل أسبوع، تبلغ حمولتها ١٥٠٠٠ طنًا، إلى ميناء الأحمدى. ويقوم اتحاد أمينويل وشركة نفط غرب الباسيفيك في الوقت الراهن بتحميل شحنات النفط من نقطة النهاية، ولكن الشركة الأخيرة تخطط لبناء نقطة نهاية خاصة بها جنوبى المنطقة المحايدة[٤].

ثم حصلت أمينويل على امتياز آخر من شيخ الكويت، وفي شهر سبتمبر ١٩٤٩ أصبح لها الحق المطلق في استكشاف وتشغيل موارد النفط في جزء كبَّر Kubbar وقاروه Qaru وأم المرادم وما حولها، والواقعة بالخليج العربى في مواجهة ساحل الكويت والمنطقة المحايدة حيث تمت بالفعل عمليات المسح الخاصة بالكشف عن الزلازل.

الهوامش

١- بلغ حجم الإنتاج ٢٧٣,٤٣٢,٨٩٥ برميلاً في عام ١٩٥٢، ثم وصل إلى ٢٠٦,٠٩٥,١٩٢ برميلاً في الأشهر الثمانية الأولى من عام ١٩٥٣.

٢- تنقل إلى المدينة بواسطة خط للأنابيب يبلغ طوله ٢٧ ميلاً.

٣- تم تشكيل أمينويل من الهيئات الأمريكية الآتية وفقاً للحصص المذكورة:

- فيليب بتروليام كومباني، بارتلزفيلد، أوكلاهوما، ٣٣,٥٤٪.
- هانكوك أويل كومباني، لونج بيتش، كاليوفورنيا، ١٤,٦٥٪.
- سيجنال جاس آند أويل كومباني، لوس أنجلوس، كاليفورنيا، ١٤,٦٥٪.
- آشلاند آند ريفايننج كومباني، آشلاند، كنتاكي، ١٢,٧٪.
- صانراي أويل كوربوريشان، تولسا، أوكلاهوما، ٢,٦٥٪.
- بل. إيركومبي، هاوستون، تكساس، ٦,٣٥٪.
- ديب روك أويل كوربوريشان، شيكاغو، ألينوى، ٣,٦٪.
- ديفز، سان فرنسيسكو، كاليفورنيا، ٨,٢٪.
- جلوب أويل، لاريو أويل كومباني، ريشتا، كانساس ٣,٦١٪.

٤- لم يستكمل بناؤه إلا عام ١٩٥٥ ويُعرف باسم ميناء سعود Mina'a Saud

الفصل الرابع
الكويت اليوم - مدينة المفارقات

الفصل الرابع

الكويت اليوم – مدينة المفارقات

قبل ظهور حركة النقل الجوى بين القارات كانت الكويت تقبع بعيدًا عن الطريق المتروك. وكان النفر القليل من سكانها البيض (أي الأوربيون – المترجم) يمارسون بعض الأعمال الإدارية في الإرساليات المسيحية أو في مجال التنقيب عن النفط. وكان النوع المألوف الآن من السائحين أمرًا غير مألوف رغم أن الطائرات القادمة من بريطانيا كانت تفتح أبوابها في بعض الأحيان لينزل فيها عدد قليل من ركابها إلى أرض المطار الصحراوى المكشوفة الشاسعة ليمضوا بعض الوقت في حيرة وتبرم، حتى تنتهى الطائرة من التزود بالوقود.

وبالرغم مما كانت عليه الكويت من أهمية استراتيجية منذ مجىء البريطانيين إلى الخليج لأول مرة، إلاّ أن هذه المدينة لم تكتسب أهميتها – التى لا تتناسب بحال مع حجمها الضئيل، إلاّ في السنوات الأخيرة. ولقد بلغت من الأهمية قدرًا طبقت معه شهرتها الآفاق كمنطقة من أكثر المناطق المنتجة للنفط ثراء في الشرق الأوسط.

وتبلغ مساحة الكويت ستة آلاف ميلاً مربعًا، وتتاخمها العراق من الشمال والشمال الغربى، والعربية السعودية من الجنوب الغربى، والخليج العربى من الشرق. وتمتد إلى الجنوب من الكويت مساحة ضئيلة من الأراضى المحايدة (التى تم الاتفاق على قيامها عام ١٩٢٢ وفقاً لمعاهدة العقير المبرمة بين بريطانيا العظمى وابن سعود وشيخ الكويت)، حيث يشترك البدو الكويتيون والبدو السعوديون في حق الرعى مناصفة.

وتقع المدينة الساحلية التى أُطلق اسمها على الدولة على لسان من الأرض يمتد داخل المياه ليشكل الجانب الجنوبى من خليج واسع توافرت له كل عناصر

الأمان. وحتى قبل اكتشاف النفط ، كانت الكويت من أكثر مدن بلاد العرب سكانًا ، ففي الثلاثينات بلغ عدد سكان المدينة ٦٠,٠٠٠ ثم قُدر عددهم بحوالى ١٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٥٤ قبل بدء إنتاج النفط ، أما اليوم، ونتيجة للتوسع السريع لشركة النفط والبرنامج الضخم للمشروعات العامة الذى يجرى تنفيذه في الكويت، فقد ازداد العدد ثلاث مرات في واقع الأمر.

وكان سكان المدينة على الدوام خليطاً من العناصر المحلية والأجنبية، والعرب المحليون في الكويت من أتباع المذهب السُنى في الإسلام، شأنهم شأن الأغلبية من سكان بلاد العرب الأصلية. ولكن هناك في المدينة أيضًا عددًا كبيرًا من أتباع المذهب الشيعى، تتكون أكبر مجموعة متجانسة منهم من الفرس الذين نزلت عائلاتهم بالكويت لعدة أجيال، وهم يتمسكون بلغتهم الخاصة ويعيشون معًا في قطاع محدد من المدينة (رغم أنه ليس هنا ما يجبرهم على ذلك)، ولا يتزاوجون مع العرب عادة، وإن كانوا يعتبرون من رعايا الكويت ويخضعون للتشريعات الكويتية. وهناك جماعات أخرى متميزة من الفرس تختلف عن المجموعة القديمة المستقرة بالكويت منذ عهد بعيد، تتمثل في ذلك العدد الوافر من المهاجرين الجدد الوافدين من إيران (جاء الكثير منهم من عبدان منذ اتساع أعمال شركة البترول الأنجلو إيرانية) والذين يسعون وراء فرص العمل. وهناك عناصر عراقية (وهم من الشيعة أيضًا) تعبر الحدود في تيار تتزايد أعداده بمرور الوقت بحثًا عن العمل في الكويت. والواقع أن هؤلاء المهاجرين من الفرس والعراقيين، بالإضافة إلى عدد كبير من المهاجرين السوريين واللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين، هم السبب في الارتفاع الحاد في عدد السكان الذى تحقق في السنوات من ١٩٤٥ حتى ١٩٥٣.

أما العدد الكبير من الهنود والباكستانيين الذين نشاهدهم في الكويت في الوقت الراهن، فهم من الوافدين الجدد نسبيًا، وفيما مضى، كانت الجالية الهندية قليلة العدد وكان أعضاؤها يمارسون العمل في المحلات التجارية أو مهنة حياكة الملابس أو

غسيلها، أما الآن فانضمت إليهم أعداد من الموظفين الكتابيين والحرفيين الهنود الذين يعملون في مشروعات التنمية أو في مهنة إعداد الطعام والأعمال المنزلية لدى النازلين بالكويت من البريطانيين. وهناك أيضًا عدد كبير من الهنود بين سكان مدينة الأحمدى.

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الفئات من العناصر غير العربية النازلة بالكويت أعدادا من الزنوج ينحدر أغلبهم من أسلاف جُلبوا من أفريقيا كرقيق، كما لايزال هناك أيضًا بعض العناصر، وخاصة من الجيل القديم، الذين ولدوا في أفريقيا ويعيش أكثرهم كرقيق في كنف العائلات الكويتية الأكثر ثراء، بينما حصل العديد منهم على حريتهم وعتقوا منذ وقت طويل.

والبيت الحاكم في الكويت في الوقت الراهن هو آل صباح، الذين يقبض أعضاؤه على مقاليد السلطة في الدولة منذ حوالى عام ١٧١٠. وهم ينحدرون من قبيلة عنزة الكبرى في شمال الجزيرة العربية، والحاكم الحالى هو فخامة الشيخ عبدا لله السالم الصباح، الحائز على لقب سير، ووسامي .K.C.M.G و C.I.E والذى تولى المشيخة في فبراير ١٩٥٠ عقب وفاة عمه الشيخ أحمد الجابر الصباح. ويتولى الأعضاء الآخرون من أسرة آل صباح، الذين يعملون في إمرة الحاكم كافة المناصب الحكومية والإدارية*.

والكويت بحكم موقعها الجغرافي، هي الميناء الطبيعى لنجد، وهي أيضًا مركز تجاري مزدهر. والمدينة لا تمارس دورها فحسب كمركز تجارى لتوزيع السلع الواردة من البلدان الأخرى والمتجهة إلى مدن شرق ووسط شبه الجزيرة العربية، بل وتقوم أيضًا بتلبية احتياجات بدو الأراضى الداخلية من منتجات العاملين المحليين بها من أصحاب الحرف المختلفة.

* وقت صدور الكتاب [المترجم].

وسكان المدينة يعتمدون أساسًا على المواد الغذائية المستوردة: التمر من العراق، والأرز والقمح والسكر من فارس والهند والشرق الأقصى. أما المواد الغذائية التى تُنتج محليًا بكميات كافية فهي اللحوم والأسماك. والخليج العربى يزخر بأنواع جيدة من الأسماك من فصائل مختلفة، أما أهم صادرات الكويت في الوقت الراهن فهو النفط بالطبع، إلى جانب تصدير بعض الجلود والصوف واللؤلؤ بكميات ضئيلة نسبيًا.

وطوال السنوات الخمس عشرة الماضية، ومع تعمق الإحساس بالانتماء للوطن العربى الكبير في الشرق الأوسط، يتزايد إدراك الكويت لوضعها كجزء له أهميته الحيوية في هذا الوطن رغم ضآلة حجمها. وعندما بدأت عائدات النفط في التدفق بعد عام ١٩٤٥ في السنوات الأخيرة لحكم الشيخ أحمد، أخذت الكويت ترفع من مستوى خدماتها التعليمية والصحية، وشيدت مدارس ومستشفيات جديدة كخطوة أولى نحو التنظيم الحديث للخدمات الاجتماعية. ويبلغ نصيب الحاكم من عائدات البترول الآن حوالى ٦٠ مليون جنيهًا في السنة، وقد شرع الشيخ عبدا لله السالم – الذى تولى الحكم عام ١٩٥٠ – في إنجاز خطط طموحة لاستخدام نسبة كبيرة من هذه الثروة لتعمير البلاد على أوسع نطاق وتطوير المدينة وفقًا لأحدث المعايير، والتى ستصبح عند اكتمالها من أبرز وأهم المشروعات التى تحققت في السنوات الأخيرة في أى جزء من العالم. وسوف تبلغ تكلفة هذه المشروعات – التى بدأت بالفعل – حوالى ١٠٠ مليون جنيهًا خلال السنوات العشر الأولى، وكان الحاكم نفسه هو القوة الدافعة والملهمة وراء هذه الخطط الكبرى الجديدة، لأنه يتوق حقًا لأن ينعم المواطن العادى بهذه الثروات التى توفرت حديثًا. ولا يعمل في إنجاز الخطط الكويتية الجديدة إلاّ خيرة المتخصصين في كل فرع. وقد طلب الشيخ من خبراء ومستشارى المشروعات في الغرب أن يضعوا الخطط الخاصة بالمدينة الجديدة، كما تُوقع العقود مع بعض المقاولين البريطانيين، إذا لزم الأمر، لإنجاز برامج التنمية والبناء بالتعاون مع الهيئات الحكومية.

ومنذ خمسة عشر عامًا، كانت المدارس الوحيدة في الكويت هي تلك التى



صاحب السمو شيخ الكويت مع السيد/ س. ج. بيلي المقيم السياسي البريطاني
بمناسبة تقليد الشيخ وسام K.C.M.G عام ١٩٥٣

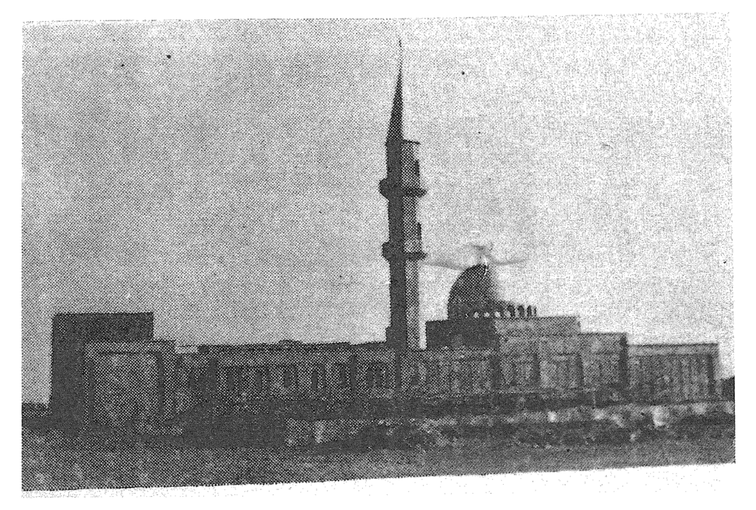
يتعلم فيها الصبية القراءة وحفظ القرآن، ولم تكن هناك أي مدارس للبنات. ولكن الكويت قطعت شوطًا بعيدًا منذ ذلك الحين لتعليم أبنائها حتى بلغ عدد تلاميذ المدارس من البنين والبنات ١٠٧٨٣ في العام الدراسى ١٩٥٢-١٩٥٣، وأصبحت المقررات التى تدرس لهم مطابقة تمامًا لما تقدمه المناهج الغربية لتلاميذها. وتُصرف للأطفال في جميع المدارس وجبات غذائية صحية بالمجان، إلى جانب حصولهم على الزي المدرسى الموحد بالمجان أيضًا.

وعندما وضعت السلطات الكويتية خططها الأولى لإنشاء المدارس الجديدة والحديثة كانت مصر هي التى لها المدرسين، فأحسّ أولياء الأمور بالثقة بأن الأجيال الجديدة سوف تتلقى التعليم في كنف توجه إسلامي، فلا تتأثر بأى أفكار قد تتعارض مع الدين والتقاليد والتراث التاريخي الذى تستند إليه الشعوب الناطقة بالعربية.

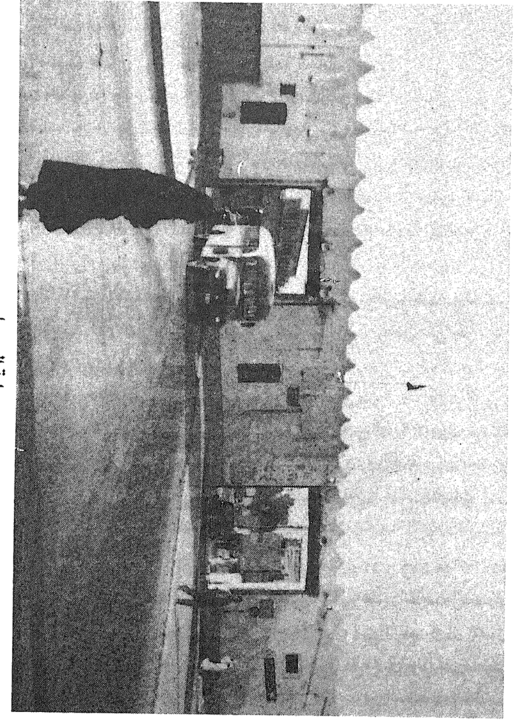
واليوم، يمكننا أن نرى في كل بقعة من أراضى الكويت، مدارس جديدة يجرى تشييدها، قام بوضع تصميماتها جميعًا ابتداء من مدارس الأطفال وحتى الكلية التكنيكية الجديدة، مهندسون معماريون بريطانيون من أجل ضمان ملاءمتها للغرض الذى تشيد من أجله، ومراعاة الظروف المناخية في البلاد. وفي الشويخ، على المشارف الغربية حتى تنبثق الآن ضاحية رائعة التخطيط حول مدرسة ثانوية جديدة، نلتقى بأضخم مجموعة من المبانى الجديدة المخصصة لأغراض التعليم. وسوف تشكل هذه المدرسة عند اكتمالها نهائيًا مع سائر ملحقاتها كالمسجد ومساكن المدرسين والمدينة الطلابية التى يمكنها استيعاب عدة آلاف من الطلبة، مجتمعًا تعليميًا متميزًا. وعلى مسافة غير بعيدة من هذا الموقع يجرى الآن بناء الكلية الصناعية الكبرى، والأمل معقود على أن تتمكن المدرسة الثانوية والكلية الصناعية عمّا قريب من أن تتحولا إلى مركز جديد للتعليم، ليس فقط للطلبة من أبناء الكويت، وإنما للطلبة من خارج الكويت أيضًا، بحيث تصبح الشويخ مركزًا للتعليم الثانوي والصناعي في الشرق الأوسط.



الشويخ – الكلية الصناعية الجديدة – تحت الإنشاء



مسجد مدرسة الشويخ الثانوية



بوابة الجهراء

ومنذ عام ١٩٤٧ تم بناء أربعة مستشـفيات كـبرى، أثنتين مـن المستشـفيات العامة، واثنتين لمرضى الدرن. وهناك ستة أطباء بريطانيون ورئيسة ممرضات بريطانية يشغلون مناصب عليا في وزارة الصحـة، أمـا بقيـة العـاملين في هـذا المجـال فهـم مـن المصريين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين. والممرضات في جميـع المستشـفيات مـن الفلسطينيات. والعلاج في مستشفيات الكويت بالمجان لكل من يحتاج إليه، كما أدت المكانة الرفيعة التى حظى بها الجهد المبذول في هذه المستشـفيات في السـنوات القليلـة التى انقضت منذ إنشائها إلى جذب المرضى من مناطق بعيدة تصل إلى الحدود الشمالية لفـارس والحـدود الجنوبيـة للعربيـة السـعودية، يحضـرون جميعًـا لتلقـى العـلاج في الكويت.

أما المشروع الضخم لإزالـة ملوحـة الميـاه، والـذى بـدأ تقديـم خدماتـه لسـكان الكويت بالفعل، فهو من أعظم الإنجازات التى شهدتها البلاد، ويعمل على حلّ أقدم مشكلات الكويت وهي حصـول السـكان علـى الكميـات اللازمـة مـن الميـاه الصالحـة للشرب. وتنتج محطة إزالة الملوحة في الوقت الراهـن حـوالى مليـون جـالون في اليـوم، وسوف تتضاعف هذه الكمية في عام ١٩٥٥. وتشمل المشروعات البارزة الأخرى محطة لتوليد الطاقة تتكلف عشرة ملايين جنيهًا ويجرى بناؤها الآن. وبالإضافـة إلى اسـتمرار العمل في سائر الاتجاهات الهامة، وإن كانت أقل جذبًا للأنظار، هناك عمليـات شـق الطرق وتعبيدها في الصحـراء والمدينـة علـى السـواء، وإخـلاء الأحيـاء القديمـة المكتظـة بالسكان لإقامة مبانى جديدة حديثة الطراز.

ولم يغب عن بال مجلس إدارة الهيئة المشـرفة علـى تطويـر المدينـة وتنميتهـا إمكانية أن ينضب النفط الذى يجلب الثروة للكويت في يـوم مـن الأيـام، أو أن تتفـوق عليه وتزيحه من الطريق الطاقة الذرية، لتغلق أمامـه السـوق العالميـة، ولذلـك وضعـت خطة لإنشاء منطقة صناعية خارج مدينة الكويت يقام بها عدد من الصناعات الخفيفـة لتوفير فرص العمل لأبناء الكويت في المستقبل.

ويكشف تشكيل الجيش وقوات الشرطة في السنوات الأخيرة، وما هي عليه من كفاءة وقدرة رغم ضآلة حجمها، عن وجه آخر من وجوه ما تحقق من إنجازات في الكويت.

ولاشك أن هذه الخطوات جميعا، والتى ليست إلا نقطة البداية في خطط الكويت من أجل المستقبل، إنما هي الدليل الواضح على مدى ما يُبذل من جهد في العديد من المجالات من أجل تقدم الشعب والدولة.

في عام ١٩٢٠ وعندما كانت التجارة بين الكويت والمناطق الداخلية تعانى من الآثار الخانقة للحصار السعودى، عُيِّن أبى وكيلاً سياسيًا بريطانيًا بالكويت. وفي تلك الأيام، كان عدد السكان الأوروبيين عشر أشخاص فحسب، وهم الوكيل السياسي البريطاني، وطبيب الوكالة، كل منهما ترافقه أسرته، ومجموعة صغيرة من أعضاء الإرسالية الأمريكية.

كان عرب الكويت في ذلك الوقت لا يعرفون إلاّ القليل عن نمط الحياة في الغرب، وكانوا قانعين بمواصلة حياتهم دون أن يتأثروا بالأفكار الغربية الوافدة من الغرب. وظلت الحياة في المدينة على ما كانت عليه منذ القِدَم. وكان صناع ومرممو السفن ينتجون مراكب شبيهة بالسفن الشراعية الفيذيقية ذات المجاديف التى كانت تأتى إلى الخليج منذ ألفي عام، ثم تتوجه للتجارة مع أفريقيا والهند، لتعود محملة بالمواد الغذائية والأخشاب لمتاجر الكويت. وكان بدو الصحراء يأتون إلى المدينة لشراء احتياجاتهم وبيع ما يجلبونه معهم من أغنام وصوف وزبد مقابل حصولهم على الأرز والتمر والبن والشاى وبعض الأشياء الأخرى المتواضعة اللازمة للحياة في البادية.

هذه هي الكويت التى عرفتها في طفولتى، بلاد يحتويها الدفء والفراغ، وفيها تتعاقب الأيام في رتابة وهدوء، دون أن يقيم أحد للزمن حسابًا. وفي طفولتى عرفت أيضًا أهل الكويت، أولئك العرب الكرماء ذوي الأخلاق الفاضلة والذين تسرى

في عروقهم حرارة الشمس المشرقة، وتتعارض مودّتهم الصافية وبساطتهم البعيدة عن التكلف تعارضًا صارخًا ومثيرًا مع كل عادات الغرب وتقاليده.

ولكن كل ذلك كان قبل أن تثير بشائر النفط شهية الغرب واهتمامه، وقبل أن تزحف جيوش الصناعة الحديثة في أسراب متلاحقة نحو شواطىء الكويت.

وعندما عدت إلى الكويت عام ١٩٤٦ بعد غيبة دامت عشر سنوات، أصبحت فيها شركة نفط الكويت هي العامل الحاسم في حياة الدولة واقتصادها، كنت مهيّأة لمواجهة التغير المحتوم. ولكن في نفس الوقت، وعندما كان الإنتاج الفعلى للنفط قد بدأ منذ بضعة أشهر فحسب، لم تكن هناك تطورات واضحة يمكن أن نلمسها في المدينة الزاخرة بالحياة. وفي ذلك الوقت، كان برجا اللاسلكى العملاقان، والطريق الوحيدة المعبدة هي الدليل الوحيد الملموس على التقدم المادي أو الأخذ بالأساليب الغربية.

ولكننى اكتشفت فيما بعد أن هناك تغييرًا ربما كان من الصعب أن ندركه لأول وهلة، ولكنه أكثر أهمية مما تصورت في بادئ الأمر. وعندما تلاقيت وتحدثت مع أهالى الكويت لمست أن ثمة توجه جديد في تفكيرهم، فأصبحت اهتماماتهم أكثر تنوعًا وشمولاً، وتجاوزت معرفتهم الأشياء والأحداث الحدود الضيقة لبلادهم، ثم فجرّت الحرب في أوروبا والشرق الأقصى لدى الكويتيين الأكثر تعليمًا وعيًا وفهمًا جديدًا لمغزى وأهداف السياسة الاقتصادية والخارجية الأوروبية، ولأهمية النفط بالنسبة لدول العالم الكبرى، وكان من الواضح لهم أن تفجر وتنامى حقول النفط في الكويت يفيض على دولتهم الصغيرة أهمية جديدة وخاصة في السياسات المتعلقة بالشرق الأوسط، وفي المجال الأوسع لإنتاج النفط على المستوى العالمى.

وكان بالمدينة جو من الاختمار البطئ. وانتشر بين الناس إحساس بأن المستقبل سيحمل بين طيّاته تغيرات كبيرة ومزايا هائلة، وبدأ هذا الإحساس بين التجار ورجال الأعمال، لينتقل منهم بعد حين إلى سائر السكان.

وأصبح في مقدرة الشاب من أبناء المدينة الذى كان يقضي حياته فيما مضى بين براثن الفقر على ضفاف اللؤلؤ، أن يجد العمل والأجر المجزى في شركة النفط.

وحقاً ما أكثر التغييرات التي تجسدت ملامحها في الأفق في عام ١٩٤٦. وربما كانت هذه السنة هى آخر سنة يرى الغريب الكويت فيها في شكلها التقليدي، فمنذ ذلك التاريخ، تغيرت ملامح الحياة في الكويت إلى درجة يصعب تصديقها. كانت المبانى القديمة والمعالم المعتادة تختفي بسرعة، بحيث لم يعد بالإمكان التعرف على قطاعات بأكملها من المدينة بعد أن شقت الطرق الجديدة أو انبثقت المبانى الخرسانية الحديثة تطل برؤوسها من بين الأطلال القديمة. وكثيرة هي الإيجابيات التي سجلتها السنوات الأخيرة من التوسع والتعمير والتطور، ولكن الكثير مما كان ثميناً وعزيزاً اختفى هو الآخر، بحيث أصبح من المتعذر أن تصلح صورتها اليوم للتعبير عما سيصير عليه الحال في الغد. ومع ذلك، فربما تطلب الأمر سنوات وسنوات قبل أن يتبلور الشكل النهائي للمدينة على أنقاض القديم.

وأُنشئت أكثر من ضاحية جديدة للمدينة لإقامة الإنجليز العاملين في الأجهزة الإدارية للدولة، وأخذت مساكن العرب الأثرياء تبرز هنا وهناك متناثرة حول المدينة في الأراضى الصحراوية التى لم تكن إلاّ مساحات جرداء في يوم من الأيام.

وكويت سنوات ما قبل ١٩٤٦ تكاد أن تكون من مدن العصور الوسطى في شكلها وطبيعتها. ويتميز نمط البناء فيها، وملابس سكانها، وأسواقها، وما تضمه من ورش لصناعة السفن وترميمها، بطابع عربى خاص، فكان هذا التشبث بالطابع العربى هو أبرز سمات المدينة وأكثرها جاذبية، أما اليوم، فيتسم العديد من المبانى الجديدة رغم فخامتها وبنائها وفقاً لأروع المعايير الأوروبية، بجو متعدد العناصر والجذور، ولقد تخلى العامل العربى عن دشداشته ليرتدى الزي الأوروبي الأزرق (الأوفرول) المصنوع من القطن، بينما تعج الشوارع والمقاهى بالفرس والفلسطينيين وقد ارتدوا القمصان والسراويل الأوروبية. وبدأت الشوارع التى تطل على جانبيها الحوانيت

ذات الواجهات الزجاجية، تحلّ محل الأزقة الضيقة الملتفة للسوق القديمة.

ومع ذلك، وبالرغم من التغيير، مازال في حياة البسطاء من الأهالى ما ظلّ على حاله. فحتى اليوم يمكننا أن نلمح نمط الحياة القديم جنبًا إلى جنب مع الجديد. ومازلنا نرى في الأركان الظليلة للشوارع بالقرب من البحر ورشًا لصناعة وإصلاح السفن، وعمال صناعة الأشرعة وهم يلتفون في مجموعات حول شراع أبيض كبير مثلث الشكل، استعدادًا لليوم الذى يُرفع فيه هذا الشراع لتدفعه الريح إلى الهند وما وراء الهند. وهناك أيضًا نجارون يمارسون عملهم على الشاطىء ويضعون أخشابهم وأدواتهم على جانب الطريق، ومازلنا نرى النساء متواضعات المستوى من أهل المدينة عائدات من السوق يحملن السلال أو اللفائف فوق رؤوسهن، ووجوههن الجميلة سافرة رغم العباءات السوداء التى تكسوا أجسادهن. كما لازلن في الشوارع الخلفية الهادئة نساء يفترشن جانب الطريق لبيع الفول السوداني أو لب البطيخ المملح، وهن يعرضن سلعتهن على قطعة من قماش بسطنها على الأرض.

ومازال أقدم أحياء الكويت قابعًا دون أي تغيير على تل في وسط المدينة الجديدة. وفي هذا الحي، الذى نادرًا ما يدخله أجنبي، نلتقى بمبان عالية الأسوار وبلا نوافذ، لا تفصل بينها إلا ممرات ملتوية ضيقة تجرى بها جداول من المياه بكميات وافرة عند هطول الأمطار الغزيرة. والشوارع في بعض أجزائها ضيقة للغاية بحيث يستطيع المار بها أن يلمس الجدران على الجانبين إذا بسط ذراعيه. ويملك حاكم الكويت العديد من المساكن في هذا الحي، وظل أعضاء أسرته يقطنون بها لعدة أجيال، وفي هذه المساكن أغتيل محمد وجراح على يد مبارك. ومازالت بعض هذه المساكن تجسد ملامح الأشكال الرائعة المميزة للعمارة العربية المحلية (ولكنها أخلت مكانها مع الأسف، لتحل محلها التصميمات الغربية). وفي هذا الحي نلتقى أيضًا، أسفل الممرات الضيقة المتعرجة الظليلة، بإحدى البوابات المقوسّة المدببة جميلة النقوش، أو بنموذج من الزخارف النباتية المصنوعة من الملاط على رأس أحد الأبواب.

وسور المدينة من المعالم المميزة للكويت الصامدة حتى الآن، متلفًا حول المدينة الجديدة، وإن كان بشكل متنافر يتناقض مع ما صارت إليه الحال، وهو يمتد على شكل قوس من البحر إلى البحر على الجانب غير المطل على المياه من المدينة، وتبرز على أبعاد متساوية من جسمه الذى يمتد لمسافة أربعة أميال ونصف الميل، أبراج من طراز العصور الوسطى بها فتحات لإطلاق النيران، ومازالت هناك أثار لمنصة للرمي على الطمى المتآكل للجانب الداخلى. ويرجع تاريخ بناء السور إلى عام ١٩١٩ عندما هدد التمرد الذى قام بـه الإخوان، وهم جماعة الوهابيين المتعصبين في وسط شبه الجزيرة العربية، أمن الكويت وسلامتها. ففي ذلك الوقت هبّ كل قادر على العمل للمساهمة في بناء سور يلتف حول المدينة لحمايتها، وشاركت كل العائلات الثرية في التمويل. وانتهى الكويتيون من بناء السور خلال ثلاثة شهور، وهو زمن قصير وقياسى بكل المعايير. وفي بداية الأمر، كان هناك أربعة أبواب في السور يواجه كل منها طريقًا من الطرق الأربع الرئيسية للكويت، وكان أتباع الشيخ من البدو يتولون حراسة أبواب المدينة ويغلقونها عندما يجن الليل، مع استثناء باب واحد.

ويقع باب البريعصى Braishi[1] بالقرب من منزلنا*، وقد اعتدنا أن نعبر منه ونحن في طريقنا إلى المدينة. وكنا نأتى إلى هذا الباب أيام طفولتى للتعرف على حارسه، عبدا لله الحاج، الذى كان يرحب بنا بالعبارة العربية التقليدية (السلام عليكم) كلما عبرنا، كما كان يعد القهوة ليقدمها لنا في طريق عودتنا إلى المنزل. وسوف يذكر العديد من الإنجليز الذين زاروا الكويت بكل امتنان وعلى الدوام ذلك الرجل الذى كان يقف والبسمة لا تفارق شفتيه وبين يديه إناء القهوة وهو على استعداد لتقديمها في أغلب الأوقات عند باب البريعصى.

والآن، لم يعد عبدا لله الحاج هو الذى يتولى حراسة الباب، بعد أن توقف

* باب البريعصي (بوابة الشعب حاليًا) بعيد عن ساحل البحر حيث بيت ديكسون. [سيف مرزوق الشملان].

استخدام هذا الأسلوب في الحراسة، فمع تنامى مدينة الكويت وتدفق الأجانب، أصبح من المحتم فرض سيطرة أكثر صرامة على حركة المرور من المدينة وإليها. وتولى الجيش هذه المهمة عند الأبواب التى ازداد عددها حتى تتمكن من استيعاب تدفق السيارات بعد استخدام الطرق الجديدة مزدوجة الاتجاه. وبدلاً من الغرفة الصغيرة المعتمة التى كانت القهوة تُعد فيها عند باب البريعصى، هناك الآن غرفة حراسة بيضاء اللون جيدة الإضاءة، إلى جانب صف من الأوانى المليئة بالفحم الملتهب في الخارج تجسد آخر لمسات التحديث في هذا المكان.

وعلى مسافة غير بعيدة من الباب، وداخل زمام المدينة، كانت لعبدا لله الحاج مجموعة صغيرة من المبانى تتكون من ثلاث أكواخ من الطمى والبوص، ولكن الأكواخ اختفت الآن بعد أن اكتسحتها مشروعات شق الطرق الجديدة، وتم تعويض عبدا لله الحاج تعويضًا مجزيًا للغاية بمنحه قطعة أرض. ولما كانت هذه الأرض تقع ضمن المناطق المخصصة للمشروعات الجديدة، فقد شيد عبدا لله لنفسه منزلاً جديدًا كبيرًا في الدوحة حيث يعيش الآن في رفاهية ما كان يحلم بها من قبل.

وفيما مضى، كان على من يقترب من باب البريعصى أن يجتاز بقعة ممتدة من الأرض الخلاء التى ينصب بها الغلمان الكويتيون شباكهم لصيد الطيور الكاسرة المهاجرة بعد إغرائها بالهبوط إلى الأرض بوضع طعم من الطيور الحية، وخاصة البط، بالقرب من شراك عامرة بالديدان، ولكن الشباب الكويتى كفّ الآن عن هذا الأسلوب في الصيد لتحل محله أنواع الرياضة الغربية، فأبناء هؤلاء الشباب الذين علمّونى في طفولتى فنون صيد الصقور على طريقتهم يمارسون الآن كرة القدم في الملاعب التى تغطى الأراضى التى كان آباؤهم ينشرون عليها شراكهم. وفي نفس المكان الذى لم تكن الطريق فيه سوى درب ضيق على مسطح من الأرض المالحة، هناك الآن طريقًا معبدة مرصوفة بالأسفلت ومزودة بعلامات الترقيم، ولها تفرعات عند تقاطعات الطرق، لم تظهر بعد، وإن كانت واردة في الخطط العمرانية الجديدة للمدينة.

وقبل ظهور ورصف الطريق الجديدة، كنا نعبر المدينة من مبنى الجمارك إلى ميدان السوق، وكان على المشاة والسيارات التى تقطع المسافة بين هاتين النقطتين صعود منحدر التل لعبور السوق المسقوفة الضيقة. وكانت البضائع الواردة عن طريق البحر تفرغ فيما مضى في مبنى الجمارك[٢]، ثم يخرج من ساحة المبنى تيار لا ينقطع من الخيل والعربات التى تجرها الجياد والجمال الفارسية وهي تحمل الصناديق والبالات لتصعد التل في مشقة متجهة نحو الحوانيت والمحلات. وكان من الواضح في ذلك الوقت أن الجياد والفرس يحتكرون نقل البضائع الثقيلة، وكانت الجمال الفارسية بكسوتها المميزة المصنوعة من أقمشة الخيام، تترنح متجهة إلى السوق بحمولتها الضخمة، بينما تعترض الكثير من الجياد التى حلّ بها الإعياء طريق السيارات في الشوارع الضيقة.

والعرب يتمسكون بنمط للحياة يتميز بالسهولة واليسر والتحرر من أى قيد، ويأبون الخضوع لأي تنظيم أيًا كان نوعه، ومشهد الأشكال والأشياء المتعددة والمتداخلة الذى يسود الطرق العامة في الكويت هو النمط المميز لجميع الأسواق في جميع أنحاء بلاد العرب. والمشاة يتزاحمون في الشوارع رغم حركة المرور، ويعبرونها في لامبالاة صارخة، رغم ركض السيارات بالقرب منهم.

والمحلات والحوانيت الجديدة تعج بالسلع المستوردة من الغرب، ولكن الملفت للنظر حقاً بالنسبة للزائر الأجنبى هو تلك الأزقة الضيقة التى تمتد بعيدًا عن الطرق الرئيسية للسوق. ففي هذه الأزقة، مازلنا نلتقى ببعض أصحاب الحرف الذين يمارسون مهنهم القديمة، فالحدادون يقبعون في محلاتهم المظلمة يدققون النظر عن قرب في قطعة من المشغولات المعدنية الزخرفية الجميلة، وعندما يقترب أحد المارة ليشاهد ما يدور في هذا المكان، يقوم بشاب يقف في ركن المحل بإشعال نار مستخدمًا منفاخاً من الطراز العتيق، بينما يقوم الحداد بصهر ما يستخدمه من معدن فوق جمرات ملتهبة. وهناك تجار اللؤلؤ أيضًا في هذه الشوارع الخلفية، يعرضون لآلئ من

كل شكل وحجم وفقاً للطلب، وهـم يجلبونهـا مـن قـاع البحـر عـن طريـق الغواصـين الكويتيين.

وعلى نفس المنوال الذى جرت عليه العادة من جوانـب طوائـف الحرفيـين في المدن الأوروبية في العصور الوسطى، يتجمع الحرفيـون العـرب في مجموعـات في طـرق معينة من السوق، وهناك في أحد الأحياء حوانيـت لعمـال الصناعـات الجلديـة الذيـن ينتجون الأحزمة اللازمة لحمل خرطوش الزخيرة وأغطية الرأس والعنق التى تُسـتخدم عند صيد الصقور، والصنادل التى لم يتغير شـكلها التقليـدى طـوال ألـف عـام، بينمـا هناك في شارع آخر وتحـت مظلـة للوقايـة مـن وهـج الشـمس العربيـة اللافحـة سـوق للسجاد حيث تبسط علـى الأرض التـى كسـتها الأتربـة قطـع واردة مـن نجـارى، أو همدان، أو شيراز، لتجذب أنظار المشترين.

وعلى مسافة غير بعيدة، حيث تتسع الطرق الجانبية حتى تصـب في ميـدان السوق، نلتقى بسوق البدو، فالمحلات والحوانيت المطلة على الطريق الرئيسية للسـوق لا تـروق في أعـين البـدو ولا تستهويهم، ولذلـك نشـأت هـذه السـوق البدويـة لتلبيـة احتياجاتهم الخاصة، وتعـرض هـذه المحـلات علـى أبوابهـا الأقمشـة المسـتخدمة في صناعة الكوفيات والأقمشة القطنية البيضاء اللازمـة لصناعـة الدشداشـة (لأنـه لابـد أن تكون للبدوى دشداشته المصنوعة بالطريقة التقليدية، ولا مكـان لديـه للأزيـاء الحديثـة التى يرتديها سكان المدن). كما يمكن للبدوى أن يشـترى مـن هـذه المحـلات تـروس الخيام وأوتادها وما يلزمه من ذخيرة.

وعندما يتوقف أى شخص للشراء من متجر بدوى، يتجمع حولـه حشـد مـن المارة ليرقبوا ما يجرى من مساومة، وليدلوا بآرائهم، لأنه يتعـين علـى سـاكن الباديـة عندما يزور المدينة أن يرى وأن يسمع كل ما يدور من حوله، وربما أمضـى يومـه كلـه منشغلاً بشئون الآخرين.

والمشاهد التى نراها في سوق الكويت لا نهاية لها في تعددها وتنوعها، كما أن

لكل شارع خصوصيته المميزة وجاذبيته. ولكن ربما كـان مشـهد سـوق الواجـف Souq al wagif، وهو من أشد الأسواق بدائية، هو الأكثر لفتاً للأنظار بينها جميعًا، فليست هناك أى حوانيت في هذه السوق، وإنما يمارس البيع والشراء على إفريز الطريق نسـاء متشحات بالعباءات السوداء جالسات على الأرض يعرضن أمامهن ما يقمن ببيعـه مـن أشياء. وتلبى هؤلاء البائعات الاحتياجـات المتواضعـة لفقـراء النـاس وأكـثرهم بدائيـة، وأغلبهم من بدو الصحراء الذين يـأتون إلى هـذه السـوق لشـراء احتياجـاتهم مثـل قـدح لشرب القهوة أو وتد خيمة، أو ربما يبحثـون عـن هديـة صغـيرة لطفـل. ومهمـا كـان مطلبهم، فهم يجدونه في سوق الواجف.

وهناك بين بدو وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها مـن لم تطـأ أقدامـه المـدن الساحلية إلا فيما ندر، بل وهناك منهم من لم ترى عيناه حتى اليـوم رجـلاً أبيـض أو سيدة بيضاء (أي أوروبيين). وفي إحدى المناسبات، كنت مع أمي في سـوق الواجـف، فإذا برجلين من البدو يتطلعان إلينا بنظرات وحشية وفضول لا يخفى على أحد. وكـم كان ارتباكهما عندما رأيا أمامهما وجهـين سـافرين وسـاقين غـير مسـتورتين تظهـران تحت الركبة. وبعد صرخات عالية ومتكررة تنم عن المفاجآت والدهشة، التفت أحدهم إلى رفيقه وسأل: أرجال هؤلاء أم نساء؟.

ثمة مثل عربى يقول: العجلة من الشيطان، واليوم، وفي خضـم حركـة المـرور الصاخبة بهرجها ومرجها، والتـى مـن المؤكـد أنهـا اتخـذت لهـا مـن الشـيطان إلّهـا تعبده، فمازال هناك بعض أصحاب الحوانيت والمحـلات في السـوق الذيـن لا يتسـع وقتهم إلاّ للثرثرة معًا طوال اليوم، وهناك بدو يجلسون على قارعـة الطريـق وفي ميـدان السوق والوقت كله ملك يمينهم ينفقونه كما يحلو لهـم، والصبيـة يرقـدون في الشـوارع المتربة وقت القيلولة، غافلين جميعًا عن القوى الجديدة التى تعمل بكـل سـرعة علـى تغيير إيقاع الحياة في الكويت.

الهوامش

١- سمي باسم حارس سابق ينتمي لقبيلة مطير.

٢- يتم تفريغ أغلبها الآن في الشويخ، وهي ضاحية على الساحل الغربي للمدينة. ويوجد في هذه المنطقة قناة تسمح بتفريغ حمولة السفينة إلى جانب دار الجمارك. وسوف يتم بناء مرفأ جديد يمكنه استقبال ٤ سفن دفعة واحدة في الشويخ.

الفصل الخامس
أصدقاء كويتيون

الفصل الخامس
أصدقاء كويتيون

صباح يوم من عام ١٩٤٦ في شرفة ظليلة تطل من واجهة بيتنا، وضعت منضدة استعدادًا لتناول وجبة الإفطار، كان هذا هو الصباح الأول بعد العودة، وكان اليوم ساكنًا هادئًا، وليس هناك نسمة هواء تكدر صفحة المياه في البحر، ومنذ السادسة صباحًا كانت شمس سبتمبر تلفح أديم الشوارع المتربة.

توجهت إلى سياج الشرفة، ورحت أتأمل المشهد الممتد من أمامي والذى يتغير منذ أيام طفولتى، كانت حركة المد والجزر قد توقفت، وصفوف من المراكب الشراعية العربية تربض على الطمى في حِمى ساتر من صخور البحر الرمادية، بينما قوارب أخرى تُسحب إلى الشاطئ على امتداد الطريق الساحلية.

وفي أيام الطفولة، تعلمت كيف أتعرف على أسماء الأنواع المختلفة من المراكب، والتى لا يمكن التمييز بينها إلاّ بتنوّع أشكال المقدمة والمؤخرة: فهناك السفن الفاخرة، البوم Bum – التى تُصنع الأحجام الكبيرة منها للتجارة مع الهند وزنجبار، بينما تُصمم الأحجام الصغيرة لجلب المياه العذبة من العراق، وكانت هناك أيضًا الجلبوت Jalbuts والشوعي Shu'ais والسمبوك Sambuqs التى تُستخدم في صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ.

وكان الجو يضج بدقات المطارق، حيث انهمك النجارون من صناع السفن المهرة في عملهم على امتداد الساحل، وكان البعض منهم يستفيدون من انخفاض أو توقف حركة المد والجزر فيخرجون إلى الماء وينزلون تحت هياكل مراكبهم للقيام بأعمال الإصلاح والترميم، بينما يعمل البعض الآخر أعلى خط المد والجزر في صناعة مراكب جديدة على جانب الطريق.

كان اليوم يوم أحد، وهو يوم عمل، لأن يوم العطلة الأسبوعية لـدى المسـلمين هو يوم الجمعة.

وكان صوت دقات المطارق التى يستخدمها النجارون من الأصوات التـى تمـلأ بيتنا بلا توقف طيلة فصل الصيف، وهو الفصل الذى تُفحـص فيـه السـفن بكـل دقـة وتُعد تأهبًا لرحلات الشتاء.

وبينما كنت أرقب السفن في المرفأ، شد انتبـاهي سـرب مـن الحمـير البيضـاء التى تقف وهي تنهق وتضرب الأرض بحوافرها، بعد أن نفد صبرها وهي تنتظر علـى الطريق، وكانت هذه الحمير مخصصة لنقل المياه مـن صهريـج مشيّد مـن الأسمنـت يمتلىء بالماء العذب المجلوب من العراق، لتوزيعه في المدينـة، ومـن وقـت لآخـر كـان أحد الغلمان المكلفين بمراقبة الحمير وحثها على العمـل يخـرج مـن السـاحة الصغـيرة التى يتوسطها الصهريج فيضع على حماره حمولـة مـن ثـلاث قِـرَب، ثـم يدفـع بـه ليسلك الطريق المحددة له. وكانت هناك جلَبَة رتيبـة لا تنقطـع تصـدر مـن النواقيـس الصغير (الجلاجل) المدلاّة من رقاب الحمير كلما راحت هذه الدواب تذرع الطريق أمام بيتنا ذاهبة آتية، والبعض منها يغادر المكان وهو يـترنح تحـت حمولـة كاملـة، بينمـا يرجع البعض الآخر لحمل المزيد من الماء. وكانت بعض الحمير تتميز بنقوش رُسمـت على جلودها بطلاء من الحنّـة الصفـراء، إلى جـانب مـا جـرت عليـه العـادة بتزيينهـا بالجلاجل. وتعجبت! هل هذا تعبير عن نوع من العواطـف يحملهـا لهـا أصحابهـا؟ وكان من العسير أن أقتنع بذلك، لأن العربى العادى مـن سـكان المدينـة لا يحمـل إلاّ أوهى المشاعر الإنسانية نحو الحيوان. ولم أتوصل إلى تفسير مقنع لهذه الظاهرة إلا بعد بضعة أيام. فمنذ وقت غير بعيد كان المسلمون يحتفلـون بـأحد أعيـادهم الدينيـة، وفي مثل هذه الأوقات، عندما تكون المدينـة عـن بكـرة أبيهـا في عطلـة، تسـتخدم الحمـير ليتنزه عليها الأطفال، والحمار المزيّن بأجمل النقـوش هـو الأقـدر علـى جـذب أغلـب المتعاملين.

كانت المياه العذبة التى تجلبها الدوات من نهر شط العرب بـالعراق، ولوقـت طويل هى المورد الوحيد لسكان مدينة الكويت. وفي عم ١١٩٤٦ كان الماء يبـاع لسـكان المدينة بسعر ١,٥ آنة لكل أربعة جالونات (الآنة = ١/٦ من الروبية). وكثيرًا ما رأيـت النساء الفقيرات االلاتى لا يستطعن دفع الرسوم الإضافية التـى تُفرض مقـابل توصيـل الماء على ظهور الحمير، وقد أقبلن للحصـول علـى حـاجتهن مـن المـاء مـن الصهريـج مباشرة، وكلاً منهن تحمل صفيحة نفط فارغة سعة ٤ جالونات، وبعـد ملئهـا، تقوم كل منهن بدفع الثمن لمراقب يقف عنـد البـاب المفضـى إلى الصهريـج، ثـم تمضـى إلى حال سـبيلها والإنـاء ممتلـئ بالمـاء فـوق رأسـها، حاملـة الجالونـات الأربعـة في رضـا وامتنان.

وشهدت الأيام القليلة التى أعقبت عودتنا لبيتنا وهو يعج بمجموعات متتابعـة من الزوار العرب، لأن العادة جرب بهم أن يقبلـوا لزيـارة الأصدقـاء الذيـن عـادوا منـذ قليل من رحلة طويلة. وجاء الكويتيون الواحد تلو الآخر لتحيتنا بالتحية التقليدية التى يسـتخدمونها بغـد غيـاب (حمـدًا لله علـى السـلامة). وقـد سـبق أن تلقيـت التحيـة والترحيب ممن عرفتهم أيام طفولتى، ولكن حضور أشخاص ألتقى بهم لأول مرة يحتم على وفقًا لتقاليدهم، أن أجلس منزوية في صمت وبـلا تدخـل في أحـد الأركـان، لأنـه ينبغى على الإبنة غير المتزوجة أن تغض الطرف في حضرة الأغراب من الرجال.

ومهما يكن من أمر، فهذا الوضع لم يخل من متعة بالنسبة لى، عندما رحـت أستمع وأنا أرقب ما يجرى في صمت، وعندما أدركت أن هؤلاء الوافديـن ليسـوا ممـن يتسمون بالفظاظة والجفاء. في البداية أقبل عدد من وجهاء القوم والتجار، تبـدو عليهـم مظاهر الرفاه تطل من ورائها ملامح حادة لوجوه شرقية مميزة، وعيونهم تشـع ذكـاء، ودهاء، بينما تداعب أناملهم اللينة حبات المسبحة بين أيديهم بلا توقف، وكان هناك رجال من أكبر عـائلات المدينـة، يرتـدى كـل منهـم جلبابًـا مـن أفخـر أنـواع الكتـان الأبيض، ومن فوقها عباءة بنية اللون مرزكشة عند الرقبة والأكمام بزخارف من خيـوط

القصب المذهب، وكانت هذه الثياب تنم حقًا عن مكانتهم. وكان الوافدون يتوقون شوقًا لمعرفة أنباء العالم الخارجي، وسألوا أبي عن الأحوال في أوروبا وأمريكا وعن العلاقات بين كل من بريطانيا وأمريكا والبلاد العربية.

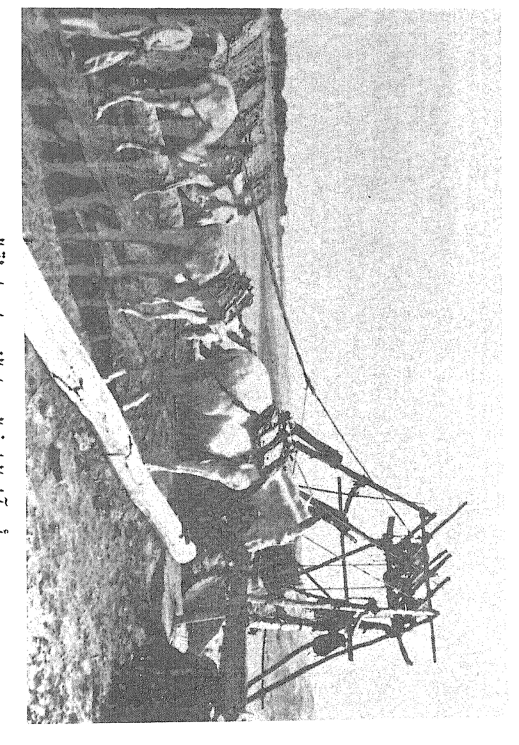
وبعد علية القوم، أقبل رجال من الصحراء، بدو مخلصون من أصدقاء أبي، وكانت اهتماماتهم محدودة للغاية، فسألوا عما إذا كانت الأمطار تهطل في إنجلترا، وعما إذا كان الكلأ والعشب يتوفر بها لرعى الماشية، لأن هذه الأشياء هى الأكثر أهمية في عالمهم الخاص. وكان أبى يجيب على أسئلتهم في مودة وبشر، ويقول لهم أن الأمطار تنهمر يوميًا في إنجلترا طوال شهري يوليو وأغسطس، وأن بالات الكلأ اليابس تتكدس في الحقول، وكان هذا النوع من الأخبار مما يثير الدهشة لدى المجلس الذى لا يرى أمطارًا إلا في فصل الشتاء، ولا يعرف من الكلأ إلا تلك الأعشاب التى تظهر لفترة وجيزة في الربيع، ولا ترفع قامتها فوق رمال الصحراء إلا بضع بوصات. وكان العربى يعلق عند سماعه هذه الأخبار قائلاً: حقًا! إنها قدرة الله، وإن إنجلترا لسعيدة الحظ، ولابد أن ماشيتها وقطعانها مكتنزة لحمًا ودهنًا، ويتمتع أهلها بالرفاهية والرخاء.

والبدوى الحق الذى ارتبطت حياته بالصحراء لا يعرف بلدًا سواها، ولا يتصور أن هناك حياة إلا تلك الحياة البدوية التى يتعين على المرء فيها أن يواصل الترحال بلا توقف سعيًا وراء الماء والكلأ، وليس في مقدوره أن يحكم على أى شىء إلا من خلال معاييره الخاصة المستمدة من حياته ذات الأبعاد المحدودة، ومن العبث أن تحاول أن تشرح له أن الحياة في إنجلترا بالنسبة لأغلب سكانها تعنى ما هو أكثر كثيرًا من وفرة الأمطار أو جودة الكلأ. أما معنى الحضارة الصناعية فهو يتجاوز كل حدود تصوره وخياله.

وكان من بين زوارنا من البدو في ذلك الصباح رجل من مرّه Murra وهي من أشد القبائل بدائية في أقصى الجنوب، وكانت ملامحه دقيقة وعلى درجة من الوسامة



منظر للصحراء بعد سقوط الامطار



أحد آبار المياه في الجهراء الذي يدار بواسطة الحمير

كما هو الحال مع الأرستقراطيين من البدو، وكان يمشى في زهو وخيلاء وكأنه أمير تحيط به آيات العظمة والجلال، ولكنه تململ ولم يبد أي ترحيب عندما دعوناه للجلوس في غرفة المعيشة بطرازها الإنجليزى، وكان من الواضح أن وجودى يضاعف من ارتباكه، لأن النساء في خيمته لابد لهن من التوارى والاحتجاب تمامًا في أحد الأركان.

كان هذا البدوى الوافد من جوف الصحراء أحد الذين لا يعرفون شيئًا عن غرائب العالم الخارجى. ولذلك أخذ أبى – وهو يومىء لي بطرفة من عينه – يحكى له عن أشياء أكثر إثارة للعجب والدهشة من رخاء الريف وازدهاره، حكى له عن أنفاق المترو في لندن، والبدوى يستمع جاحظ العينين، وهو يحاول تصور هذا الشىء الذى يتجاوز كل قدراته على الفهم والتخيل، وكان يتساءل بين حين وآخر، وقد استبد به الانبهار وتلاحقت أنفاسه: وكيف صنعوها؟ وهل يمكن لعربة خاصة بركابها أن تجرى في باطن الأرض؟

وأطرق أبى هنيهة وهو يبحث عن تفسير يمكن أن يفهمه هذا البدوى الذى لا يعرف شيئًا عن الآلة أو الهندسة، ثم قال: هذه القطارات تشبه يربوع الصحراء، لأن اليربوع يحفر جحره في جوف الأرض، ويحيطه بسراديب ضيقة يجرى بها جئية وذهابًا وصولاً لجحره، أو خروجًا منه. وعلى نفس النحو تعمل قطارات المترو.

وراق هذا التفسير لزائرنا العربى، لأن هذه صورة يمكن له تخيلها، ولأنه ممن يعرفون كل شىء عن حيوانات الصحراء وطرق معيشتها.

وفي بعض الأحيان كان أبى يناقش مع زوارنا من البدو أحوال شركة النفط التى بدأت إنتاجها في نفس السنة، وكان بعض رجال الصحراء في تلك الأيام لا يثقون بالشركة، بينما يرى البعض الآخر فيها خيرًا محتملاً، ولكن الدهشة كانت تعتريهم جميعًا عندما يعرفون أن الصحراء التى لم يكف أسلافهم عن التجوال فوقها لسنوات لا حصر لها، تحمل في باطنها نوعًا من الثروة الطبيعية التى يبدى الأجانب

استعدادهم للحصول عليها مقابل أموال طائلة. وبكل بساطة عبر أحد البدو عن رأيه في هذا الذى يسمعه فقال: لو أن البدو عرفوا أن هناك نفطًا تحت أرضهم لاستخرجوه بأنفسهم.

وكان عبدالوهاب القطامي من بين الزوّار الذين جاءوا إلينا في تلك الأيام التى أعقبت عودتنا إلى الكويت، وهو من أكثر أصحاب السفن في المدينة ثراءً، ويقوم بقيادة داواته كل عام في رحلاتها التجارية إلى جنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. وعرفنا منه وهو فى ضيافتنا أن زوجته قررت أن تؤدى فريضة الحج في تلك السنة، وهنا سمعت أمى بذلك، وعدت بأن تقدم لها صندوقًا من العقاقير الطبية لاستخدامها عند الحاجة أثناء الرحلة.

وبعد بضعة أيام، توجهنا إلى بيت القطامى لتقديم الهدية التى وعدنا بها وقبل دخول الحرم، وهو الجزء المخصص للنساء، عرجنا على موقع صناعة وترميم السفن على الشاطىء، تلبية لرغبتى الشديدة في رؤية المكان الذى يقوم فيه عبدالوهاب وأبناؤه بصناعة سفنهم وتخزين معداتهم. والتقينا في الساحة بستة من الزنوج أقوياء البنية، وهم من بحارة سفن القطامى، وكانوا يتأهبون للخروج في إحدى رحلاتهم السنوية للتجارة، لأن عبدالوهاب القطامى قرر أن يتوجه إلى المحيط الهندى أثناء غياب زوجته لأداء فريضة الحج. وكانت صناديق التجارة التى يضعون فيها مقتنياتهم الخاصة أثناء خروجهم للبحر تحتل مكانها في أحد الأركان إلى جانب كوم من قطع الغيار. وكانت هذه الصناديق متينة الصنع وتلتف حولها الحبال لحمايتها من الكسر إذا صدمتها السفينة ببعضها البعض أثناء الرحلة. ومن القواعد المتبعة في هذا المجال أن يحصل كل مشارك في الرحلة من طاقم السفينة على بعض من أجره مقدمًا قبل أن تغادر السفينة الكويت، ليشترى بعض السلع التى يسعى لبيعها في بعض الموانى في الأيام التالية تحقيقًا لشيء من الربح. وهكذا، فبينما تحمل السفينة كميات هائلة من السلع التى سيقوم مالكها ببيعها في الموانى الأجنبية، نجد أفراد الطاقم يمارسون

التجارة أيضًا على نطاق ضيق، ونراهم يملأون صناديقهم بالسلع التى يشترونها من إحدى المدن لنقلها وبيعها في مدينة أخرى.

وتجاذبنا أطراف الحديث مع هؤلاء الزنوج الذين لا تفارق البسمة شفاههم، إلى أن حضر يوسف القطامى - أحد أبناء عبدالوهاب - واقتادنا إلى جناح النساء. وتوجه بنا إلى قاعة ظليلة تنفتح عليها الحجرات من جوانبها الأربعة. وكان المبنى مكونًا من طابق واحد، باستثناء غرفة على السطح يمكن الوصول إليها باستخدام سلم خشبى خارجى. وفي هذا المكان، كانت النساء منهمكات في أداء مهامهن اليومية. ونهضت مجموعة من الخادمات كنّ جالسات ويقمن بتنقية الأرز من الشوائب، عندما سمعن صوت يوسف، وأحضرن عددًا من المقاعد وضعوها لنا في القاعة. ثم نودى على ربة الدار ونزلت من غرفتها العلوية. وبعد أن رحبت بنا بكل مودة وحرارة أمرت بتقديم اللبن الرائب وبعض الحلوى. وأخرجت أمى صندوق العقاقير وشرحت لها كيفية استخدام محتوياته المختلفة، بينما كان يوسف يكتب الإرشادات بكل دقة باللغة العربية، على كل نوع على حدة.

وكان مما أثار دهشتنا وإعجابنا أن عرفنا أن هذه السيدة العربية متوسطة العمر، والتى اعتادت أن تعيش في رغد كزوجة لرجل ميسور الحال، اختارت أن تقطع رحلة الحج إلى مكة وهي تمتطى جملاً وألاّ تركب سيارة، فالمسلم يأمل بتواضعه ونكران ذاته أثناء الحج، أن ينال ثوابًا أكبر عند خالقه.

ونادرًا ما كانت الفرصة تتاح للبريطانيين من رجال القوات المسلحة الذين أدوا الخدمة العسكرية في الشرق الأوسط، للقاء العربى العادى في منزله، ولم يلتق العديد من الجنود إلا بالغوغاء المهجنين مختلطى الأنساب من سكان المدينة الكبيرة، ومن ثم كانت انطباعاتهم عن أهل الكويت غير دقيقة وفي غير صالح الكويتيين الحقيقيين. أما البريطانيون الذين أتيحت لهم بعض المعرفة بالأوضاع في البلاد العربية شرقي البحر المتوسط، ثم جاؤوا للخدمة في الكويت، فوجدوا في السكان المحليين عربًا من نوع لم

يلتقوا بهم من قبل. ولكن اليوم، ومع الأسف، أصبح من العسير على الغريب أن يتعرف على الكويتى الحقيقى بين هذا الفيض من الأغراب الوافدين إلى الكويت، وإذا قُدر لأحدهم أن يلتقى بكويتى حق وأن يتعرف عليه، فسرعان ما يشده إليه ما يتميز به هذا الكويتى من أمانة وأنفة وكبرياء، وتمسكه الصارم بالقيم الأخلاقية المستمدة من إيمان دينى راسخ. ورغم ما كان يقيمه الجهل بلغة الطرف الآخر من حواجز بين العرب والبريطانيين في كثير من الأحيان، إلاّ أن العربى الذى لا يعرف التعصب كان على استعداد دائمًا للتعامل مع أى أجنبى يبدى نحوه قدرًا من المشاعر الطيبة، بكل الاحترام والتبجيل، وكأنه ندٌ له تمامًا، ولكن بشرط أن يراعى الأجنبى مشاعره، ويعامله بما هو خليق به تقديره، فالعربى لا يتحمل بأى حال أى بادرة تنتقص من مكانته. ولسوء الحظ، هناك اليوم تيارات تعمل على نشر المشاعر المعادية للبريطانيين بين الكويتيين الذين كانوا أصدقاء حميمين في وقت من الأوقات. واللاجئون الفلسطينيون على وجه الخصوص لا يدعون فرصة إلاّ وانتهزوها ليؤكدوا لكل من هو على استعداد للاستماع إليهم أن الدور الذى تقوم به شركة النفط في الكويت لا يعدو أن يكون صورة أخرى من صور الإمبريالية البريطانية.

ومن حسن حظى أن الفرصة أتيحت لى للقاء السكان المحليين والتحدث معهم، ولمرات عديدة تزيد عما يتاح لأى زائر إنجليزي، فلقد عاش أبى ستة وعشرين عامًا بين الكويتيين، ونظرًا لمعرفته بلغتهم ولباقته وسخائه، كسب ثقة هؤلاء القوم الذين يتميزون بالحذر عند التعامل مع الأجانب، ولا يسمحون بإقامة صداقة وثيقة مع أى غريب.

وكان أبى كوكيل سياسى بريطانى يشغل منصبًا يتيح له الاتصال بالمسئولين العرب وأصحاب المكانة الرفيعة بين القبائل، ولكن اهتمامه الخاص ورغبته في التعرّف على ما هو أبعد من المظاهر الخارجية التى عادة ما تبدو وحدها للأجنبى، هما اللذان انتهيا به إلى أن يضرب خيمته السوداء الخاصة بين ظهرانيهم كصديق،كفرد منهم.

وبمساعدة أمي، تعلم أبي عادات البدو المغرقة في القِدَم، وتقاليدهم القبلية، وخرافاتهم، ونمط حياتهم اليومية، وتمكن من التغلب على حذرهم الطبيعي بمراعاته واحترامه لمعتقداتهم وعاداتهم، ربما كان يتميز به من كرم وسخاء مع المحتاج، وكان من دلائل الثقة التي أسبغها عليه هؤلاء القوم، سماحهم له بالحديث مع نسائهم، اللاتي يحتجبن عن الضيوف من الذكور. ولكن لم يسمح له بأي حال أن يرى وجوه البدويات، فهذا لا يُسمح به إلا للزوج أو النساء الأخريات.

وكان من عادة أبي أن يخرج إلى الصحراء كل مساء لزيارة إحدى خيام البدو وتناول القهوة مع أصحابها، ومن خلال هذه الزيارات تعرف بأسرة متواضعة من أدنى الفئات الاجتماعية، كان أفرادها يبدون كل الامتنان لقاء الهدايا البسيطة من البن والأرز التي كنا نقدمها لهم من حين لآخر. وكان سالم المزين كبير هذه الأسرة وزوجته عمشه Amsha من أكثر من عرفنا رقة ولين جانب. وكانت لهما ابنة واحدة صغيرة، هي السابعة في قائمة الأطفال الذين رُزقا بهم وتوفوا جميعًا في سن مبكرة، وأما بقية الأفراد الذين يشاركونهما الإقامة في الخيمتين اللتين يمتلكانها فهم منيرة، شقيقة سالم وابنها، واثنان من الغلمان السود كانت عمشة تحفهما بمشاعر صادقة، وكأنها مشاعر أم فقدت وليدها.

وكانت أسرة المزين تحط الرحال طوال أشهر الصيف بجوار آبار الشامية، ثم ينقلونها بعد هطول الأمطار في الشتاء، ومعهم ماشيتهم إلى الأراضي التي يتوفر بها العشب والكلأ على بُعد أربعين أو خمسين ميلا جنوبي مدينة الكويت.

في ذلك الوقت كنا نحمل خيمتنا ونذهب إليهم حيث ينزلون بالصحراء، ونقيمها جنبًا إلى جنب مع خيامهم السوداء، ونمضي ليلة أو ليلتين في صحبتهم. ولكن أبي رأى بعد فترة أن تكون له خيمة خاصة من الطراز العربي، وأن يكون هو المضيف فيها على الطريقة العربية، فسيقبل بها الجيران من البدو الذين يقبلون للقائه على نحو ما جرت عليه العادة في البادية.

وهكذا تخلينا عن خيمتنا البيضاء بشكلها الغريب بالنسبة للبدو، وقامت عمشة ومنيرة بحياكة خيمة خاصة لنا من الصوف الأسود، جاءت نموذجًا رائعًا لمهارة البدو في الصناعات اليدوية. وكانت قطع النسيج التى يتكون منها السطح من الصوف الأسود الأملس الخالى من أى نقوش، بينما كانت القواطع الرأسية المدلاة من السقف لتقسيم الخيمة من نسيج زاهر الألوان ومزركشة بالزخارف البدوية. وأما أرضية الخيمة، فبسطت عليها قطع من السجاد الأحمر والبنى، وعدد من الوسائد من نفس اللونين، قدمتها لهما السيدتان، فكان قطع السجاد والوسائد محلاة بالنقوش البدوية التقليدية باللون الأحمر والأسود والأبيض.

والصيف هو الفصل الذى تمارس فيه المرأة البدوية عملها في نسج الأقمشة، لأنه يمكنها خلاله أن تنشر ما تصنعه على الرمال أمام الخيمة وتتركه طوال أشهر الصيف دون أن تخشى الأمطار. ويتكون سطح الخيمة من ستة قطع متساوية العرض، تحكم حياكتها معًا لتشكل قطعة واحدة عريضة. والسقف في الخيمة الجديدة لا يسمح بتسرب المياه، ولكن بعد بضع سنوات من التعرض للشمس والرياح والأمطار يتآكل الصوف السميك ويصيبه البلى إلى أن يفقد القدرة على منع المياه من التسرب، ويصبح عُرضة للتمزق إذا هبت ريح مفاجئة. وكان ميسورو الحال من البدو يجددون أسقف خيامهم بانتظام، ويقومون كل عام قبل هطول الأمطار بحياكة قطعتين جديدتين من النسيج وسط السقف ونزع الأجزاء الجانبية التى تمزق أغلبها.

وكان مضرب خيام أسرة المزين في الصحراء أحد مشاهد طفولتى التى بقيت حية في ذاكرتى طوال الفترة التى أمضيتها في إنجلترا، ومن أكثر ما كنت أتحرق شوقًا لرؤيته مرة أخرى. وكنت أتذكر على وجه الخصوص، أمسيات الشتاء عندما يقوم الرجال بإقامة سور وقائية من أفرع نبات العرفج حول مدخل الخيمة لحمايتها من الرياح العاصفة، ويلتفون حول النار يروون الأساطير التى تدور حول أبطال من البدو، والأحداث الخارقة التى شهدتها البادية. وكانوا يخرجون في الظلام الدامس لجلب

الجمال وربطها بالقرب من الخيمة طوال ساعات الليل، وكنا نسمعها وهي تزمجر غاضبة وصرخات الراعى الذى يدفعها أمامه تلاحقها.

وكان أبى يعطى سالم راتبًا شهريًا مقابل إشرافه على خيمتنا وعنايته بها، ومنذ ذلك الوقت اعتبر هذا البدوى نفسه تابعًا أمينًا لنا، ومازالت علاقته بنا حتى الآن، وبعد عشرين عامًا من بدايتها، أكثر عمقاً من علاقتنا بأى أسرة بدوية أخرى. وعندما كانت الأغنام والماشية تتجول من مرعى إلى آخر أيام الربيع، كان سالم يحمل خيمتنا معه أينما حط الرحال، ثم يرسل إلينا من يخبرنا بكل التفاصيل الخاصة بالموقع الجديد الذى نزل به حتى نتمكن من الوصول إليه إذا عزمنا على الخروج إلى الصحراء.

وحقق الراتب الصغير الذى كانت أسرة المزين تحصل عليه من أبى نوعًا من الأمان لم يكونوا يشعرون به من قبل. وبالتدريج أصبحت الأسرة المتواضعة التى لم تكن تملك في يوم من الأيام إلاّ عددًا قليلاً من الماشية، على درجة من الثراء، وكثرت أعداد ما بحوزتها من أغنام وجمال.

وعندما عدت إلى الكويت في عام ١٩٤٧، كان سالم على درجة من الرفاهية تضعه فوق مستوى أوساط الناس. وبعد أن حصل لنفسه على قطعة صغيرة من الأرض بالقرب من مجموعة من الآبار على بُعد سبعة أميال من مدينة الكويت، شيد لنفسه بيتاً كان يمضى فيه فصل الصيف كل عام. والبدو من المراتب الاجتماعية الدنيا الذين لا يملكون من الثروة ما يحقق لهم الأمان اللازم لمواصلة حياتهم يتطلعون في كثير من الأحيان إلى مغادرة الصحراء، وتداعب خيالهم أحلام تملك مسكن في المدينة، ويهجرون حياتهم في الخيام من أجل حياة أخرى أكثر استقرارًا إذا وجدوا فرصة لعمل يقيم أودهم في المدينة.

وهكذا استثمر سالم مدخراته لبناء بيت وليس لشراء الجمال كما كان يفعل أى بدوى من القبيلة في غابر الأيام إذا توافر معه أى فائض من المال، ويرى في ذلك نوعًا

من صعود درجات السلم الاجتماعى نتيجة لوضعه الجديد كصاحب ملكية، وسالم الآن لم تعد تروق له الحياة في البادية كما هى الحال مع البدو الحقيقيين، وأصبح يفضل أن يكترى من يرعى له أغنامه وماشيته وجماله حتى هجر حياة البادية تمامًا بعد أن رأى أنها لم تعد تكفى لتحقيق ذاته وتطلعاته. ولكنه مازال يحصل على راتبه كمشرف على خيمتنا، كما لا يمكنه التخلِّى عن عادته القديمة بالخروج في الربيع، إلاّ إذا تنازل عن الدخل الذى حقق له ما يعيش في ظله الآن من ازدهار. وهكذا، ففي عام ١٩٤٧ وللسنة السابعة عشرة على التوالى، كانت خيمتنا تنتصب جنبًا إلى جنب مع خيام أسرة المزين.

وكانت حصة Hessa إبنة سالم الوحيدة فتاة من نفس عمرى، وكم لعبنا معًا كطفلتين، في تلك الأيام الخوالى، وعندما عدت إلى الكويت وجدتها سيدة متزوجة من محمد، أكبر أبناء عمومتها، وأنجبت منه طفلين صغيرين. وكان محمد قد خرج للحج عندما ذهبنا لأول مرة بعد عودتنا لزيارة هذه الأسرة. وأما عند زيارتنا الثانية فوجدناهم يحتفلون برجوعه. وبعد تحيات الترحيب التقليدية التى استقبلوه بها في البداية، همست عمشة في أذنى بأن محمد أحضر لى معه هدية من مكة، ثم اختفت حصة برهة في غرفة مظلمة تفتح على البهو وعادت وهي تحمل شيئًا تمسك به بشدة بقبضة يدها. ثم ناولتنى هدية زوجها وقد اعتراها الخجل. قرط معدنى بسيط مزركش لامع، وخاتم برّاق مطلى بماء الذهب، وقنينة صغيرة حمراء من الجلد مليئة بالكحل، وهو نوع من المساحيق تزيّن بها النساء عيونهن، وقالت: هذه لك من بيت ا لله.

وعندما كنا ننزل إلى البادية برفقة أسرة المزين، كانت نساؤهم تعدّ لنا وجبات طعامنا على الطريقة البدوية، وفي التوقيت المحدد يُحضر شابان قويا البنيان إناء الأرز ولحم الحمل المشوى من الخيمة المطبخ ويضعانه على الأرض أمامنا.

وبعد تناول الطعام، يحضر سالم القهوة، ويظل يتحدث مع أبى أثناء تناولها الحديث عن أحوال الشيخ ورؤساء القبائل، وعن الثروة التى حققتها الكويت من

خلال شركة النفط . وكثيرًا ما كان يسأل عن أخبار العالم الخارجى الذى لا يعرف عنه إلا القليل ويشعر برغبة عارمة أن يسمع عمّا يجرى فيه. وفي خريف ١٩٤٧ سأل أبى عمّا إذا كانت الحرب بين بريطانيا وألمانيا والتى سمع عنها كلامًا مبهمًا، قد انتهت، وقال إنه سمع أن العدو يحارب تحت قيادة رجل هتلر، ثم تساءل: إذا كان البريطانيون هم الذين انتصروا على الألمان، فماذا فعلوا بهتلر هذا؟ وعندما عرف منا أن هتلر أقدم على الانتحار عندها أدرك أن الهزيمة لاحقة به لا محالة، نطق سالم بشهادة ألاّ إله إلا ا لله، وأضاف أن هذه هي عدالة السماء.

وبينما سالم يتجاذب أطراف الحديث مع أبى، تسللت عمشة بقدميها الحافيتين دون أن تحدث صوتاً لتجلس إلى جانب أمى ومعها حفيدتها لطيفة البالغة من العمر ثمانى سنوات. والمرأة البدوية تتوارى دائمًا، من أم رأسها لأخمص قدميها، في رداء أسود، ولا يظهر منها إلا عيناها وقدميها، ويمكنك أن تقدر عمرها من كفيها وملمسهما، ولكنك لا تستطيع أن تتعرف على حقيقة الشخصية المتوارية وراء القناع إلا من خلال صوتها ونظرة عينيها. والغريب يتعلم، بعد فترة، كيف يتعرف عليها من عينيها وصوتها، ويرسم في مخيلته صورة لها، وكان صوت عمشة خفيضًا هامسًا ويتميز برنين أنثوى خاص، إلى جانب رقة غير عادية، وكانت كفاها نحيلتان ولا تكف عن تحريكهما كوسيلة إضافية للتعبير عما تريد أن تقول. واستنادًا إلى هذه الدلائل الخارجية تصور أبى أنها جميلة، أما أنا التى تمكنت كأنثى أن أراها دون حجاب في غرفتها الخاصة بالخيمة، فرأيت ملامح وجهها سافرة، وكانت حادة قاسية على غير ما توقعت.

وذات يوم أخبرتنى عمشة أنها أحضرت عقارًا طبيًا لعلاج أسنانها من سوق الكويت، وطلبت منى أن أفحصه قبل أن تستمر في استعماله لأنها عانت منه وأصاب فمها بحروق. ثم خرجت لتعود بعد دقائق وهي تحمل أنبوبة شبيهة بأنبوبة معجون



لطيفة المزين (طفلة بدوية)

الأسنان. وعندما دققنا النظر، وجدنا أن الأنبوبة لا تحتوى على معجون للأسنان، وإنما مادة لاصقة.

وكانت الطفلة لطيفة تجلس على الأرض إلى جانب جدتها، وقد وضعت ساقًا على ساق، تنتظر في خيمتنا في ترقب لحظة دخول أبى بما يحمل من قطع الشيكولاتة، والتى سيخرجها من جيبه عاجلاً أم آجلاً. وكانت لا تمل الانتظار، ولو لبثت عدة ساعات تظل فيها بلا حراك ملتزمة الصمت ووجهها الصغير الهادئ محاط بالبخنق bukhnug الموشى بالذهب. وكنا في بعض الأحيان نلّح عليها لترقص لنا على طريقة النساء البدويات، فتنزع الغطاء الذى يخفى رأسها، والخجل يستبد بها، وتقف وسط الخيمة وترفع هامتها في حركة مفاجئة فتنسدل ضفائرها الست حول كتفيها، ثم يتولى قفزها على اتباع تصفيق عمشة.

ولم يكن كلب المخيم أقل قدرة على الصبر والترقب، فهو يقبع عند مدخل الخيمة يحدوه الأمل في الحصول على بعض الفتات من مائدتنا، وكان هذا الكلب، شأنه شأن أغلب كلاب البدو التى تحرس الأغنام وتتبعها في كل مكان، مبتور الأذنين، لاعتقاد البدو أن أذنى الكلب هما نقطة ضعفه الأساسية، وأنه سيكتسب شجاعة لا حدود لها لمنازلة الذئاب والكلاب الأخرى إذا تخلص من هاتين الأذنين. وتقدم أطراف الأذنين التى تقطع والكلب لا يزال صغيرًا ليأكلها هو نفسه، وعادةً ما يكون ذلك بدسها داخل كمية من التمر.

والكلب من الأشياء التى لا غنى عنها بالنسبة لأى أسرة بدوية تنزل بالصحراء، فهو يحرس القطيع ويحميه من الذئاب في الليل، ويعلن بنباحه عن مقدم أى غريب إلى الخيمة. ولذلك، ورغم أن الكلب من الحيوانات النجسة وفقًا لمعتقدات المسلمين ولا يُسمح له بالتواجد داخل المسكن أو الخيمة مع تجنب ملامسته بأى حال، فهناك دائمًا كلاب تحوم حول مخيمات البدو. ولكن البدو الذين يعيشون في

الأغلب عند حدّ الكفاف، ولا يستطيعون أن يقدموا للكلب ما يمكـن أن يصلح طعامًا إلا نوايا التمر المنقوعة في الماء، إلى جانب ما يمكنه الحصول عليه من قمامة المطبخ.

وكانت هناك العديد من الأسر الأخرى، إلى جانب أسرة المزين، والتى نعمنا بكرم ضيافتها في الصحراء. وثمة مناسبة على وجه الخصوص لا تنمحى أحداثها من ذاكرتى مهما امتد الزمن، وهي تلك الأمسية التى أمضيناها مع محمد وثير Wathain وهو من شيوخ البدو في العربيـة السعودية، عندما حضر لشراء بعض اللازم والمواد الغذائية من الكويت.

توجه الرجل لزيارة أبى في المدينة، وأصر على دعوتنا على العشاء معه في خيمته أثناء الفترة الوجيزة التى سيقضيها بالكويت. وحددنا إحدى الأمسيات موعدًا للوليمة.

ولكن ما أن وصلنا إلى مخيمه الصحراوى قبل مغيب الشمس مباشرة في الموعد المحدد، حتى تبين لنا أنه ليس هناك أى استعدادات أجريت لاستقبالنا، وفسر محمد ذلك بأنه لم يكن متأكدًا من أننا سنلبى الدعوة. ولذلك رأى ألا ننحر الذبائح التى ستقدم في العشاء إلاّ عند وصولنا. وتعويضًا للوقت الضائع، سرت على الفور موجة من النشاط الشديد. وبينما راح بعض الرجال يعدّون لنا مكانًا للجلوس، أمسك آخرون بحمل كان مربوطًا بحبل بطرف الخيمة، واقتادوه بعيدًا عن الأنظار لذبحه. وعندما أقبل أحد الفتيان بعد دقائق ليقدم القهوة، كانت ملابسه ملطخة بالدماء بعد اشتراكه في ذبح الحمل.

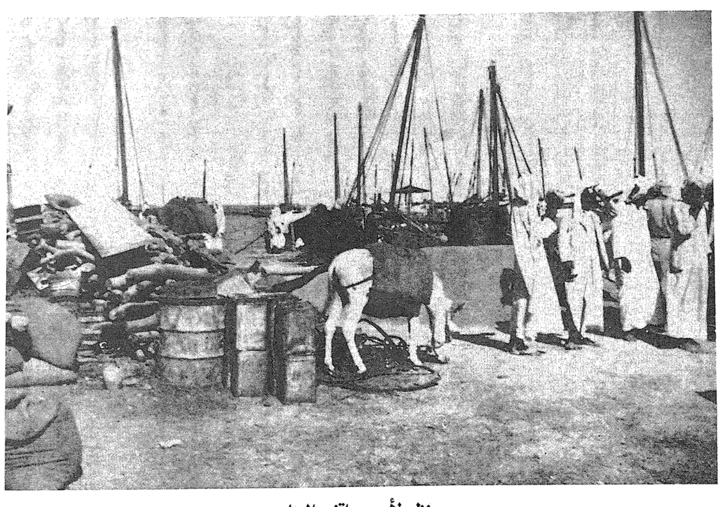
والبدوى لا يعرف للزمن قيمة أو معنى، وليس لديه أى إحساس به، فتحركاته، ذهابًا وإيابًا، في مجرى حياته الطبيعية لا تحددها توقيت معين، ولا تحتسب بالساعة أو الدقائق، وإنما يبدأ يومه ببزوغ الشمس وينتهى بمغيبها، وعندما يريد معرفة مواقيت الصلاة، يكفيه أن يرفع عينيه ليرصد موقع الشمس في السماء، وهل لا يستطيع أن يفهم كيف أن الوقت يمكن أن يتبدد، بالمعنى الإنجليزي، لأن

كل تحركاتـه وسـكناته لا تتشـكل إلاّ وفقًـا لاحتياجـات أسـرته وماشـيته وليـس لأى اعتبارات أخرى. والجلوس مع الأصدقاء حول نار يشعلونها في المخيم، هي بالنسبة له الطريقة المثلى والطبيعية لقضاء الوقت. وإذا كانت هناك مهامًا عليه أن ينجزها، فليس هناك ما يحتم عليه أن يكون ذلك اليوم، فإن غدًا لناظره قريب، وليس هناك ما يدعـو إلى العجلة.

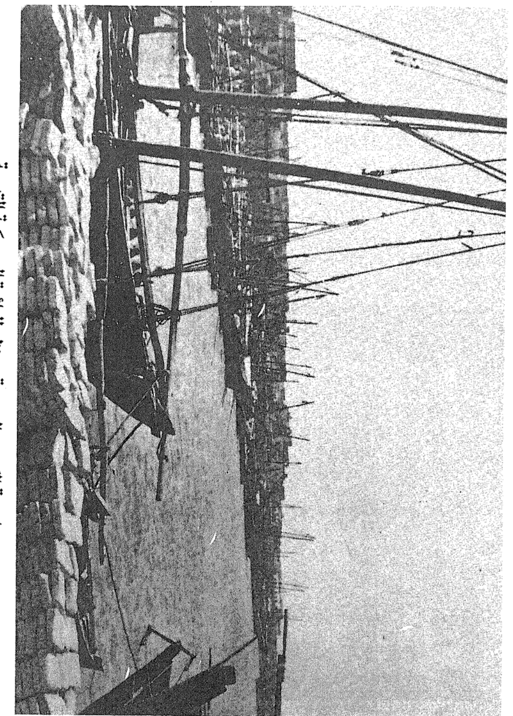
ولذلك، فالبدوى لا يخرج عن المألوف ولا يتصرف بطريقة لا تليق، إذا طلـب من ضيفه أن يمكث ساعتين أو ثلاث ساعات انتظارًا لإعداد الطعام، وهــو لا يـرى في قولى أن هذا مضيعة للوقت إلا نوعًا لا مبرر له من نفاد الصبر.

وكان محمد، وهو من عجمان ومن غلاة أتباع المذهب الوهابى، يغطـى رأسـه بالعمامة البيضاء المميزة لجماعة الإخوان، وكان وجهــه ملفتًـا للنظـر بملامحـه الحـادة التى تنطق بالزهو الجديـر ببـدوى ينتمـى لقبيلـة عريقـة، ولحيتـه غـير المشـذبة التـى استطالت إلى ما يتجاوز القدر المألوف. وقد شارك في القتال ضد الملك ابن سعود الراحل أيام تمرد الإخوان عام ١٩٢٩، وتولى قيادة غارة داهمـت قافلـة خاصـة بالأمـير سـعود كانت في طريقها إلى الهفوف، ولكنه سعى فيما بعد للحصول علـى حـق اللجـوء لـدى الملك فيصل الأول، ملك العراق، هربًا من غضب العاهل السعودى. ولكنه على علاقـة طيبة الآن بحكام شبه الجزيرة العربية ويقضى أيامه آمنًا في أرض أسلافه.

وكان مضيفنا وجماعته قد بسطوا لنا سجادة خـارج الخيمـة فجلسـنا بـالقرب من نار المخيم، وكنّا وقت مغيب الشـمس تقريبًـا، وعندمـا تـوارت الشـمس تمامًـا وراء الأفق، نهض محمد ليؤذن للصـلاة، ووقـف إلى جانبنـا حيـث نجلـس، ورفـع كفيـه ليحيط بهما فمه، وانطلق صوته بالآذان، فهـبّ الرجـال الجالسـون معنـا حـول النـار واصطفوا من ورائه بعد أن تيمموا بالرمال بدلاً من الوضـوء بالمـاء علـى نحـو مـا تجـيزه عقيدتهم عندما تندر المياه، ميممين وجوههم شطر مكة.



منظر لأحد مواقف الميناء



واجهة الكويت البحرية: منظر للدائرة الجمركية القديمة



أحد الحراس البدو

والصلاة تؤدى في الصحراء في صمت وخشوع في العادة، ولكن نظرًا لأن محمدًا كان فيه شيء من شخصية الزعيم الديني، سنحت لنا الفرصة في تلك الأمسية لنستمع إلى ما يرتل أثناء الصلاة من آيات ودعاء بصوت جهير، وبطريقة تشبه ترتيل رجال الدين الإنجليز. وكان المصلون من ورائه يرددون كلمة (آمين) مع تطويلها في ختام كل دعاء، ولم يكن هناك من صوت يُسمع في تلك الأثناء إلا الطقطقة الخافتة لحطب أغصان العرفج المتأججة تحت إناء القهوة، بينما يفيض السكون المطلق الذى يلف المكان، والفراغ الذى لا نهاية له للصحراء جوًا من الوقار الشديد على هذه الطقوس البسيطة.

وفي ختام الصلاة جلس محمد على الأرض أمام المجموعة المنتظمة من ورائه، ثم تحول برأسه ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة أخرى، وهو يردد (السلام عليكم) تحية للملكين الحارسين اللذان يقومان عند رأس كل مسلم مؤمن، ثم استدار دورة كاملة ليواجه المصلين ولينهي الطقوس بشيء من التضرعات والدعاء.

ونهض الرجال الآخرون وانصرفوا، أما محمد فظل في مكانه ليؤدى صلاة إضافية بمفرده وفي صمت تعويضًا لإحدى الصلوات الخمس التي لم يسعفه الوقت لأدائها في حينها في ذلك اليوم.

وعندما عاد الرجال جميعًا إلى مجلسهم حول النار، بدأوا يروون القصص البدوية، وتحدثوا عن الحروب والغارات في غابر الزمان. وكان الظلام يختم تمامًا على البادية في ذلك الوقت، وليس هناك من شعاع يضيء أوجه المستمعين الملتزمين بالصمت إلاّ وهج اللهب المتأجج المنبعث من النار. وكانت النجوم تتلألأ في السماء، وكل شيء حولنا بلا حدود، وبدا وكأننا وجدنا في الفراغ.

هكذا مرّت ساعات إلى أن تهادى صوت سيدة من داخل الخيمة تعلن أن الطعام أُعد وحانت لحظة تناوله، وقام بعض الرجال وأحضروا إناء الأرز واللحم من

جناح النساء ووضعوه بالقرب منا، ثم أضافوا بعض الحطب إلى النار ليزيدوها اشتعالا حتى يمكننا الرؤية أثناء تناول الطعام.

وظلت هذه الأمسية محفورة في ذاكرتى نظرًا لما لمسته فيها عن قرب من الجوانب المفرطة في البساطة للحياة في البادية. وكان هؤلاء القوم بدوًا حقيقيين، يعيشون حياة شديدة التقشف والبعد عن أى زخرف. ولم يكن في حوزتهم مجرد شمعة لإضاءة الخيمة عندما يخيم الظلام، وانتهى بهم كرمهم إلى أن يقدموا لنا وجبة من الطعام ما كانوا ليسمحوا لأنفسهم بتناولها لولا وجود الضيف، لأن العادة المتوارثة لديهم منذ القدم تحتم تقديم الطعام والمأوى لأى مسافر يمرّ بهم، صديقًا كان أو غريبًا، وهي عادة من أكثر عاداتهم قدسية واحترام، وتنبثق من حاجة أى عابر للعون وهو يواجه البيداء بكل ضراوتها وأخطارها.

والبدو يعيشون في ارتباط وثيق بالطبيعة، وتعتمد حياتهم على ظروف المناخ المواتية، بينما احتمالات المرض أو الموت جوعًا تتربص بهم عن كثب، فالمشاق التى لا نهاية لها مقترنة بالفقر، وفي صحراء مترامية بلا حدود، هي العوامل التى شكلت هويتهم كشعب، وهي التى غرست فيهم روح الاستقلال، والإحساس بالشرف، والولاء للقبيلة، والإيمان الذى لا يتزعزع بالله، وهذه في حقيقة الأمر هي ما يميز ملامح وسمات البدو الرعاة من العرب.

الفصل السادس
البدويّ

الفصل السادس

البـــــــــدويّ

توفر الصحراء الممتدة خارج أسوار مدينة الكويت الكلأ والمرعى لأعداد ضخمة من الأغنام والجمال التى كانت طوال قرون عديدة المصدر الوحيد للثروة ووسيلة الحياة التى ليس هناك سواها بالنسبة للبدوى الذى لا يقف عن الترحال والتجوال رائحًا وغاديًا على أرض بلاده.

وعدد هؤلاء البدو الرعاة كبير، ولكن الحركة التى لا تتوقف للقبائل عبر الحدود الكويتية وعبر حدود العربية السعودية تجعل من المحال التوصل إلى تقدير دقيق لعدد المقيمين بالكويت إقامة دائمة.

وأما في المواقع التى يطيب فيها الماء ويتوفر بكميات مناسبة، فنشأت القرى في جوف الصحراء، وتجمع البدو ليستقروا مكونين مجتمعات صغيرة، وتركز كل جهدهم في زراعة الخضروات والتمر. وهناك سلسلة من هذه القرى تمتد على طول الساحل جنوبي المدينة، وتمثل الجهرة، على بعد عشرين ميلاً غربى الكويت، إحدى المستوطنات التى تنتمى إلى هذا النوع.

وبالرغم من خلو الأراضى الصحراوية في الكويت في جانبها الأكبر من أى معالم بارزة تلحظها العين، إلا أن موقع حقول النفط على بعد الثلاثين ميلاً جنوبى المدينة يتميز بمعلمين من أكثر المعالم وضوحًا وهما برقان Burgan ووارة Wara[1] ، فالبرقان مجموعة دائرية من التلال المنخفضة تحيط بمنخفض ضحل، بينما تشكل وارة – وتقع على بعد غير كبير إلى الشمال الغربى – تلاً مخروطيًا واحدًا يبرز ناتئًا من جوف الصحراء المسطحة. ويتسرب داخل دائرة برقان سائل يتدفق من طبقة من القار تحت سطح الأرض. كما عُثر في هذا الموقع على أدوات من صنع الإنسان تنتمى إلى

العصر الحجرى الحديث، مما يشير إلى أن هذه التلال كانت تحيط في وقت من الأوقات بمستوطنة بدائية، أما الآن، فتغطى المنطقة المحيطة ببرقان/ وارة الهياكل المعدنية المقامة فوق الآبار إلى جانب عدد من المنشآت المرتبطة بصناعة النفط.

وفيما عدا ذلك فالسمة المميزة الوحيدة الجديرة بالذكر لسطح الأرض في الكويت هى تلك السلسلة من التلال الممتدة شمال غربى المدينة، والتى يمكن رؤية سفحها الجنوبى شديد الانحدار من خليج الكويت. أما بقية الصحراء فلا تعدو أن تكون مساحات شاسعة من الأرض، بلا أى معالم، وخارج أسوار مدينة الكويت مباشرة، تمتد منطقة هي التى وقع عليها الاختيار لبناء الأحياء السكنية والصناعية، وفقاً للمخططات الجديدة الخاصة بالمدينة التى تكاد ألاتعرف الخضرة إلا في الفترة القصيرة التى تعقب هطول الأمطار مباشرة. لأن جامعى القمامة جردوا الأرض من أى نبتة منذ وقت طويل، كما تلتهم ماعز المدينة التى ترعى هذه المنطقة كل يوم وعلى الفور أى شىء أخضر ينبثق من بين الرمال بعد الأمطار السنوية. ولكن التلال والوهاد وراء هذه الأرض الجرداء تكسوها نباتات قصيرة، تختلف أنواعها من بقعة لأخرى، وفقاً لنوع التربة: والعرفج – وهو نبات أخضر مشوب باللون الرمادي ويصل الحد الأقصى لطول سيقانه إلى ما لا يزيد عن القدمين ونصف القدم – هو أكثر شجيرات الصحراء انتشاراً، ويغطى مساحات واسعة من الصحراء، ويعيش العديد من فقراء البدو على جمع سيقانه وتجفيفها لتصبح حطبًا يبيعونه لُيستخدم كوقود، وهم يمارسون هذا العمل يوميًا وعلى امتداد السنة، ويحملون الحطب على ظهر حميرهم أو جمالهم ويتوجهون به إلى السوق، ومن المناظر المألوفة في الطرق الصحراوية أن ترى الدواب وهي في طريقها إلى المدينة وعلى ظهورها هذه الحمولات الثقيلة الضخمة التى تكاد الدابة أن تختفى تحتها.

ومنذ وقت سحيق، انقسم البدو الرعاة في شبه الجزيرة العربية إلى قبائل وبطون للقبائل، وهناك أسماء بارزة بين هذه القبائل مثل الأشراف، أو رؤساء العائلات

في العربية السعودية ومنهم: عجمان، ومطير، وعنيزة، وشمّر، والذين كانوا منذ قرون ومازالوا حتىالآن، أشدّ القبائل بأسًا وأعلاها منزلة، لأن رجالها من البدو الذين تجرى في عروقهم الدماء العربية، أما عائلات شيوخهم فهم سراة شبه الجزيرة العربية وارستقراطييها. وتملك هذه القبائل ثروات هائلة تتمثل في قطعان ضخمة من الإبل.

وتقيم بعض القبائل، أو قطاعات منها، إقامة دائمة في أراضى الكويت، وتدين بالولاء والتبعية لشيخها، ومنهم الرشايدة، المعترف بهم كقبيلة كويتية نقية الدم، والتى يخرج من صفوفها أفراد الحرس الخاص للشيخ. ولكن نظرًا لما تتطلبه الحياة في البادية من تجوال مستمر بلا توقف، نجد أن الكثير من القبائل السعودية التى تنتمى لنجد، تنتقل إلى أراضى الكويت في السنوات التى يتوفر فيها الكلأ بكميات أوفر مما عليه الحال في أراضيهم، وفي كل عام أيضًا، يهاجر الرعاة من قبائل المنتفق بالعراق في اتجاه الجنوب سعيًا وراء الطعام اللازم لماشيتهم وأغنامهم في الكويت، ولبيع الحملان والزبد في أسواقها، ويتمتع البدو، وفقًا لاتفاق قديم غير مكتوب بين الكويت والعراق والعربية السعودية، بحق اجتياز الحدود بين هذه البلدان الثلاثة، كلما أرادوا وبدون أى إجراءات قانونية.

رغم أن البدو كانوا أول من نزل مدينة الكويت واستوطنوا بها، إلاّ أن سكان المدينة اليوم، بما فيهم ذلك الفريق الذى احتفظ بدمائه نقية، ولم يختلط مع العناصر الأجنبية التى وفدت إلى الكويت منذ أن نمت وتحولت إلى ميناء، تخلوا إلى حد كبير عن عاداتهم وطرق معيشتهم ونظرتهم للأمور عما درج عليه أسلافهم من سكان البادية.

واليوم، يفخر ساكن المدينة العربى المتعلم الذى ينتسب إلى أسرة عريقة بأجداده من البدو، ويكِن احترامًا عميقًا للجيل الراهن من أبناء القبائل شريفي المولد. ورغم ذلك، فاحترامه مشوب إلى حد ما بالإحساس بالتفوق، لأن التاجر الذى حصل على قسط من التعليم ولديه شيء من المعرفة بأحوال العالم الخارجى، والذى تسربت إلى نظرية المؤثرات الغربية، يرى أن ما أحرزه في مجال التقدم والتحضر يضعه في

مكانة أرفع كثيرًا، كما يرى أن نجاحه في عالم التجارة – وكما يتبدى في أعين بقية العالم – يحقق له احترامًا أعلى.

ولاشك أن ما سجله نيبور من ملاحظات حول الفوارق بين عرب البادية، وعرب المدينة صائبًا تمامًا، فهو يقول: «ومنذ أن استقر العرب في المدن واستوطنوها، وخاصة المدن الساحلية التى تؤدى دورها كموانى، تخلو عن جانب من عاداتهم وطرق حياتهم القومية المميزة، نتيجة لتعاملهم مع الأجانب، أما البدو الذين يعيشون في الخيام، وفي قبائل منفصلة عن بعضها البعض، فمازالوا يتمسكون بعاداتهم وطرق معيشتهم التى ورثوها عن أسلافهم القدامى، إنهم العرب الحقيقيين خالصى النسب، الذين تتجسد فيهم – في مجموعهم – كل السمات والخصائص الموزعة بين الفروع الأخرى من الأمة».

وإن كانِ علية القوم في المدينة والبادية يكنون الاحترام والتبجيل لبعضهم البعض، وحتى بضع سنوات مضت، كان البدوى الحق يرى أن حياة الاستقلال التى يمارسها في الصحراء هي الشكل الوحيد الجدير بالاهتمام بالنسبة لمن ينتمى لقبيلة ويفخر ويعتز بتقاليد أبائه، ولكن كان هناك دائمًا من دفعهم الفقر المدقع دفعًا إلى السعى وراء فرصة عمل في المدينة، حتى من أبناء القبائل العريقة. وهذا المسلك لا يحط من قدر من يقدم عليه من أشراف البدو طالما نأى بنفسه عن أنواع من العمل تأباها عاداتهم وتقاليدهم، وعلى سبيل المثال، يجب عليه ألا يعمل في دباغة جلود الحيوان، أو أن يحترف جلب اللحوم لبيعها في المدينة، أو حرق الجير الحى، فهذه المهن، وبعض المهن الأخرى من المهن (غير النظيفة) التى لا يمارسها في العادة إلا نفر من البدو أو سكان المدن من أدنى المراتب الاجتماعية.

وتبيِّن قصة تُروى عن الشيخ مبارك، جد الحاكم الحالى، كيف يُنبذ البدوى الذى يعمل في أحد هذه المهن الوضيعة من صفوف الجماعة التى تضمه هو وسائر أعضاء قبيلته، وكيف يتنصل منه الحريصون على التمسك بالتقاليد القديمة: يروى أن

الشيخ الكبير الذى اشتهر بالحكمة والعدل التقى وهو يعبر أحد أبواب المدينة ، ببدوى يسوق حميرًا محملة بالجير الذى جلبه من أحد المكامن خارج المدينة ، فتوقف الشيخ مبارك ونادى الرجل ثم سأله وهو يتفحص بعين ثاقبة وهو يدنو منه : ألست من أبناء قبيلة....؟ وفي مذلة وانكسار اعترف البائس الذى يرتدى الأسمال ولا تبدو عليه أى أمارة من أمارات الزهو والكبرياء التى تميز أبناء القبائل العريقة ، بأن عجمان هم عشيرته بالفعل، فقال الشيخ مبارك: يجب أن تعلم أن مهنة مثل حرق الجير تجلب العار لرجل من نوعيتك، قال البدوى: يا طويل العمر، أنا أعلم ذلك جيدًا، ولكننى كنت على شفا الموت جوعًا، وكان هذا هو العمل الوحيد الذى أتيح لي كي أقيم أودى وأود أسرتى، ولكن الشيخ لم يكن ليستمع لأى أعذار، فقال: لقد حقرت نفسك أمام ا لله وأمام أقرانك من أبناء القبيلة ، وأنا آمرك بترك هذا العمل الدنئ، وأن تغادر أراضيّ، وألا تعود إليها أبدًا، وإلا كان جزاؤك الموت.

ولقد مرت بالكويت مرحلة من الزمان، قبل تطورها ونموها وقدرتها على إتاحة الفرص العديدة الجديدة للعمل، كان العربى الذى ينتسب إلى قبيلة وضيعة المقام لا يمكنه أن يتصور أن يعيش حياته كعامل يكدح من أجل رزقه ، وفي تلك الأيام، كان ساكن المدينة المعدم الذى وفد إليها بحثًا عما يقيم الأود، يعرض خدماته على أحد الشيوخ، لأن الأسر العربية الحاكمة تدرك ما جُبل عليه البدو من كبرياء واعتزاز بالنفس، وهي دائمًا على استعداد لاستخدامه كأحد الفداوية ، أى الأتباع المسلحين في منازلها. وهذا العمل يناسب البدو تمامًا، فإلى جانب ما يحظى من امتياز بحمل السلاح والذخيرة لحماية الشيخ، فهو لا يتطلب منه جهدًا سوى أن يجلس على مقربة من سيده ليهبّ للدفاع عنه إذا وقع حادث أو أثناء تمرد مسلح.

أما اليوم فهناك العديد من البدو المنتمين لكافة القبائل ومن كافة المراتب الاجتماعية ممن يكسبون رزقهم كعمال كادحين في شركة النفط ، أو مع المقاولين الذين ينفذون المشروعات الدولية للتنمية ، وإذا أتيحت للبدوى الفرصة لأن يختار فهو يفضل

أن يعمل حارسًا، أو خفيرًا مسائيًا، أو سائق شاحنة، أو ميكانيكيًا، وأما إذا لم تتوفر هذه النوعية من العمل، أو إذا كان العمال الكادحون يحصلون على أجور أعلى فهنا يقوده الإغراء بالثراء الذى لم يسمع عن مثيل له من قبل، إلى أن يطرح كبرياءه جانبًا، هذا الكبرياء الذى كان يحول بينه وبين العمل – في وقت من الأوقات – في مهنة من المهن التى لا تحتاج لأى مهارات.

والبدو من الرشايدة، على سبيل المثال، لم يكونوا يعرفون ماذا يعنى الاستقرار في المدينة إذا تمكنوا من الحصول على فرصة للعمل بها، وحتى عهد قريب، كان هناك حيّ خاص في المدينة لا يقيم به، تقريبًا إلا أمثال هؤلاء البدو الوافدين. ولكن العديد منهم تركوا مساكنهم المتواضعة نتيجة لمتقضيات خطط التنمية، أو فضلوا تركها نتيجة لتدفق الأجانب إلى المدينة. وكان كل من يتعرض مسكنه منهم للإزالة يحصل على قطعة من الأرض بلا مقابل، نشأت من مجموعها مستوطنة جديدة في الدوغة (الفروانية) Dogha وهي منطقة صحراوية على بُعد عشرة أميال جنوبي الشويخ.

وكان أغلب هؤلاء البدو يكسبون رزقهم فيما مضى بممارسة الغوص على اللؤلؤ، ولكن لم يعد هناك اليوم من يعمل في هذا المجال.

وكلما ازداد عدد سكان البادية الذين تجتذبهم المدينة وهم يأملون الحصول على عمل سخيّ آخر، كلما ازدادت أيضًا أعداد من يتخلون عن نمط حياة البدو، بل وربما رأينا بعض البدو من أبناء القبائل العريقة يستقرون في مساكن دائمة بالقرب من مقار عملهم بالمدينة. وهناك عدد كبير من البدو الذين جاءوا إلى المدينة وعملوا بها عدة أشهر مقابل أجور مجزية، فادخروا نقودهم لشراء شاحنة أو سيارة نقل، وهو نوع من الاستثمار حل محل الجمل في اقتصاديات هؤلاء الوافدين. وعندما يحصل البدوى على شاحنة أو سيارة نقل يعود سيد نفسه من جديد ويمكنه أن يعيش حياة هانئة آمنة وهو ينقل الركاب والبضائع بين الكويت والقرى البعيدة، أو يشحن الماشية ولبيعها في المناطق الداخلية، أو يؤجر شاحنة للمقاولين لحمل الأدوات والعمال إلى مواقع العمل.

والبدوى الذى يبنى لنفسه منزلاً في هذه المدينة أو يستقر بها، يظل بدويًا في نظرته للأمور، وفي موقفه من السكان العاديين من أهل المدينة، وهو يتمسك أيضًا بزيه البدوى الذى يتميز به الرجال والنساء عما يرتديه أهل المدينة بخصائص معينة. فالبدوى لا يمكن بأى حال أن يغادر مسكنه أو خيمته إلا والبشت Bisht أو العباءة بنية اللون المصنوعة من الصوف، حول كتفيه، بينما استغنى البسطاء من سكان المدينة عن هذا البشت، ولا يمكن إلا للأثرياء وأبناء الأسر الكبيرة في المدينة وحدهم أن يحافظوا على هذه العادة البدوية بارتداء العباءة كلما خرجوا إلى الطرقات. والبدوية تتميز عن أختها ابنة المدينة بارتدائها البرقع Burga وهي نقاب أسود به فتحتان للعينين، أما ابنة المدينة فتستر وجهها بخمار من الموسلين الأسود الشفاف أو من نسيج مجدول كالشباك.

وهناك مجموعة من الآبار خارج سور المدينة مباشرة، عند الطرف الجنوبى منها، يتوفر بها الماء العذب الجيد على مدار السنة. والوافدون القدامى يعرفون بوجود الماء في هذا الموقع، والأرجح أن مكان هذه الآبار – ويُعرف الآن بالشامية – هو الذى حسم اختيارهم لهذه البقعة القريبة المطلة على الساحل لاستقرارهم الدائم.

ويشكل الحى المحيط بالآبار في الوقت الراهن ضاحية مكتظة بالمبانى من ضواحى مدينة الكويت. وتزخر هذه الضاحية بعدد كبير من أماكن إيواء السيارات (الجراجات) لخدمة هذا الأسطول الذى تزداد أعداده يومًا بعد يوم من الشاحنات وسيارات النقل التى يقودها سائقون من البدو. وكانت الشامية قبل أن تبدأ مدينة الكويت توسعها بعد تدفق ثروات النفط مع ما صاحب ذلك من سباق محموم من أجل البناء على كل موقع متاح داخل المدينة أو بالقرب منها، كانت الشامية حيًا تقتصر الإقامة به على البدو، واستقرت به بالفعل أعداد من أهل البادية يعيش بعضهم في خيام مهلهلة، ويقيم البعض الآخر في أكواخ من الطين والبوص. ويعيش في هذا الموقع بدو من كافة القبائل، جاءوا إلى المدينة تحت ضغط الحاجة التى تجمع بينهم، وبعد

أن فقدوا جميعًا – ومنذ وقت طويل – الماشية والأغنام والجمال التى ربما كانوا يمتلكونها في يوم من الأيام، وما أن استقروا في الشامية حتى راحوا يسعون لكسب ما يلبى احتياجاتهم المتواضعة في المدينة. وكانت النساء اللاتى يعشن بدون أزواج يحترفن في العادة تقديم الطعام وتوفير المأوى للمسافرين القادمين من الصحراء، وتهيئة خيامهن لتُستخدم كنزل للبدو الذين يفدون مع القوافل المتنقلة بين الكويت ومدن المناطق الداخلية في نجد.

والشامية الآن ضاحية تعج بالمساكن ومآوى السيارات، ولكن العديد من هذه المساكن ومآوى السيارات من ممتلكات السكان الأوائل الذين حققوا الثراء نتيجة لما يحصلون عليه من أجور عالية من شركة النفط أو من الدولة.

وعلى مسافة غير كبيرة من الشامية، وفي موقع شديد الفوضى والإهمال، نشأ مخيم يضم مجموعة أخرى من الخيام والأكواخ، وهو المكان الذى حط به الصلبه* Sulubba رحالهم، وهم قوم أقرب ما يكونون إلى الغجر ينأى العربى الحق عن أن تكون له بهم أى علاقة، وقد مُنحوا موقعًا خاصًا ليضربوا فيه خيامهم لمنعهم من الإقامة بين الكويتيين أو الاختلاط بهم. وتسمية هؤلاء القوم مستمدة من الصليب، ويقول البعض أنهم ينحدرون من العناصر المسيحية التى تخلفت بعد الحروب الصليبية عن العودة إلى مواطنها الأصلية وبقيت في الشرق وتزاوجت مع السكان المحليين. وهم يحتفلون بأعيادهم بالرقص وإقامة المهرجانات نجدهم يضعون بالقرب من ساحة الرقص صليبًا بربط عصا رأسية بأخرى أفقية، ويدثرونه بزيّ امرأة، فهذا هو رمزهم الخاص، الصليب الذى يستمدون اسمهم منه.

واللغة العربية هي لغة التخاطب بينهم، ولكنهم يختلفون في عاداتهم عن العرب الحقيقيين، ولا يُعترف بهم كمسلمين حسُنت عقيدتهم. وبشكل عام هم لا

* ما ذكره المؤلف يعبر في الحقيقة عن رأيه فقط [المترجم].

يعتقدون أى ديانة معروفة، رغم مراعاة بعضهم البعض واحترامهم للشعائر الإسلامية، ونساء الصلبه عادة لا يضعن الحجاب على وجوههن، وإن كنّ يفعلن ذلك عند النزول إلى شوارع المدينة احترامًا للعادة الشائعة. وعندما تحين المواسم التى يؤدون فيها رقصاتهم الجماعية، ترقص النساء مع الرجال، وبدون حجاب، وهو نوع من التصرفات التى تثير العرب الحقيقيين، وخاصة البدو الذين لا يسمحون للنساء بالتواجد في أى لقاءات عامة مع الرجال. والواقع أن العناصر الأخرى التى يتكون منها المجتمع العربى تنظر إلى الصلبه كفئة لا أخلاق لها. ومن الصعب على أى إنجليزى أن يعرف المزيد عن أسلوب حياتهم الغريب لأنه يعرض نفسه – إذا حاول ذلك – للمقاطعة من جانب بقية المجتمع العربى.

وفي الأيام الشاقة من الزمن القديم، كان بعض أفراد هذه الفئة يكسبون قوتهم بصيد الأسماك، بينما يمارس البعض الآخر المهن المحرّم على البدو ممارستها. وكان العديد من نسائهن يتوجهن إلى المدينة كل يوم للتسول من بيت إلى بيت، من أجل الحصول على شيء من طعام أو كساء.

وكانت إحدى الشابات قد اعتادت أن تحضر إلى منزلنا لتحصل على شيء من النقود أو الطعام. كان زوجها صائد أسماك ولكن المرض ألزمه الفراش لعدة أسابيع متتالية، وفي مثل هذه الأحوال لا يجد هو أو زوجته ما يقيم أودهما، وكانت خيمتهم أقرب إلى الأسمال المزقة، وثيابهم رثة بالية، لا تكاد تسترهم أو تقيهم رياح الشتاء وأمطاره. كنا نساعد هذه السيدة الشابة بكل ما في وسعنا، وكانت بدورها ممتنة للغاية مهما بلغ تواضع ما نقدمه لها. والبدوى عريق النسب، يتقبل الهدية شاكرًا، ولكن في فتور ولا مبالاة، وكأنها حق من طبيعى أن يؤدى إليه. ولعله من أبرز الجوانب التى كانت تنم عن المرتبة الاجتماعية الدنيا التى تنتسب إليها هذه الشابة الصلبه هذا الإسراف الدائم الذى كان يبدو منها عند تعبيرها عن شكرها وامتنانها.

وفي تلك الأيام، قبل أن تتدفق الثروات على الكويت، كان مخيم الصلبه مكاناً يسوده الفساد وتلفّه القذارة، أما الآن، فتغيرت الأحوال. وإنها لبادرة مبشـرة بـالأمل، أن يصل الرخاء إلى أكثر المناطق تخلفاً وتواضعًا، حيـث تحـول مخيـم الصلبـه في عـام ١٩٥٣ إلى مكان تنتشر فيه الأكـواخ النظيفـة وخيـام علـى مسـتوى جيـد. والهوائيـات تشاهد الآن وهي تطلّ فوق العديد من الأكواخ، لتجسد ما طرأ على حياة سـكانها مـن تغير عميق. وفي المساء، تقبل أعداد كبيرة من الشاحنات الحمـراء العملاقـة، في طريـق عودتها من عملها اليومى، لتمضى الليل خارج مسـاكن أصحابهـا، في منطقـة لم تكـن فيما مضى إلاّ مجتمعًا معزولاً للمنبوذين.

الهوامش

١- لم يعد لبرقان ووارة ما كان لهما من أهمية فيما مضى، ولأن شاحنات المقاولين، التى تنقل الرمال والزلط، أزالت كثيرًا من أراضى وارة نتيجة لأعمال الحفر، كما قامت عمليًا بتسوية تلال برقان بسطح الأرض.

الفصل السابع
الإرسالية الأمريكية

الفصل السابع
الإرسالية الأمريكية

الإيمان بالقضاء والقدر من أبرز الخصائص المميزة لشخصية العربى القديم، وهي خاصية حظيت كثيرًا بالاهتمام، وكانت مثارًا للعديد من الدراسات والتعليقات، وتنتهى بمن يتسمون بها إلى تقبل أى محنة في استسلام ورباطة جأش.

وليس هناك ما يجسد هذا الإيمان بالقضاء والقدر أكثر من موقف البدوى من المرض والموت. وحدث ذات مرة أن قمت بنفسى بزيارة أسرة بدوية دون أن أدرى أن طفلاً صبيًا لها توفى في اليوم السابق، ولكنهم استقبلونى في كياسة ولطف والبسمة لا تفارق شفاههم، ولا ينم مظهرهم عن حزن أو شجن. وأثناء ما دار بيننا من حديث سألت عن صحة الطفل، فإذا بالأب يشير إلى موقع خارج الخيمة على مسافة غير كبيرة ينم فيه كوم من الرمال عن قبر عدد حُفر من تحته، ويقول: إنه يرقد هناك، ونحن نسأل في الأحوال الطبيعية، عندما يواجه حدثًا من هذا النوع عما أحاط به من تفاصيل. ولكن الإجابة جاءت مقتضبة وغير راغبة في الاسترسال في الحديث، فيقولون: لقد استرده ا لله، الحمد لله، وينتهى الأمر.

ويستند هذا الخضوع الذى لا يرقى إليه شك لله، إلى الإيمان بأن الحياة تجرى وفقًا لمقادير تحددت سلفًا، وأن أى اعتراض من جانب البشر لا يمكن أن يغيِّر شىء أمام تصاريف القدر التى لا راد لها. وهذه النظرة إلى الحياة، والتى تضرب بجذورها في أعماق الشخصية العربية هي المسئولة، في كثير من الأحيان، عن عدم اتخاذ أى إجراءات وقائية عندما تلوح نُذُر واضحة بالخطر، وكان من الطبيعى أن يواجه خبراء حفر الآبار في شركة النفط صعوبات جمة من إقناع العمال من البدو الذين يمارسون عملهم وهم حفاة الأقدام بأن الأحذية الواقية والخوذات أشياء لا غنى عنها للحماية من حوادث العمل، فالبدوى يردّ على مثل هذا القول وهو يهزّ كتفيه استهانة

واستنكار – فيقول: إذا كان مكتوبًا لي أن أموت غدًا، فلن يغيّر الحذاء أو الخوذة من القدر شيئاً.

وإن كان المواطن الكويتى العادى من سكان المدينة لا يستطيع عادة مواجهة المآسى على هذا النحو من الاستسلام للقدر الذى يوجهه به البدوى، إلا أنه يشارك البدوى لامبالاته ورفضه اتخاذ أى إجراءات وقائية، كما يشاركه الأمل في أن الفجيعة سوف تنقشع دون حاجة إلى أى تدخل من جانبه.

وكان هذا الاستسلام اليائس وقت الشدة من أشد العقبات النفسية الأساسية التى تعيّن على الأطباء مواجهتها وتخطيها في محاولاتهم لتقديم العلاج الطبى للمرضى من الكويتيين.

كانت لدينا خادمة عربية تدعى حَمْدَة تنتمى لأسرة فقيرة جميع أفرادها من الأميين، عملت في خدمة أسرتنا لمدة أربعة وعشرين عامًا ورأت من الأطباء الغربيين ومن العقاقير الطبية ما لم يتح للعديد من الكويتيين أن يروه. ولكن حتى هذه المرأة كان من العبث إقناعها باستشارة الطب إذا ألّم بها مرض. ومنذ قريب، حدثتنى والألم والحزن يعتصرانها، بأن طفلاً من أبناء أخيها يعانى من لطمة تلقاها على إحدى عينيه أدت إلى التهاب يكاد أن يفقده الإبصار بها، وألحت عائلتى أن تتوجه بالطفل على الفور إلى المستشفى الحكومى حيث يتوفر العلاج التخصصى، تحت إشراف جرّاح عيون إنجليزى، وكان من الواضح من فتور حماسها أن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث. وفي اليوم التالى سألت عن الطفل والقلق يستبد بي فكان ردها: إيزابيلا، سيكون بخير إن شاء الله، وعندما سألتها عما إذا كانت حالته قد تحسنت عن الأمس، كانت إجابتها: كلا، فالورم يزداد تفاقمًا.

ومرة أخرى بذلنا كل ما في وسعنا لإقناعها بضرورة استشارة الطبيب، وطلبنا منها أن تستخدم قدرتها على التأثير على أم الطفل حتى توافق على إرساله إلى المستشفى.

وفي اليوم الثالث، علمت من تحريات خاصة أنهم استدعوا أحد الأولياء ليتلو القرآن فوق رأس الطفل، وهي عادة كثيرًا ما يلجأون إليها في مثل هذه المواقف، وأن الأسرة على يقين من أن هذا المسلك الدينى الورع سيأتى بالتحسن المنشود. ولكن، بالرغم مما تعلقوا به من أمل، ازدادت حالته سوء، وأصبح من الواضح أن الأم مستعدة الآن للإقدام على أى إجراء مهما بلغت خطورته، وكحل يائس وأخير توجهوا بالطفل إلى المستشفى، وتم إنقاذ عينيه.

وبعد أن غادر الطفل المستشفى حدثتنى حامدة عمّا جرى وقد اهتزت مشاعرها، فقالت: لولا عناية ا لله وطبيب العيون في المستشفى لفقد الطفل قوة الإبصار بإحدى عينيه، أما رفض الأسرة السعى لعلاج الطفل حتى كادت فرصة الشفاء أن تفلت، فلم يكن له – وفقًا لطريقتها في التفكير – أدنى صلة بالموضوع.

ومن السهل عندما نرى هذه الأعداد الغفيرة التى تفد في الوقت الراهن لتلّقى العلاج في المستشفيات الحكومية بالكويت، أن ننسى أن الأمر تطلب سنوات وسنوات من الجهد والمعاناة من أجل إقناع هؤلاء القوم بالتقدم طواعية للاستفادة من العلاج الطبى الحقيقى. فمنذ عشرين عامًا، كان الخوف الشديد من الأطباء الغربيين والشك الذى لا حدود له فيهم، هما المسيطران على الكويتيين، وكانوا يرون أن ما يقوم به هؤلاء الأطباء عمل خطير، ولا ضرورة له في نفس الوقت.

وربما كان من الممكن أن تحظى الخدمات الطبية التى تقدمها الدولة بهذه المساندة القلبية من الأهالى في الوقت الراهن لولا العمل الدؤوب التى تصدت له مجموعة صغيرة من الرواد العاملين في مجال الطب الذين أسسوا مستشفى الإرسالية الأمريكية بالكويت منذ ثلاثة وعشرين عامًا، ولولا جهود من واصل رسالتهم من بعدهم، والذين لم يتوقفوا عن بذل الجهد منذ ذلك الوقت من أجل تنوير الرأى العام وإقناع الكويتيين بأهمية الاعتماد على العلاج المستند إلى العلم.

وحتى منتصف الأربعينات، عندما أنشأت الكويت أولى مراكزها الطبية التى يديرها أطباء من المصريين والسوريين كانت الخدمة الطبية الوحيدة في البلاد هى تلك التى تقدمها مستشفيات الإرسالية تحت إشراف المراقب الطبى بالوكالة البريطانية.

ومنذ مطلع القرن، كانت الإرسالية العربية للكنيسة الهولندية البروتستانتية في الولايات المتحدة هى التى تتولى إدارة المستشفيات في المدن العربية الرئيسية في الخليج العربى، والتى بدأت نشاطها الطبى والتبشيرى في مواجهة عداء شديد من جانب السكان المحليين، ولكن الأطباء البواسل الموهوبين الذين تتابع وصولهم إلى المنطقة، نجحوا بمرور الوقت في كسب ثقة الأهالى رغم كل ما يسيطر عليهم من شكوك وهواجس، ورغم ما يتفشى بينهم من جهل، ويرجع تأسيس الإرسالية نفسها إلى عام ١٨٨٩، وهو نفس العام الذى أبحر فيه مؤسسها، جيمس كانتين، من نيويورك إلى بلاد العرب.

وبدأ كانتين وصمويل رويمر في البصرة عام ١٨٩١ ثم انتقلا إلى البحرين بعد عامين، وبعد سبعة عشر عامًا أخرى أتيحت لهما الفرصة لتأسيس فرع للإرسالية بالكويت.

وشهد عام ١٩١٠ أول اتصال بين أعضاء الإرسالية الأمريكية وحاكم الكويت، عندما استدعى الدكتور بينيت، المشرف على فرع الإرسالية في البصرة في ذلك الوقت، لعلاج الشيخ خزعل حاكم المحمرة، وهي دولة مستقلة صغيرة كانت تشغل آنذاك المنطقة القريبة من مدخل شط العرب. وحدث أن قام الشيخ مبارك، شيخ الكويت بزيارة المحمرة وكان صديقًا حميمًا لشيخها خزعل، والتقى بالدكتور بينيت أثناء الزيارة. ويبدو أن شيخ الكويت خرج بانطباع طيب عن الإرسالية لأنه طلب من الطبيب أن يتولى علاج إحدى بناته، وشفيت على يد بينيت، وأدت الصداقة الوثيقة التى نشأت بينه وبين الشيخ مبارك أثناء مرض ابنته إلى ترسيخ أواصر صداقة حميمة بين الرجلين.

وبعد وقت غير طويل، وكان بينيت قد عاد إلى البصرة، توجه أحد علية القوم بالكويت بابنه المريض إلى الإرسالية طلبًا للعلاج، واسترد الغلام صحته، فاقترح أبوه وكان من ذوى النفوذ في الكويت، على الشيخ مبارك أن يمتد نشاط الإرسالية الأمريكية إلى الكويت. وهكذا تأكدت الفكرة الطبية التى كوّنها الشيخ مبارك عن عمل الدكتور بينيت بما ذكره ذلك الرجل عن شقاء ابنه، وبعد فترة وجيزة، دعا الشيخ مبارك الإرسالية لافتتاح مستشفى فى الكويت، وحضر الدكتور بينيت ومستر فان إسّ من البصرة لبحث الأمر مع مبارك واختيار الموقع المناسب للبناء، وينتصب مجمع الإرسالية الآن في نفس المكان الذى تحدد في ذلك الوقت.

وعلى امتداد عام ١٩١١، كان الدكتور بينيت والدكتور هاريسون والدكتور مايلرى يمارسون عملهم في الكويت. وفي عام ١٩١٢ كان الدكتور كالفرلى وزوجته والدكتور هاريسون هم الذين يتولون الإشراف على نشاط الإرسالية، وبدأوا في تشييد مستشفى الرجال. ورغم مغادرة هؤلاء الروّاد الكويت، إلاّ أن ذكراهم العطرة لازالت حية بين الكويتيين، لأن الآلاف ممن عانوا من الأمراض، والذين لكل منهم الدافع الذى يُشعره بالامتنان لما حظى به من رعاية ماهرة، لا يمكن أن ينسى هؤلاء الروّاد بأى حال. والواقع أن أعضاء الإرسالية كانوا من هذا النوع الذى يكرِّس كل جهده ووقته للمهمة التى يتصدى لها، ويعيشون ويمارسون عملهم في ظل أوضاع متخلفة، وفي بلد يتميز بأشد أنواع المناخ قسوة وإرهاقًا في العالم كله.

ومن بين العدد القليل من الإنجليز والأمريكيين الذين أصبحوا على معرفة عميقة وإدراك صحيح لطبيعة العرب، والذين تمكنوا بإخلاصهم وتفانيهم من كسب محبة العرب واحترامهم، تبرز أسماء أعضاء الإرسالية التى جاءت إلى الخليج على رأس القائمة. وعندما كنت طفلة، كان من حسن حظى أن عرفت الدكتور مايلرى الذى ظل سنوات عديدة، ورغم جنسيته الإنجليزية، عضوًا لامعًا في الإرسالية الأمريكية، وكان هو الذى أسس أول مستوصف في الكويت عام ١٩١١، وعاش وعمل

بين الكويتيين لمدة ثلاثين عامًا. ورغم استقالته أثناء الحرب الأخيرة، ظل يقدم للأجيال الجديدة من أطباء الإرسالية خلاصة تجاربه التى اكتسبها أثناء حياته وعمله في خدمة العرب. وكان الدكتور مايلرى يتميز بنزعته الإنسانية الآسرة والإيمان الدينى العميق. وفي خضم المشاق والصدمات التى ربما أصابت البعض بالإحباط واليأس، والتى بددت صبر العديد ممن كانوا أقل منه قدرة على التصدى والصمود، كان السخط لا يجد إليه سبيلا، وكان على استعداد لأن يستمع للغير، ويصغى لآرائهم، وأن يقدم المساعدة لكل من يحتاج إليها. كما كان يتميز بذلك النوع من التفانى الذى لا تجده إلا فيمن لا تتحقق آماله إلا بممارسة العمل الذى اختاره بنفسه. وكانت زوجته التى رافقته منذ الأيام الأولى لمجيئة إلى الكويت، نِعمَ العون والرفيق على الدوام. ومازالت ذاكرتى تعى منذ أيام الطفولة، ما كان يجرى أثناء صلاة الصباح في كنيسة الإرسالية حيث تعزف مايلرى على الأرغن، بينما يتلو زوجها المواعظ من مخطوطات يعرف ما فيها كل المعرفة ويحبها كل الحب.

شهد الدكتور مايلرى أثناء السنوات التى قضاها في الكويت من تاريخ هذه البلاد ما هو أكثر بكثير مما أتيح لأى إنجليزى قبله، وحتى ذلك الوقت أن يشهده. وكان وجهه يشع غبطة وابتهاجا وهو يروى القصص عن الشيخ مبارك، أو عن الكابتن شكسبير، الذى تبلغ شجاعته حد التهور، وكان مايلرى قد تعرف به عندما تولى منصب الوكيل السياسى. وفي إحدى المناسبات طلب الملك الراحل ابن سعود المشورة الطبية من الدكتور مايلرى بعد أن طبقت شهرته الآفاق، وكان ذلك في عام ١٩١٤ عندما زحف سلطان نجد إلى الأحساء على رأس قوة يتراوح عدد أفرادها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ من المقاتلين، وأقام معسكره على بعد حوالى العشرين ميلا جنوب غربى الكويت. وفي هذه الأثناء كان عدد كبير من رجاله يعانون من مرض الملاريا، فبعث ابن سعود إليه برسالة عن طريق الشيخ مبارك، يطالبه فيها بالحضور إلى معسكره لعلاج الجنود. وأعدّ الشيخ مبارك أحسن ما لديه من عربات ليستقلها الدكتور مايلرى

إلى المعسكر السعودى الذى مكث به ولم يغادره إلا بعد أن اطمأن على ما صارت عليه الأوضاع. وتأثر الملك السعودى تأثرًا بالغا بما أبداه هذا الطبيب من إخلاص وبذل وعطاء. وكانت زيارة الدكتور مايلرى للمعسكر نقطة البداية للصداقة قامت بين ابن سعود والإرسالية الأمريكية واستمرت حتى وفاته.

وكان الدكتور مايلرى يروى لنا كيف كان يمتطى الحصان أو الحمار عندما جاء إلى الكويت لأول مرة، حتى يتمكن من الوصول إلى مريض في المدينة، في وقت كان ظهور رجل أوروبى (أبيض) أمرًا مزعجًا وغير مألوف بالنسبة للكويتيين، وكثيرًا ما كان الناس يقذفونه بالحجارة. ولكن بمرور الوقت أخذ العرب يقتنعون شيئًا فشيئا بالدوافع المجردة من المطامع الكامنة وراء نشاط الإرسالية، وأصبح الكثير منهم يرى في الدكتور مايلرى صديقًا جديرًا بالثقة ويمكن الاعتماد عليه عند الشدائد. وبلغت ثقة القوم فيه الدرجة التى أصبح يسمح له معها بدخول أجنحة النساء في عديد من المنازل بالكويت لتقديم العلاج الطبى، وأصبح يقابل دون أى تحفظ أو ارتياب في أى مكان يحل فيه، حتى تلك التى جرت العادة على حظر دخولها على الزوّار من الرجال.

وفي شهر يناير ١٩٥٢ وبينما الدكتور مايلرى يقوم بزيارة للكويت، توفى في نفس المنزل الذى عاش به لفترة طويلة أثناء عمله كطبيب في الإرسالية، ودفن في المقبرة المسيحية الصغيرة في الكويت، ونُقشت على قبره لوحة جاء فيها: "إبن الإنسان، لم يحضرْ ليسعفه أحد .. وإنما جاء ليُسعِف".

وما أكثر ما بذله الدكتور مايلرى من جهود على امتداد سنوات عمله الصبور والمنزه عن الغرض في الكويت من أجل توثيق عرى الصداقة بين الكويتيين والبريطانيين والأمريكيين. وفى الوقت الذى كان أبناء البلاد يشكون فيه في كل أجنبى، ضرب المثل في الاستقامة والأمانة، وكان هذا المثل الذى استخدمه الكويتيون للحكم على الأجانب إلى حين. وهو الذى مهد الطريق – بكسب ثقتهم واحترامهم – لقيام العلاقات الطبية التى تسود الآن بين العرب والجاليتين البريطانية والأمريكية.

ومنذ تأسيس فرع الإرسالية بالكويت، لم يكف الدكتور مايلرى ورفاقه عن العمل من أجل اقتناع السكان المحليين بجدوى وفعالية الطب الغربى، وضرورة توفر العناية الماهرة والتدخل الفورى لمواجهة الأمراض التى لا حصر لها التى تعصف بسكان المدينة والصحراء على السواء نتيجة للفقر والقذارة. وعندما فشى في الكويت وباء الجديرى الخطير في عام ١٩٣٦ كان الكثير من العرب يخشون الحقن والمصل، فكانوا على استعداد للاستسلام لما يأتى به القدر ويفضلون ذلك على السماح لأنفسهم أو لأبنائهم بالحقن والأمصال. وإن كانت الأم الكويتية تتوجه اليوم، وبملء اختيارها من أجل حقنه بالمصل، فهذا التطور لم يتحقق إلا نتيجة لأربعين عامًا من العمل والتنوير والتعليم من جانب مستشفيات الإرسالية.

والإرسالية تدير الآن مستشفيين، إحداهما للرجال والأخرى مخصصة للنساء. والعلاج بهما متاح لكل من يحتاج إليه. ويدفع المرضى تكاليف العلاج كل حسب قدرته. ونظرًا لأن العديد من المرضى من البدو لا يستطيعون أن يدفعوا شيئًا، تقوم مستشفيات الإرسالية كل عام بعلاج عدة آلاف من الفقراء بالمجان.

وهناك في الكويت الآن مستشفى جديد للإرسالية قيد البناء، يحمل اسم مستشفى مايلرى التذكارى. والدكتور مايلرى جدير حقًا، بأن يُطلق اسمه على إحدى المستشفيات. وفي شهر نوفمبر ١٩٥٤ قام فخامة الشيخ (السير) عبدا لله السالم والدكتور ل. ر. سكدر الرئيس الحالى لمستشفيات الإرسالية بالكويت، بوضع حجر الأساس للمستشفى الجديد، وعبّر الشيخ في الخطاب الذى ألقاه بهذه المناسبة عن سروره لما يشاهده من مواصلة الإرسالية الأمريكية أداء دورها الذى بدأه الدكتور مايلرى أيام جده الشيخ مبارك.

الفصل الثامن
المرأة الكويتية

الفصل الثامن
المرأة الكويتية

إن كانت الفرصة لا تتاح للرجال البريطانيين إلا للتعرف على الرجال من أهل الكويت، فالمرأة البريطانية تتميز بالفرص المتاحة لها للقاء الرجال والنساء على السواء، والمشاركة في الحياة الاجتماعية الخاصة لكلا الجنسين، وذلك بالطبع بأن تحظى بالقبول من جانب العرب أهل البلاد.

وفي عديد من المناسبات تمكنت من زيارة نساء المدينة في بيوتهن، وأن أدقق النظر في حياة العزلة التى يعشنها وراء جدران الحرم Haram العالية. فبيوت سكان المدينة الموسرين تُبنى دائمًا بحيث تشتمل على بهوين منفصلين، أحدهما يشكل هو والحجرات المحيطة به، الحرم أو جناح النساء في البيت، بينما يشكل الآخر الديوانية أو جناح الرجال. ولكل من الجناحين بابه الرئيسى المستقل، وباب الحرم يصمم دائمًا بحيث لا يمكن للعابر أن يرى ما بداخل البهو، حتى وإن كان الباب مفتوحًا. وغالبًا ما تلتف الردهة الموصلة إلى الداخل حول ركن قائم الزاوية، وإلا وضع ستار عازل داخل الباب. وهذا التصميم، إلى جانب ضمانه لخصوصية كل جناح وعزلته، يُقصد به أيضًا إبعاد الأرواح الشريرة، لأن هذه الأرواح تتحرك في خط مستقيم، ولا يمكنها الدوران حول الأركان.

وكانت الأجنحة التى استقبلت فيها في مختلف البيوت مؤثثة بما يتناسب مع ثروة رب البيت. فتجار المدينة الذين تأثروا بالنظرة الغربية يقومون الآن بتجهيز بيوتهم بالأثاث المنجد المستورد من أوروبا، ويعلقون الستائر، كما نرى في غرف زوجاتهم أسرة خاصة وستائر من طراز أوروبى، ومناضد مخصصة لارتداء الملابس تصطف عليها قوارير العطور وأوانى مستحضرات التجميل الأوروبية. ولكن مازال هناك عديد من كبار السن من النساء من يفضلن الجلوس على الأرض كما اعتادوا طوال

حياتهم. ورغم ما تحت تصرفهم من غرف مزودة بالمقاعد الوثيرة، إلا أنهن لا يجلسن عليها إلا عند استقبال الزوار، ويفضلن الاسترخاء على حشية (مرتبة) تُبسط على الأرض في غرفهن الخاصة، وفي عدة مناسبات كانت الشابات المتأثرات بالحياة العصرية تستقبلنني أنا وأمي في غرفة الجلوس، وتجلس هي نفسها على مقعد وثير له ذراعان، بينما تجلس أمها، وهي كبيرة نساء المنزل وربة البيت على الأرض عند قدميها.

ومع بداية انتشار التعليم بين البنات في السنوات العشر الماضية، شبّ جيل من الفتيات صغيرات السن يتميز باللباقة الاجتماعية واتساع دائرة اهتمامهن لدرجة تفوق ما كانت عليه الحال مع الأجيال السابقة التي لم تتح لها أي فرصة للتعلم، أو التعرف على الأفكار الجديدة من خلال الكتب والمطبوعات. والزوجات العربيات الشابات اللاتي نلتقي بهن في المدينة اليوم يرتدين الملابس الأوروبية الطراز، وهو تغيير يجسد مدى تأثير المدرسات السوريات والفلسطينيات اللاتي قمن بتعليمهن كيف يصنعن ويرتدين الأزياء الأوروبية. كما تتوق بنات هذا الجيل الجديد من الفتيات أيضًا إلى التعرف على أحدث المبتكرات وما شابه ذلك من المجلات المتخصصة في شئون المرأة والتي تصدر في مصر وغيرها من البلدان التي تأثرت بالاتجاهات الأوروبية.

والمضيفة العربية ليست أقل كياسة وخبرة من قرينها من الذكور عند استقبال الزائرات والترحيب بهن، والواقع أن كرم المرأة العربية عندما تستقبل الضيوف يتخطى كل الحدود، لدرجة تتحول معها الزيارة العادية إلى وليمة عامرة بالطعام والشراب.

وكانت أحاديثي أثناء زيارة لبيوت هؤلاء النساء العربيات تدور عادة حول قضايا المرأة الأساسية، والأطفال، والمطبخ، وشراء اللوازم من الأسواق، وحياكة الملابس، وكثيرًا ما كانت الأسئلة توجه إليّ عن طريقة صناعة أشياء صعبة في البيت الإنجليزي. وفي بعض الأحيان كانت الزائرة تشعر بالحرج نتيجة للطبيعة الشخصية

المفرطة للسؤال، لأن النساء العربيات يناقشن أدق المسائل بكل صراحة.

وذات مرة، ذكرت لبعض الكويتيات أننى التقطت صورًا فوتوغرافية لبعض الأماكن القديمة الرائعة في مدينتهم، فبدى عليهن التبرم وضيق الصدر لاهتمامى بماضى الكويت وسألننى عمّا يدعونى لتبديد الوقت بلا طائل جريًا وراء قدم ولّى زمانه، بعد أن أصبح بالكويت الكثير مما هو جديد وجميل. ورددت عليهن موضحة أن بعض المبانى القديمة الرائعة على وشك أن تختفى وأنه من المؤسف ألاّ نقوم بتسجيلها قبل أن تندثر إلى الأبد. وما أن تفوهت بهذه العبارة حتى تعالى صوت إحدى بنات الأسرة – وهي فتاة في حوالى السادسة عشرة من عمرها وحصلت على قسط طيب من التعليم – وصرخت قائلة من أعماقها: فلتندثر! ومن ذا الذى يريدها الآن؟ إن الكويت الجديدة وليست القديمة هي الجديرة بالإعجاب.

وكان من طبيعة الأشياء، ومع انتشار الأفكار الحديثة بين النساء المتعلمات أن يحصلن بالتدريج على قدر أكبر من الحرية في حياتهن اليومية. وتشهد المرحلة الراهنة بالفعل نوعًا من التخلص من المعتقدات المتزمتة التى كانت تحكم سلوك الأنثى فيما مضى. فمنذ وقت غير بعيد، كانت نساء العائلات من الفئات العليا لا تغادرن بيوتهن بأى حال إلا عند زيارة قريباتهن من الإناث، وربما خرجن مرة واحدة في السنة، في فصل الربيع، للنزهة في البادية. وعندما يحدث ذلك، كانت النساء – ولازلن– يتوارين وراء حجاب سميك. ولم يكن مسلكًا مقبولاً من سيدة على مكانة اجتماعية رفيعة أن تتوجه إلى الأسواق لشراء ما تحتاج إليه، فهذه مهمة لا يمارسها إلا الخدم. أما اليوم، فتتوجه الشابات إلى المتاجر التى تعج بها الأسواق بل وإلى محلات الخياطين والخياطات لتفصيل بعض أزيائهن. ومع وفرة السيارات بالكويت في الوقت الراهن تستطيع أغلب العائلات الموسرة أن تخصص سيارة لاستخدام نسائها، فيسهل عليهن مغادرة البيت والتجوّل بالسيارة للاستمتاع برؤية المشاهد والمعالم المختلفة في المدينة وضواحيها. كما أخذ بعض التجار ممن تأثروا بالأفكار الغربية يصطحبون

زوجاتهم الآن لقضاء فصل الصيف خارج البلاد، وعادة في لبنان. وأعرف سيدة كويتية رافقت زوجها من وقت قريب في رحلة إلى لندن حيث يتلقى ثلاثة من أبنائها التعليم في المدارس البريطانية العامة. وعندما تسافر النساء الكويتيات إلى الغرب، نجدهن يطرحن الحجاب جانبًا ويتصرفن وفقًا للعادات الغربية.

وكان نظام البردة Burdah وهو الحجاب الذى تتوارى النساء خلفه عن الرجال، والذى عشن في ظله أجيالاً عديدة وسيلة لحماية سيرة زوجة الرجل وابنته، والحفاظ عليهن بعيدًا عن الأذى والمغريات. وكان أبشع ما يمكن أن يؤخذ على تصرفات النساء وسلوكهن هو أن تصبحن موضوعًا للثرثرة في المدينة، حتى وإن كان ذلك على نحو يرى نسبيًا. وإذا حدث أن تناولت الشائعات إحدى نساء أسرة عريقة وأثارت الرذاذ حولها، فهذا يعنى دمارها لا محالة. وإذا فاحت حول الشابة غير المتزوجة أوهى رائحة لفضيحة، وسواء كان ذلك حقًا أم باطلاً لا يستند إلا إلى أوهام زائفة، فربما أقدم الأب أو الأشقاء على قتلها سرًا وراء جدران البيت، ولا يسمع أحدٌ عنها شيئا بعد ذلك. والقانون هنا لا يسأل أحدًا، فمن المسلّم به أن من حق كبير العائلة أن يطهر الأسرة من أى عضو يلطخ اسمها بالعار.

وإن كنت لم أذكر أسماء النساء اللاتى قمت بزيارتهن والكتابة عنهن في هذا الفصل، فما ذلك إلا لأن ذكر هذه الأسماء بعد إماطة اللثام عن حياتهن المنزلية، سيكون حنثًا بعهد قطعته على نفسى، وانتهاكًا لما أحطننى به من ثقة.

وليست هناك في الكويت أى حركة تدعو لتحرير المرأة، ولم أسمع حتى الآن صوت أى كويتية تعبِّر عن رغبتها في السير خارج منزلها بدون حجاب. والمزايا الجديدة التى حصلت عليها النساء الكويتيات نتيجة لانتشار التعليم لم تمتد بعد إلى المجال السياسى أو الإصلاح الاجتماعي. ومن الواضح أن المرأة الكويتية لم تكن متبرمة أو ساخطة إزاء وضعها حتى أيام العزلة الكاملة التى فُرضت عليها. ويجب على غربيّ، وهو يحاول تصور مدى الضجر والتأفف الذى يمكن أن يؤدى إليه قضاء أغلب

سنوات العمر بين أربعة جدران، ألاّ ينسى تلك الأوضاع الخاصة التى جعلت الحياة في جناح النساء حياة سعيدة في أغلب الأحيان، وليس مجرد حياة يمكن تحملها فحسب. فالأسرة العربية دائمًا متعددة الأفراد، وربة الدار يلتف حولها الأطفال من كافة الأعمار، ليس فقط من أبنائها، وإنما كثيرًا ما يكون منهم أبناء البنات المتزوجات اللاتى يعشن معها، وأبناء الخادمات. ولدى كل عائلة من العائلات الموسرة عدد من الخادمات المقيمات، أو الأمات، تتعاملن معهن ربة الدار بكل المودة والعطف. ولما كان هذا هو نمط الحياة الذى تعيش في كنفه النساء العربيات، فمن الطبيعى ألا يشعرن بالوحدة، وأنا أتصور – بشكل أو بآخر – أن متعة الحياة المشتركة التى تعيشها المرأة العربية مع غيرها من النساء بين جنبات الجناح المخصص لهن في المنزل يولّد لديها قناعة عميقة بأن المرأة الغربية التى لا أبناء لها لا يمكن أن تحظى بمثل هذه المتعة في وحدتها الموحشة في منزلها، رغم كل ما تمارسه من حرية.

ويمثل البهو الفسيح الذى يتوسط جناح النساء – هو الآخر – عاملاً له أهميته في الحد من ركود الحياة خلف ستائر العزلة، ففي هذا البهو، يمكن للمرأة أن تجلس في الهواء الطلق لتستمتع بأشعة الشمس أو لتؤدى بعض أعمالها، بينما الأطفال يعلبون من حولها وعينها الحانية ترقبهم، وليس هناك منزلاً يتحتم على المرأة أن تعيش وراء جدرانه إلى الأبد، لأن العربى يؤمن بحق، أن مثل هذه الحياة لا يمكن أن تطاق.

وفى أحد الأيام، وأثناء زيارتى لسيدة تنتمى لأسرة من المراتب الاجتماعية العليا بالمدينة، أتيحت لي الفرصة لأرى بعض نماذج الحلّى والمشغولات الذهبية التى يقدمها العربى الثرى لزوجته لتزيد بها ممتلكاتها الخاصة، وليدخل البهجة على قلبها. ومنذ القدم جرت العادة على تحويل ثرواتهم إلى ذهب، بحيث لا نجد أى أسرة لديها فائض من المدخرات إلا وحولتها إلى مجموعات من الحلى الذهبية التى تستخدمها نساء الأسرة للتزين في مناسبات خاصة.

وتلبية لطلبى، أحضرت مضيفتى الكنوز من صندوق مغلق من الصفيح، ووضعته حيث نجلس على الأرض، وأخذت تلقى بمحتويات الصندوق قطعة بعد الأخرى، إلى أن تشكل كوم من الذهب البرّاق أمامنا. فكانت جميع القطع كبيرة الحجم جميلة الصنع لدرجة مذهلة، منها قلادات من العملات الذهبية التركية، وبروشات ومشابك من الذهب المطعم بالفيروز، مثل تلك التى تضم بها العروس جدائل شعرها، وزنانير (أحزمة) من الذهب الخالص يتكون كل منها من عدد من الصفائح، وترتبط ببعضها البعض بوصلات سهلة الحركة، وكانت هذه الحلى والمجوهرات من الطراز القديم، من صنع الحرفيين المحليين. ولكن كان هناك بالإضافة إليها قطع أكثر حداثة جُلبت من الهند، ومنها قلادات متقنة الصنع على شكل فراشات موشاة بالياقوت، وأساور عريضة مزخرفة بالياقوت واللؤلؤ. ورغم التاريخ القديم والممتد للعادة الشائعة بين العرب بتحويل الثروة إلى ذهب، إلاّ أن الأغنياء منهم لم يكونوا يشترون اللؤلؤ أو الأحجار الكريمة لزوجاتهم، ولم يحدث إلا خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة أن أقبل الشيوخ والتجار على شراء مجموعات الحلي المطعمة بالجواهر من الهند، كما بدأ القليل منهم تقديم القلادات الموشاة باللؤلؤ كهدايا للزوجات. ومنذ قريب بدأ بعض الرجال يحيطون أصابعهم بالخواتم المرصعة بالماس. والنساء من العائلات الموسرة لا يستخدمون الحلي المصنوعة من الفضة في زينتهن، وإنما يقتصر ذلك على البدويات وحدهن نظرًا لعدم قدرتهن على امتلاك المشغولات الذهبية، ولكن هذه الحلى الفضية لا تخلوا من جمال خاص، وكثيرًا ما تكون مطعمة بالفيروز.

وعندما سألت مضيفتى عن المناسبات التى تُستخدم فيها هذه الحلى الثمينة الجميلة، فأجابت بأنها تقدمت في السن الآن ولم تعد لديها أى مناسبة تتزين فيها بالذهب، ولذلك يظل هذا الكنز من المجوهرات دفينًا في صندوقه المغلق، عامًا بعد عام، إلى أن تنتقل في الوقت المناسب إلى الجيل اللاحق، على نفس النحو الذى انتقل به جانبٌ منها إلى مضيفتنا نفسها. ولكن ليس لدى السيدات العربيات أى غضاضة في

أن تُقرض خادمتهن الأمينة والحائزة على ثقتها بعضًا من هـذه المجوهـرات بمناسـبة زفاف سيجرى في أسرة الخادمة. ففي مثل هذه الحـالات لا ترفـض السـيدة الكويتيـة عريقة النسب أن تقرض بعض حليها لتتزين بها العروس غير القادرة أثناء الحفل.

وبعد هذه التجربة بوقت غير طويل، أتيحت لي الفرصـة لأشـهد عروسًـا يـوم زفافها وهي تتزين بحلى اقترضتها أسرتها وفقًا لهذا العرف.

وأثناء مرورنا بمنزل يقيم به أحد الأصدقاء القدامـى مـن العـرب ينتمـى لمرتبـة اجتماعية متواضعة، حيانا الرجل، وبعد تبادل كلمات المجاملة أنبأنـا أن ذلـك اليـوم هو يوم زفاف ابنته، وأنه يسعده هو وأسرته ألا نرفض دعوته لدخـول منزلـه والمكـوث فيه فترة، واقتادونا إلى غرفة ضيقة للغاية في أقصى البهو، أُعدّت للعـروس وعريسـها. وكانت الغرفة في قمة النظافة والزخرفة، وعلى الأرض حشيات جديدة زاهية الألـوان، بينما يتدلى ستار أبيض عند أحد جانبى الغرفـة ليحجـب مـا وراءه. وعلمنـا أن سـرير العروس هو الذى يتوارى وراء الستار فإنه يتكون من حشية مدّت على الأرض وبطانيـة ولحاف جديدين.

وعندما سألنا عن الابنة التى سيتم زفافها في ذلك اليوم، وهي فتاة خجولـة في حوالى السابعة عشرة من عمرها، أخبرونا أنها تجلس مع النساء في غرفة أخرى، وهي تبكى خوفًا.

والفتاة العربية التى لم تتزوج بعد تعيش محجبة ومتواريـة وراء الجـدران منـذ سن البلوغ فصاعدًا، وعندما يتفق والدها ووالدتها على زواجها، فكثيرًا مـا يكـون ذلـك وهي لا تزال في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها. وربما وقع اختيارهما علـى زوج لم تشاهده الفتاة من قبل، وفي هذه الحالة نجدها تستقبل ليلة الزفاف وقد اسـتبد بها القلق والانزعاج والرهبة، وخاصة إذا كانت الفتاة من أسرة متواضعـة لم تتـأثر بعـد بالأفكار الجديدة التى بدأت في تغيير بعض العادات والتقـاليد بـين أهـل المـدن، ومـن المتوقع بالطبع أن تبدى العذراء شيئًا من الخجل والاحتشام قبل زفافهـا، وأن تتظـاهر



عروس بدوية في لبس الزفاف

بقدر من التمنع، ولكن هنـاك الكثـير مـن الحـالات التـى تكـون فيهـا دمـوع العـروس ورهبتها وهي تتخيل ما سيحدث ليلة الزفاف صدى لمشاعر حقيقية تسيطر علـى كـل كيانها.

واتجهت أمي وأنا معها، إلى الغرفـة المطلـة علـى الجـانب البعيـد مـن البهـو حيث تنتظر العروس، فوجدناها ترتدى أفخـر ثيابهـا، وإن جلسـت منزويـة في أحـد الأركان وهي في حالة تدعو إلى الرثاء. وعندما اقتربنـا منهـا أخفـت وجههـا عنـا، ولم تنبس ببنت شفة.

وكـان الوالـد والوالـدة، وبعـد التوصـل إلى الاتفـاق المناسـب مـع زوج ابنتهمـا المرتقب، قد انتهيا من الإجراءات الرسمية لعقـد القـران (والتـى لا يـلزم فيهـا حضـور العروس)، وحصلا على قسيمة الزواج من القاضي. ولم تخطر العروس البائسة بما قـرر لها إلا في اليوم نفســه. كـانت تعـرف بـالطبع أن ثمـة زواج تتخـذ الإجـراءات لإبـرام عقده، ولكنها لم تُحط علمًا بأنباء الإجراءات الرسمية التى فرغوا منهـا وأنهـا سـتلاقى زوجها تلك الليلة، إلا صباح اليوم نفسه.

وكانت أم العروس والنساء اللاتى أقبلن مـن منـازلهن لتقديـم يـد العـون، قـد أمضوا النهار كله في إعداد العروس، ففي هذه المناسبة تستحم العروس ويُصفف شـعرها بالزيت وترتدى ملابسها بمسـاعدة قريباتهـا. وكـان شـعرها مصففًا في عـدة جدائـل، ويلمع بما ضُمِّخ به من زيت، بينمـا النقـوش السـوداء تغطـى يديهـا وقدميهـا (كـانت الحنة هي التى تُستخدم لهذا الغرض فيمـا مضـى، أمـا الآن فحلـت محلهـا الأصبـاغ السوداء لرخص ثمنها). وكانت عيناها تلمعان وحولهما هالتـان مـن الكحـل، والطـلاء الأحمر يلون شفتيها، ورائحة العطر تفوح في كافة أركان الغرفة.

وكانت هناك نساء أخريات منهمكـات في الاسـتعداد للحفـل الـذى سيُقام في المساء، وكان جميع الأقارب والأصدقـاء مدعويـن لتنـاول العشـاء، وبعـده يـأتى الغنـاء والرقص. وكانت الجانب غير البهيج في كل ذلـك بالنسـبة للمشـاهد الغربـى، هـو أن

الجميع كانوا يستعدون ويتواثبون للاستمتاع إلى أقصى حد بينما الفتاة البائسة – وهي الذريعة التى لولاها لما أقيم الحفل – تنتظر مثل الحمل الوشك على أن يُذبح. وهي تترقب في خوف وتوتر ما يحمله لها الليل.

وفي الليلة المحددة للعروس، يتوجه العريس وفي صحبته كل أقاربه من الذكور الذين تجمعوا في منزله، في موكب حاشد، إلى بيت العروس، ومن المشاهد المألوفة في شوارع الكويت أن ترى في المساء عريسًا والمجموعة المتلفة من حوله في طريقهم إلى حيث يُحتفل بالزفاف. والمشاركون في هذا الموكب يحملون المصابيح، أما العريس نفسه فيتهادى في مقدمة الركب وعلى جانبيه أقاربه الأكبر سنًا من الذكور. والجميع يرتدون ثيابًا جديدة ويشقون طريقهم في خطى رزينة على إيقاع الطبول التى يأتى حاملوها في مؤخرة الركب. وغالبًا ما يتعالى صوت المجموعة المرافقة للعريس بالأغانى وهم يصفقون مع دقات الطبول. ومنذ قريب، شهدت موكب زفاف يركب المشاركون فيه السيارات متجهين إلى منزل العروس، فيتجمع المدعوون في ثلاث أو أربع سيارات، وفي أعقابهم سيارة أخرى مكشوفة تحمل ثلة من قارعى الطبول، وأغلب الظن أنه لن يمضى وقت طويل حتى تصبح المواكب التقليدية سيرًا على الأقدام من عداد الماضى.

وجرت العادة أن يستقبل كلٌ من العريس والعروس – كلٌ في مكانه – الأصدقاء من جنسه بعد ليلة الزفاف، والعريس يمكث داخل المنزل لمدة ثلاثة أيام بعد الزفاف لاستقبال الضيوف، يعد المنزل أثناءها لاستقبال من يرغب في الحضور للتهنئة.

وبعد يومين توجهنا مرة أخرى لزيارة هذا البيت الذى شهد حفل الزفاف فاستقبلتنا أم العروس مرحبة ورفعت أصبعها أمام شفتيها ترجونا التزام الصمت وهي تقودنا إلى الطرف القصى من البهو بعيدًا عن غرفة العروس. ثم قالت معتذرة أننا جئنا مبكرين إلى حدٍ ما، وأن ابنتها مازالت في خلوة مع زوجها، ولكنها أدخلتنا غرفتها الخاصة وبدأت تروى لنا كل التفاصيل التى شهدتها طوال الليلتين اللتين أعقبتا آخر لقاء لنا.

في ليلة الزفاف جرت العادة بنساء الأسرة أن يتجمعن في غرفة ملاصقة لغرفة العروس، حيث يجلسن وهن ينصتن في شغف وشوق لأى صوت يمكن أن يصل إلى مسامعهم من وراء الباب المجاور، وتستبد بهم نشوة بدائية لا سبيل إلى مقاومتها وهن ساهرات على هذه الحال، وكأن ما يفعلن إنما هو ركن هام من أركان المتعة في ذلك المساء. وقصّت الأم علينا كل ما سمعت وحدست ليلة الزفاف.

ونظرًا لأننا لم نتمكن من مقابلة العروس في ذلك اليوم، قمنا بزيارة أخرى في اليوم التالى. فوجدناها هذه المرة مستعدة للقائنا وهي ترتدى أفخر ثيابها، وتتزين بكنز من الحلى الذهبية، اقترضته أمها من زوجة أحد الشيوخ الذين يحيطون أسرة العروس برعايتهم، وكأن أجمل الحلى الخاصة التى لا تتزين بها إلا عروس، ذلك الإكليل الذهبى الذى يبلغ حجمه حجم كف رجل والذى تضعه العروس كالتاج فوق رأسها. وكانت مجموعة من العملات الذهبية ضمت لبعضها البعض في خيط متصل فوق قطعة من نسيج، تتدلى على الصدر، بينما تمسك بكل جديلة من جدائلها المتدلية وراء كتفيها أنشوطة من الذهب، وبالإضافة إلى كل ذلك كانت أذنا العروس تتحليان بقرط وحلقة ذهبية تتدلى من ثقب بالأنف، بينما تحيط برسغيها وذراعيها مجموعة من الأساور الذهبية.

كانت العروس رابطة الجأش تمامًا عندما رأيناها في ذلك اليوم، واستقبلتنا في هدوء وقد تجددت ثقتها بنفسها، بل ووافقت على الخروج إلى البهو لتلتقط لها بعض الصور الفوتوغرافية وهي في أحلى ملابسها وأروع مجوهراتها.

وزواج ابن العم من بنت العم من العادات المرعية والشائعة بين البدو وأهل المدن على السواء في الكويت. والإبنة الكبرى مقدر لها، كأمر طبيعى أن تكون زوجة لابن عمها الأكبر، وأما إذا لم تكن راغبة في ذلك – كما يحدث في بعض الأحيان – فهي لا تستطيع أن تتزوج من شخص آخر إلا بموافقة صريحة من عمها.

والفتيات العربيات يضعن الحجاب منذ البلوغ، وينسحبن للتوارى في الحرم،

أو جناح النساء منذ ذلك الوقت تعامل كـامرأة كاملـة النضـج وليـس كطفلـة. أمـا قبـل البلوغ فالفتيات الصغيرات لا تتحجبن ولهن الحق في اللعـب في الطرقـات والاختـلاط بالفتية الصغار. وكثيرًا ما يكون ابن العم وابنـة العـم اللـذان تتخـذ إجـراءات زواجهمـا عندما يحين الأوان غير غريبين بالنسبة لبعضهما الآخر. لأنه رغم أن الفتاة قد لا تتـاح لها الفرصة لرؤية عريسها منذ أن بدأت وضع الحجاب، إلا أن الشاب غالبًا ما تكـون له ذكرياته عن ملامح وجه فتاته وشخصيتها منذ أن كانت تشاركه اللعب في الطرقات منذ وقت غير بعيـد. كمـا يـؤدى تذكّر الفتـاة بدورهـا للشـاب الـذى سـتقترن بـه إلى التخفيف من وطأة الرهبة التى تواجه بها ليلة الزفاف.

ومن الواضح أن نظام زواج ابن العـم مـن ابنـة العمـة عـادة ملائمـة ومفيـدة في مجتمع لا تتاح فيه أى فرصة للشاب أو الشابة للقاء أو اختيار الشريك. وهو عامل مهم أيضًا في المحافظة على تماسك الأسرة، ويمنع – في حالة المراتب العليـا مـن القـوم في المدينة والريف – الزواج من خارج فئتهم الاجتماعية. ومن الطبيعى ألا يتوفر دائمًا عدد من أبناء العم يكفى للزواج من كل بنات العم، أو العكس، ولكـن العـرب بلغـوا درجـة من الخصوبة والقدرة على الإنجـاب بحيـث لا يمثـل هـذا الوضـع أى مشـكلة يتعـذر حلها، إذ يتم الزواج – عند قيام مثل هذا الوضـع – عـن أقـارب يربطهـم ربـاط أبعـد لدرجة أو أخرى من الرباط الذى يجمع بين ابن العم وابنة العمة، وفي جميع الأحـوال فهم لا يعدمون وسيلة إلى التوصل للشريك المناسب حتى وإن كان من أطراف الأسرة.

ولعل في قصة خادمتنا حامدة ما يجسد لنا بكل وضوح العواقب الوخيمة التـى يمكن أن يؤدى إليها الخروج على العرف المألوف في مسألة الـزواج. فعندمـا كـانت في حوالى السادسة عشرة من عمرها، اتخذت أسرتها الإجراءات المعتادة لزواجها من ابـن عمها. ولكن حامدة قالت إنها لا تريده، وهي تتذكر وجهه الذميم بندوبه الكريهة التى خلفها إصابته بالجدرى. وصدم الرجل لهذه الطعنة التى زلزلت كبرياءه، ولم يُبـد أى استعداد للتنازل عن حقه التقليدى المتعارف عليه بزواجه منها، وألح على أسرتها بأن

تفعل كل ما في وسعها لإقناع الفتاة بالكف عن الرفض. ولكن ما كـان لشـيء أن يثنـي حـامدة عمـا اسـتقر تفكيرهـا عليـه. وبعـد أن تكـرر رفضهـا لكـل مـا بُـذل معهـا مـن محاولات، قرر ابن عمها أن يلجأ إلى أسلوب أشد عنفاً. وذات ليلة كمن لها في طريـق يعلم أنها لابد أن تمر بـه، وهاجمهـا مـن الخلـف، وأطلـق عليهـا رصـاص مسدسـه. وأصيبت حـامدة في ظهرهـا، ونقلـت علـى الفـور إلى مستشـفى الإرسـالية الأمريكيـة، وشفيت من إصابتها بعد عدة أسابيع، وفى خاتمة المطاف تمكنت من الزواج من رجل شعرت أنه أقرب إلى وجدانها.

ولكن قصة حامدة لم تتـم فصولهـا عنـد هـذا الحـد، فنتيجـة للإصابـة التـى لحقت بها في ظهرها، فقدت القدرة على الإنجاب. وكان كل الأصدقاء وأهـل الجـيرة يعرفون أنها تتحرق شوقاً إلى طفل. وفى إحدى الليـالى، تُـرك رضيـع حديـث الـولادة على باب مسكنها لتجده في الصباح. وليس خافيًا على أحد أن الوليد كان ابن سـفاح، ولابد أن أمه وضعته في الخفاء وقررت أن تتخلص منه، ولكن على أن يكون ذلك مـع إحاطته بأكبر قدر من الضمانات لاستمراره على قيد الحياة، فتركته في مكان هي على يقين من أنه سيلقى فيه كل رعاية واهتمام. وقد كان، وابتهجت حـامدة بالهبـة التـى حطت عليها من حيث لا تدرى، واحتضنت الطفل وعكفت على رعايته وتربيته كمـا لو كان من صلبها حقاً، حتى أصبح الآن فتى يافعًا في العشرين من عمره.

والشباب العربى الذيـن يشـعرون أنهـم بلغـوا سـن الـزواج لا يطيقـون صـبرًا، ويشرعون في البحث عن زوجة لإثبات قدرتهم علـى الإنجـاب. ولم يكـن ابـن حـامدة بالتبنى ليشذّ عن هذه القاعدة، ولكن المشكلة المعقـدة والعسـيرة التـى واجههـا هـى أن الجميع يعرفون أنه لقيط، ولم يكن هناك من هو على استعداد لتزويج ابنته مـن شـاب مجهول النسب مهما كانت مكانة الأسرة التى شـبّ وترعـرع في كنفهـا. وأمـا الشـاب نفسه فجن جنونه، وبعد أن أعيته الحيل ولم يعـد في قـوس الصـبر منقـذ، هـبّ وراء ستار الظلام ذات ليلة واقتحم جناح النساء في منزل لا يعرفه من سكانه أحـد، وأعلـن

– لمن التفوا حوله منهم – وقد فزعوا لهذا الأسلوب الذى لم يُسمع أن أحد استخدمه من قبل للسرقة أو السلب – أنه لم يأت إلا للبحث عن زوجة. وصرخت النساء طالبات النجدة، وهرع الذكور من أبناء الأسرة إلى الحرم، وقبضوا على الفتى تعيس الحظ، واقتادوه إلى مخفر الشرطة. وبذلت حامدة، والأسى يعتصر كل كيانها، كل ما في طاقتها من أجل إطلاق سراحه، وإنقاذه من عقوبة الجلد علناً أو ربما ما هو أشد. وبلغ بها الأمر أن أعلنت أنه مختل عقليًا، وأنه غير مسئول عن تصرفاته، وبناء على ذلك تم إيداع فتاها في مصحة للأمراض العقلية. وبعد عدة أشهر سُمح لحامدة أن تأخذه إلى منزلها، ولكن بشرط أن يظل حبيسًا خلف جدرانه حتى لا يُقدم على أى عمل يكدّر الأمور.

والفتى الآن مقيد بالأغلال قعيد منزل أمه. وبعد أن كان بعيد كل البعد عن أن يوصف بالجنون، فمن المؤكد أنه أصبح شاذ الأطوار الآن، بعد أن عومل وكأنه مجنون حقاً لعدة أشهر. ومازالت السبل مسدودة أمام زواجه، ومن الواضح أنها ستظل كذلك إلى الأبد.

الفصل التاسع

الجهرة

الفصل التاسع

الجهـــــــــرة

من الأعراف السائدة بين العرب، أن ظهور النجم سهيل[1] يعنى نهاية فصل الصيف. وفي أواخر الخريف يركز الجميع أبصارهم في تمحيص وتدقيق شديدين، على الأفق الجنوبى في الساعات المبكرة التى تسبق الفجر، وما أن يلمحوا هذا النجـم حتـى تتعالى هتافاتهم (الحمد لله) ويعلنون، عن إيمان عميق، أن أشهر الصيف ولّت. ورغم ما يشيعه هذا القول من بهجـة، إلا أن الحقـائق العلميـة تدحضـه تمامًا، فـالكويتيون يحتفلون بسهيل كل عام كرمز للخلاص والخروج من الغمة، ولكن ضـراوة الشـمس لا تبدأ في الانحسار عادة إلا ابتداء من منتصف أكتوبر.

والموقف العربى من الحياة هو موقف الإذعان لإرادة ا للّه. ولكن حرارة الصيف الحارقة تبدد صبر أكثر الناس جلدًا وقدرة على تحمل المكاره، وما أن يحـل الخريـف حتى يخيم على البادية والمدينة جو من الإرهاق الشديد، يتجسد في الوجوه التى بدت بها الغصون والتجـاعيد، وفي أجسـام الماشـية والأغنـام والجمـال وقـد اعتراهـا الهـزال والضمور.

وكان صيف ١٩٤٧ يبـدو وكأنـه بـلا نهايـة، حيـث تعـاقبت أيـام الخريـف الطويلة الواحد تلو الآخـر دون أي بـادرة توحـى بانخفـاض درجـة الحـرارة، وكـانت الصحراء التى تشبعت بلهيب الشمس تكاد تومض وتضـىء، لغـزارة مـا اختزنتـه مـن حرارة، في بعد ظهر يوم من الأيام في أواخر أكتوبر، ونحن في طريقنا إلى الجهرة، تلك الواحة الصغيرة التى تقع على بعد العشرين ميلاً غربى مدينة الكويت، وكـان الطريـق الساحلى الذي يمتد فوق أرض مالحة مستوية صلبة كالخرسانة المسلحة بعد أن عبدته حركة المرور طوال أشهر الصيف. وكان من الصعب أن تصـدق أن أول الأمطـار، التـى تفكك الطمى الذى جففته الشمس سـتحول هـذا الطريـق إلى مسـتنقع يغـدر بكـل مـن

يقترب منه، ولكن اجتياز السبخة، أو المسطحات المالحة، مخاطرة يعرفها جيدًا كل من يقود سيارة في الصحراء.

وعلى طول الطريق حتى بلوغ الأراضى المالحة التى لفحتها الشمس، تمتد على الجانبين شجيرات قصيرة كثيفة الأغصان تشكل نطاقاً من الخضرة الزاهية التى تريح العيون التى التهبت نتيجة للوهج الذى لا ينقطع الذى تشعه الرمال البيضاء المشتعلة. وهذه الشجيرات التى تنبت في المسطحات المالحة هي أحد الأنواع القليلة من النباتات الصحراوية التى تزدهر طوال أشهر الصيف بحرارته القاسية، وتستمد غذاءها من الرطوبة المختزنة في الأرض المالحة، ولكن رغم ما تبدو عليه من جمال للناظرين، فهى لا تصلح كمرعى، ولا يمكن للماشية والأغنام والجمال التى هاجرت من الجنوب، ولا تعرف ما هو مالح، أن تتخذ من أوراقها الحمضية طعامًا.

في ذلك اليوم، رأينا على جانبى الطريق جثث العديد من الجمال التى نفقت بعد أن داهمها مرض مجهول أصاب الماشية في شبه الجزيرة العربية في صيف ١٩٤٦، وقد تم حرق عدد كبير من هذه الجثث منعًا لانتشار العدوى، فتحولت إلى أكوام من الرماد والعظام البيضاء.

ويمر الطريق بالقرب من الجهرة فوق تل منخفض الارتفاع يعرفه العرب باسم تل الفضيحة، وهناك أسطورة تقول إن هذا المكان شهد رجلاً وامرأة يرقدان معًا أثناء الليل، وأنهما فوجئا بظهور شرذمة من الرجال على قمة التل في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، ومن فوق هذا التل ألقينا أول نظرة لنا على بساتين النخيل في الجهرة، والتى تبدو كأخدود طويل داكن الخضرة في جوف الصحراء المترامية بلونها الأصفر المشرب بالسمرة.

وتتكون واحة الجهرة من مدينة صغيرة على حافة مساحة كبيرة من بساتين النخيل والأراضى الصالحة للزراعة، وتتوفر في آبارها مياه عذبة جديدة، وتزداد أعداد

سكان هذه المدينة الصغيرة أثناء أشـهر الصيـف نتيجـة لوفـود عـدة مئـات مـن الأسـر البدوية لضرب خيامها إلى جانب الآبار، جالبين معهم الجمال والماشية من الصحراء.

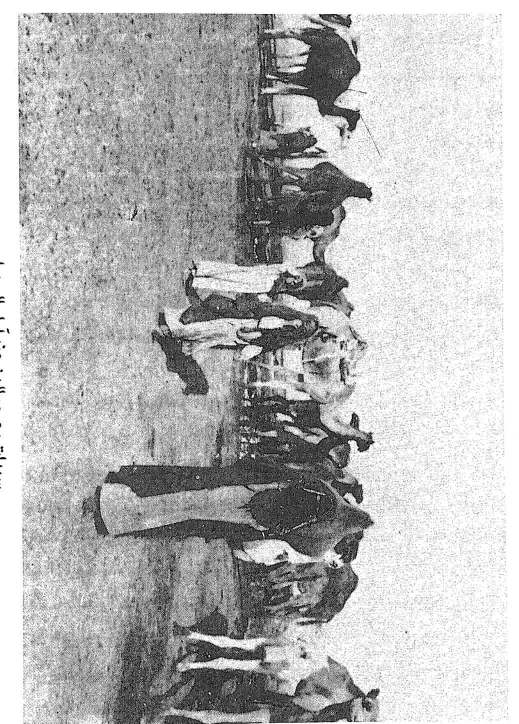
وعندما اقتربنا من الجهرة من الجنوب الغربى اتجهنا صـوب مضـارب خيـام البدو، مرورًا بالقلعة الحمراء*، وهي القلعة التى شهدت في عام ١٩٢٠ معارك من أشـد المعارك ضراوة في تاريخ الكويت، ففي هذا المكان حاصر فيصل الدويش – وهو من كبار زعمـاء القبـائل في العربيـة السـعودية – الحاميـة الكويتيـة أثنـاء هجومـه علـى أراض الكويت، وفي ذلك الوقت كـان الشـيخ سـالم والـد الشـيخ الحـالى عبـدا لله هـو حـاكم الكويت، وكان هو نفسه محاصرًا مع رجاله، فقادهم في هجومهم المعتاد البطولى وظلـوا يقاتلون إلى أن أفلتوا من حصار قـوات الدويـش الغازيـة، ويقـال إن العـدو خسـر ٥٠٠ قتيلاً عندما حاول تسلق أسوار القلعة. وتستمد القلعة اسمهـا – الحمـراء – مـن الطَفَـلْ الأسمر الضارب للحمرة الذى استخدم في بنائها، ولكن ربما كان أيضًا تخليـدًا لذكـرى ما أريق من دماء في تلك المعركة. وحول القلعة قبور للعديد ممن لاقـوا حتفهـم آنـذاك، ولكن أغلب القتلى دفنوا في مقابر حُفرت على وجـه السـرعة علـى شـكل آبـار، نظرًا لشدة الحرارة التى دارت المعركة تحت لظاها.

ومازال حصار قلعة الجهراء يمثل بالنسبة للجيل القديم من بدو الكويت أكـثر الأحداث وقعًا في نفوسهم بين الأحداث العديدة التـى تختزنهـا ذاكرتهـم، فالسـنوات المعتادة تمضى على وتيرة واحدة دون أن تتسم بما يميزها عن غيرها، ولما كان البـدوى لا يعرف التقويم، تتساقط فترات زمنية كاملـة مـن ذاكرتـه ولا يمكـن أن يذكرهـا مـرة أخرى بأى حال. ولكن عام الجهرة لا يمكن أن تنمحى ذكـراه، ومـازال أحـد المعـالم التاريخية التى يتخذها البدو نقطة البدء لحساب التواريخ الأخرى.

وعندما تجاوزت سيارتنا القلعة ودارت حول أطراف بساتين النخيـل، وصلنـا

---

* المقصود القصر الأحمر والحديث عن حرب الجهراء عام ١٩٢٠. [المترجم].



سيدات مع جمالهن عند آبار الجهراء



البدويات الكويتيات مع أطفالهن

إلى منطقة مكشوفة تنتشر بها أكوام التربة الناتجة عن عمليات الحفر الجديدة في هذه البقعة التى تقع بها إحدى المجموعات الأساسية للآبار. والتربة في الجهرة رملية هشة، وحفر بئر فيها مخاطرة ربما أودت بالعديد من الأرواح. ومنذ وقت غير بعيد ابتلعت إحدى الآبار الرجل الذى كان يقوم بحفرها، وانهالت الرمال البيضاء لتدفنه تحتها، ولم يعد ظاهرًا منه فوق السطح إلا ذراعه الممتدة إلى أعلى تطلب الغوث في صمت. وقد رأى كل من ألقى نظرة على فوهة البئر قبضة الرجل الممتدة وهو يناضل من أجل الخلاص، ولكن لم يجسر أحد على المجازفة بمحاولة إخراجه من مدفنه.

وفى ذلك اليوم، أقبل سرب من الجمال على الآبار، وكانت المنطقة المحيطة لا ينقطع عنها سيل الوافدين، وتزدحم بالحيوانات، منها التى تقف في وسط الموقع ورؤسها محنية على المزواد الجلدية، بينما تتوقف أخرى عند الدائرة الخارجية منتظرة دورها، وصبرها يكاد ينفد، بينما تتجمع تلك التى شربت حتى الامتلاء في مجموعات لمبارحة المكان عندما تتلقى الإشارة من راعيها.

وكان أبى قد جاء لزيارة الأمير هيف بن حجرف Haif bin Hajraf شيخ قبيلة عجمان الذى ضرب خيامه بجوار الآبار. ولم يكن من الصعب تمييز خيمته بين المئات الأخرى في مخيم الجهرة، فحجمها الكبير ومظاهر الرخاء تنم عن مكانة صاحبها.

وعندما اقتربنا منها بسيارتنا هبّ غلام كان يجلس منفردًا في جناح الرجال بالخيمة وخرج لملاقاتنا. وسألناه عما إذا كانت هذه هي خيمة الأمير، فأجاب بأنها هى، وأضاف أنه بدر Baddah ابن الأمير. وقبّل والدى الغلام من وجنتيه قبلات التحية، ثم دفلنا إلى الخيمة.

وأطفال البادية أكبر من سنهم الحقيقية في عديد من الجوانب، فهم يتعلمون منذ نعومة أظفارهم كيف يتصرفون مع الغريب، والضيف الذى يصل في غيبة الوالد والوالدة. ولم يكن الغلام يتجاوز الحادية عشرة، ومع ذلك، استقبلنا بكل ثقة وكأنه

مضيف يتقن فنون الضيافة وواجباتها، ومدّ لنا السجاد في الخيمة، ووضع لنا عددًا من سروج الجمال لنستند عليها.

ولكن قبل أن نتخذ مواقعنا لنجلس ظهر الأمير هيف نفسه قادمًا من خيمة مجاورة فور سماعه نبأ وصولنا. واستقبلنا بعبارات احتجاج لَبقة لمجيئنا دون إخطار مسبق، وقال: إنه لو علم أننا قادمين لكانت وليمة لائقة في انتظارنا، بينما نحن نجعله يشعر بالخجل الآن لمجيئنا إلى منزل خاوى الوفاض. وهذه الاحتجاجات هي نوع من المراسم الشائعة عند استقبال الضيوف، وردّ أبى على مجاملاته بالمثل، مؤكدًا أن لقاء الأمير فحسب هو كل ما جئنا من أجله.

ولم يمر وقت طويل على جلوسنا إلا وكان عدد آخر من الذكور من أسرة الأمير قد ظهروا في صمت وهدوء حتى لم ندرى من أين جاءوا، ودخلوا الخيمة وهم يرددون عبارة الترحيب التقليدية الرقيقة (السلام عليكم)، ثم جلسوا في مواجهتنا حول نار يغلى من فوقها إناء القهوة. وكان أطفال الأسرة أيضًا يتسللون ليجلسوا القرفصاء في هدوء وراء من هم أكبر منهم سنًا. ولكن الأمير استدار إلى هؤلاء الأطفال أثناء لحظة توقف للحديث وانهال عليهم سبًا ولعنًا وطردهم من الخيمة، فانصرفوا عابسين مقطبى الجبين، وتواروا وراء الخيمة. ولكنهم عادوا من جديد عندما تصوروا أن أحدًا لم يعد يلحظهم، واتخذوا طريقهم خلسة إلى حلقة الرجال الذين يصغون إلى ما يدور من حديث بين الأمير وأبى. وبعد لحظة، أحس الأمير بوجودهم وطردهم من جديد مع سيل من الشتائم والتحذير.

وكان المجتمعون في الخيمة يلتزمون الصمت أغلب الوقت، لأن المضيف والضيف وحدهما هما اللذان يتكلمان في مثل هذه المناسبات ولا يمكن لأى فرد من الحاضرين أن يشارك في الحديث إلا إذا طُلب منه ذلك بالاسم. وكان من بين الجمع الذى أقبل لينال نصيبًا من كرم الأمير، رجلاً أبيض اللحية هزيل البنية، ملابسه أقرب إلى الأسمال. وأدرك أبى أنه رئيس جماعة يُدعى عويد المترجى Al Uayyid-

Matragga ماتت زوجته منذ سنوات ولم يعد له في وحدته أى شوق للحياة، ولم يتبق له منها إلا المشاق. واستدار أبى نحوه ليسأله عما إذا كان قد تزوج مرة أخرى، فقال في أسى وحزن: وأنى لي أن أتزوج مرة أخرى، وأنا مفلس، والزوجة تكلف مالاً!، فقال أبى: سأعطيك ابنتى مقابل ٥٠٠ جملاً.

وقابل الجالسون دعابة أبى بموجة من الضحك، وكان اقتراح زواجي من بدوى طرفة يتكرر ترديدها بين أبى وأصدقاؤه في البادية، ولكنى كنت أخشى أن يأخذها بعضهم مأخذ الجد. وكان الثمن الذى تحدد لي باهظ بالفعل، ولكننى كنت أنزعج كل الانزعاج عندما أتصور ظهور أحد الشيوخ في يوم من الأيام أمام بيتنا ومعه ٥٠٠ جملا ليطالب بإنجاز الاتفاق.

وعندما نهضنا للانصراف وجدنا حشدًا من الأطفال الصغار يدققون النظر في صورهم التى يعكسها الطلاء الأسود لسيارتنا وكانوا يحركون أصابعهم مع انحناءات الخطوط الخارجية لصورهم فتظهر آثارها على السطح المصقول لسيارتنا والواقع أنه لم يسبق لهم أن لمسوا شيئًا على هذه الدرجة من النعومة والبريق.

وعندما خرجنا ورحنا نتلمس طريقنا بين ذلك العدد الذى لا يُحصى من خيام المعسكر الصيفى الضخم، كان الأطفال الصغار يتزاحمون لمشاهدة السيارة، ويلوحون لنا بأيديهم ونحن نمر عبرهم، ويمسكون بأطراف أرديتهم بين أسنانهم وهم يركضون وراءنا، والمخيمات من هذا النوع متشابهة دائمًا في مظهرها العام، فالمكان يعج بالأطفال والكلاب، والأرض بين الخيام تغطيها فضلات مبعثرة من الخرق البالية والقمامة، وهنا وهناك أكوام رتبت بعناية من روث الجمال، لأنه الوقود الشائع بين البدو، وتظل الحيوانات التى نفقت مطروحة بين الخيام إلى أن تلتهمها الكلاب فلا يبقى منها إلا الهياكل العظمية التى تظل ملقاة في العراء إلى أن تحيلها شمس الصيف بيضاء اللون.

وفيما بعد عندما سرنا بين أخاديد النخيل، تذوقنا طعم البهجة التى تشيعها البرودة والنباتات الخضراء في الصدور بعد ضراوة الرمال الملتهبة. وبين المساحات

الخضراء المشوبة باللون الزمردى في الجهـرة كـانت تجربتـى الأولى مـع البهجـة التـى ستغمرنى فيما بعد عندما زرت واحة الحسا.

وكان في وسط البستان الذى تجولنا به فتحة واسعة لبئر، وكانت ثلاثة حمير تعمل في رفع الماء، رائحة غادية فوق أرض قليلة الانحـدار. وعندمـا تصـل الحمـير إلى نهاية كل دورة في حركتها، كانت قرب الماء تسحب إلى حيث البكـرات المثبتـة عنـد رأس البئر، ثم تفرغ ليصب الماء وينساب في قنـوات الـرى في اتجـاه المـروج الخضـراء. وهذه المروج الخضراء أو الفالفا Affalfa هي المحصول الثانى بالنسبة للبسـتان العربـى المعروف بعدم ميله لبذل الجهد، لأنه محصول يمكن حصاده كل بضعة أسابيع طـوال فصل الصيف، ويعود إلى النمو تلقائيًا كـل عـام دون حاجـة إلى إعـادة زراعتـه، وهـذا المحصول لا يتدهور إلا بعد سبع سنوات، وعندئذ فقـط يقتلـع مـن جـذوره، وتوضـع البذور من جديد.

وقرية الجهرة تشبه العديد من الواحات المنتشرة في نجد وسـط شبه الجزيـرة العربية، ومدينة الكويت نفسها لا تعرف أخاديد النخيل أو الحدائق أو المروج، وليـس هناك حول المدينة أى واحة من الواحات التـى تعرفهـا لصحـراء، لأن اهتمـام المدينـة الرئيسى تركز منذ نشأتها على التجارة، وكل ما له علاقـة بـالبحر. ولكننـا وجدنـا في الجهرة مناخًا شبيهًا بالمناخ السائد في المدن الداخلية لشـبه الجزيـرة العربيـة. وأغلـب القرويين في الجـهرة ذوو ملامح نجدية، وقد أتوا إلى حدائقهم بنفس الأساليب البدائيـة للرى التى يستخدمها الزراع النجديون.

هكذا كانت الجـهرة منذ سبع سنوات، ولكن التغيرات التى شـهدتها الكويـت كان من المحتم أن تلقى بظلالها على الجهـرة أيضًا. واليـوم، مـع الأسـف الشـديد، أُهملت الحدائق، ولم يعد هناك من زرّاع البساتين إلا عدد ضئيل يواصل بـذل الجهـد لرعاية النخيل أو زراعة الأرض. لقد هجر قرويو الجهرة ديارهم وحدائقهم للانضمام إلى ذلك السيل من البشر المتجه إلى مدينة الكويت سعيًا وراء العمل والمال.

الفصل العاشر
صائدو اللؤلؤ
والتجارة،
وصائدو الأسماك

الفصل العاشر

صائدو اللؤلؤ والتجارة، وصائدو الأسماك

كان الوقت صباحًا قرب نهاية شهر أكتوبر، عندما وقفت أتطلع بناظرى إلى البحر فرأيت قوارب الغوص على اللؤلؤ، لأول مرة وهي راجعة إلى ديارها.

ورغم أن البحرين ظلت هي مركز تجارة اللؤلؤ في الخليج العربى لعدة قرون، إلا أن الكويت كان لها تجارها، وكانت لها سفنها التى تخرج كل عام لتمضى ثلاثة أشهر في البحر تحت لهيب الشمس الحارقة في منتصف الصيف.

ولا يمكن للغواصين أن يمارسوا عملهم إلا عندما تكون المياه دافئة، ولذلك تنطلق قوارب الغوص على اللؤلؤ كل صيف في نفس التوقيت، ثم تعود إلى ديارها كل خريف عندما تنخفض درجة حرارة مياه البحر، وتشق طريقها صوب الكويت تدفعها رياح جنوبية هادئة.

وفيما مضى، أيام ازدهار تجارة اللؤلؤ، كان شيخ الكويت يخرج إلى ضفاف اللؤلؤ في زورقه البخارى في نهاية الموسم، وعندما يبدأ أسطول الغوص رحلة العودة تدوى طلقات مدفع كإشارة لبدء السير فتتدافع السفن الكويتية في سباق نحو الميناء. وفي تلك الأيام، كانت نساء الكويت تخرجن في موكب يمشى على امتداد الشاطىء في اليوم المتوقع لوصول القوارب ويرحبن بالرجال العائدين بالغناء والتلويح بالرايات* . ولكن الشيخ لم يعد يتوجه إلى الخليج ليصدر لأسطوله إشارة انتهاء موسم الغوص، وإنما ترجع الآن كل سفينة في الوقت الذى تراه مناسبًا، وتتسلل القوارب إلى داخل الميناء الواحد تلو الآخر، دون إعلان ودون أى احتفال.

---

* ليس صحيحًا. [سيف مرزوق الشملان].

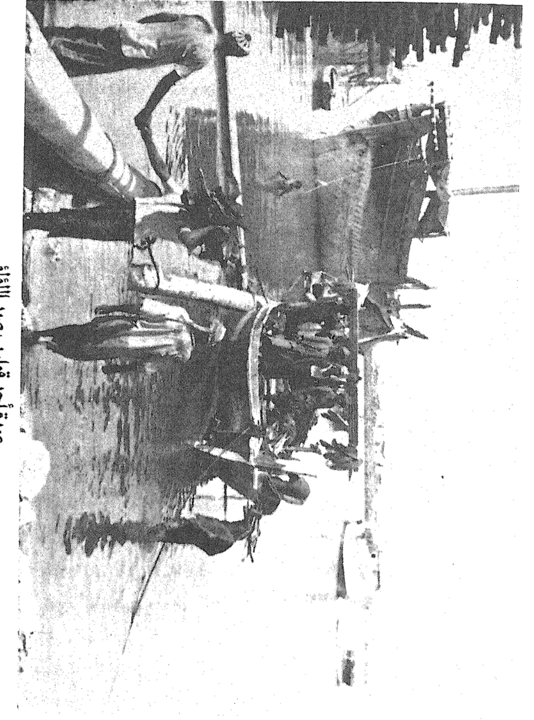
في صباح ذلك اليوم قرب نهاية أكتوبر، كانت ثلاثة قوارب تتجه نحو المرفأ، والأرصفة تغص بالرجال، بينما ترفع كل سفينة على مؤخرتها علم الكويت القرمـزى، والقوارب تقترب بأقصى سـرعة منتظرة اللحظـة الأخـيرة قبـل دخـول المرفـأ لتطـوى أشرعتها، حتى يصبح لمن يحرز منها قصب السبق بقوة اندفاعه الحق في دخول المرفـأ قبل سواه، ليتخذ موقعه في المرسى.

وكانت مجموعات من أهـل المدينـة قد بـدأت تتجمـع علـى امتـداد الطريـق الساحلى في مواجهة النقطة التى ألقت القوارب مراسيها عندها قرب الشاطىء. وكانت السفن أصغر حجمًا مما تصورت، ولم يتجاوز طـول أى منهـا الثلاثـين قدمًـا. وكـانت القوارب التى رأيتها ذلك الصباح من طراز الجالبوت Jalbut بمؤخرتها المربعة وهيكلها المحدّب. وعندما تكون القوارب في رحلتها بين مياه البحـر يتـدلى مصحـف مـن أحـد الأعمدة ملفوفًا في قطعة من نسيج نظيف، ويُرفع من مكانه كل مساء بعد انتهاء العمـل حيث يرتل منه ربان السفينة لطاقمه آيات من القرآن في صوت جهير.

ويعمل على كل قارب طاقم من البحارة يتكون حوالى من ٤٠ شـخصًا، منهـم من يغوص على اللؤلؤ ومنهم من يعمل على سطح السفينة، ولا علاقـة لعمـل كـل مـن الجانبين بعمل الآخر. وينتهى عمل الغواصين عندما تغادر سفنهم ضفاف اللؤلؤ، وعند الوصـول إلى الميـناء يمكنهـم الـنزول علـى الفـور والتوجـه إلى منـازلهم حيـث تنتظرهـم زوجاتهم وعائلاتهم.

أما بالنسبة لأفراد الطاقم فهناك الكثير من العمـل الـذى يتعـين إنجـازه قبـل التوجه إلى منازلهم، فعليهم نظافة السفينة ودهانها بالزيت، وإنزال الصارى والشـراع، وحمل أوانى المياه إلى الشاطىء. كما يتعين عليهم أيضًا سـحب سـفينتهم إلى السـاحل الرملى لترسو فوق خط ذروة المد حيـث تقضـى كـل أشـهر الشـتاء. وبعـد إنجـاز هـذه الواجبات يُسمح لهم بالانصراف.

وكان الغواصون وأفراد الطاقم الذين وصلت قواربهم منذ فترة وجيزة لا يرتدون



عودة أحد قوارب صيد اللؤلؤ

إلاّ الوزار Wazar وهو قطعة من قماش ملوّن لا تستر إلا العورة، على نحو ما جرت بهم العادة أثناء العمل. وكان العديد منهم من السود، وظهورهم عارية يغمرها العرق وتلمع كالأبنوس في ضوء الشمس. وكان البعض الآخر منهم من ذوى البشرة السمراء أصلاً، ولكن لون هذه البشرة تكاد تقترب الآن من لون بشرة السود بعد أن لفحتها شمس الصيف. وكان الجميع حليقى الرؤوس ولا يستخدمون أى غطاء للرأس.

وراقبنا الغواصين وهم في طريق عودتهم إلى الشاطىء يحمل كل منهم غرارة من القماش تضم مقتنياته الخاصة. وكان في انتظار بعضهم مجموعات من أقاربهم من الذكور الذين استقبلوهم بالقبلات والشد على أيديهم، والفرحة والبهجة تلف الجميع.

في هذه الأثناء بدأت بحارة السفن يتجردون من أرديتهم وأنزلوا حبال الصوارى والأشرعة ليبدءوا إنجاز سلسلة من المهام التى يتعين عليهم أداؤها قبل الانصراف إلى ديارهم.

وبعد فترة قصيرة، انتهى أحد الأطقم من فكّ تروس البكرات وبدأوا تنظيف بدن سفينتهم، وكانوا يعملون وهم على عجلة من أمرهم، على النحو الذى كثيرًا ما نلحظه على العرب عندما يتصدّون لأداء مهمة تواجههم. وكان تفكيرهم في زوجاتهم وعائلاتهم، بعد غيبة استمرت ثلاثة أشهر، يحثهم على العمل في سرعة وتصميم. وكانوا يقفون والمياه تصل منهم إلى قرب صدورهم وهم ينشدون الأغانى أثناء تنظيفهم للخشب البنى اللامع.

وكان هناك قاربًا آخر فرغ بحارته من تنظيفه، فبدأ سحبه إلى الشاطىء بواسطة رحوية* (أداة يديرها الملاّحون لرفع الأثقال والمراسى – المترجم) يقوم ستة من الرجال بإدارتها مستعينين بحبل معدنى ضخم بينما يرددون في إيقاع رتيب وقد تعالت أصواتهم: لا إله إلا الله، مع تكرارها بنغمتين متباينتين.

---

* سميت هذه الأداة الحديد بـ (الدوار) [سيف مرزوق الشملان

أما القارب الثالث فانهمك طاقمه في نقل الصارى إلى الشاطىء لوضعه بعيدًا عن المياه حيث يقى طوال أشهر الشتاء بجوار السفينة، إلى أن يحل موسم الغوص في الصيف القادم.

وسألنا بعض من أقبلوا لمشاهدة ما يجرى على الشاطىء عمّا كانت عليه الحال مع الغواصين في ذلك العام، وعما إذا كان الصيد وفيرًا، فتفاوتت إجاباتهم، ولكن من الوضاح أن عددًا من القوارب تمكن من صيد كمية من اللؤلؤ تبلغ قيمتها ١٥٠٠ أو ١٦٠٠ روبية، وهي حصيلة جيدة، بينما لم تخرج بعض قوارب أخرى بأى شيء تقريبًا.

وفيما مضى، كان الكثير من الرجال يخسرون كل مدخراتهم في الرهان على صيد اللؤلؤ، فلو أن عدة سنوات عجاف تتابعت لكان معنى ذلك أن يغرق صاحب السفينة في الدين حتى الأذنين، ويضطر إلى بيع سفينته. وأما بالنسبة للغواص فيخرج مديونًا[1] كل عام لصاحب السفينة، ما لم يكن – هذا الغواص – على درجة عالية من المهارة إلى أن تبلغ ديونه الحد الذى يكلفه بقية سنوات عمره كلها لسداد ديونه والتزاماته قِبَل صاحب السفينة. ومن سنوات غير بعيدة، توفى أحد الغواصين دون أن يسوى ديونه، فكان من حق صاحب السفينة أن يلحق ابن المتوفى للعمل لديه مكان والده. ولكن منذ عشر سنوات أصبح هذا الإجراء محرمًا بحكم القانون.

وحتى وقت قريب، وبعد أن توفرت فرص أخرى للعمل تبشر بضمانات أكبر لتحقيق الثراء، كان هناك في الكويت من يغريهم السعى وراء ما يدره الغوص على اللؤلؤ من أموال، فما أكثر ما تحدثت الأساطير الشعبية المتداولة عن ثروات خيالية حققها سعداء الحظ من ملاك السفن عندما تعاقبت سنوات الرخاء سنة بعد أخرى. وإن كان الغوص على اللؤلؤ يحقق الثراء والرفاهية بالنسبة للبعض، إلا أن هناك دائمًا عددًا أكبر من هذا البعض يعود من رحلة الغوص خالى الوفاض وليس في جعبته إلا صحة معتلة، وإرهاق شديد وديون تقصم الظهر.

وعندما كان الغواص يقدم علـى ممارسة هذه المهنة بما تمثله من مشاق، وويلات واختزال لسنوات وسنوات من عمره، فلا جدال أنه كان يستلهم سيرة رجال من أمثال هلال المطيرى الذى قفز من وهدة الفقر ليصبح من أثرى الأثرياء في الكويت، وتحولت قصته إلى أسطورة بين تجار اللؤلؤ في الخليج.

وهلال المطيرى ينتمى لأسرة بدوية معدمة من بطن الدياحين Diahin من قبيلة مطير. ويقال إنه كان يحصل على دخل صغير، وهو لم يزل غلامًا في باكورة العمر، بجمعه بذور التمر وبيعها لمن يستخدمها علفًا لأبقاره. ولكنه وفد إلى المدينة ذات يوم بحثًا عن عمل، وقرر أن يتحول إلى غواص على اللؤلؤ – فا لله غفور رحيم، ولن يتكون حاله أسوأ مما هي عليه الآن.

وكان هلال سعيد الحظ، بل، وهو الوحيد من بين ألف من الرجال الذى دان له مثل هذا التوفيق في مجال الغوص. ففي أول موسم له يخرج فيه إلى الغوص، تمكن بفضل ما أمكنه صيده من أن يكون له نصيبًا في الأرباح. ونظرًا لما كان يتميز به من حكمة حتى وهو لايزال في ميعة الشباب، ونظرًا لتحرقه للخلاص من ربقة الفقر الذى سحق عائلته لعدة أجيال ادخر نقوده، وجرب حظه مرة أخرى في العام التالى مباشرة.

وكانت مغامرة كما هي الحال دائمًا، ولكن الحظ ظل يواكبه، وفي ذلك الموسم والأعوام التى أعقبته حقق هلال أرباحًا طائلة، وتمكن بعد ستة أو سبعة أعوام من شراء قارب صغير، ومنذ ذلك الوقت أخذ يتوجه إلى ضفاف اللؤلؤ كمالك سفينة وليس غواصًا.

ومرة أخرى كان الحظ لايزال يحالف المطيرى الشاب، الذى دفعته قوة عزيمته وإرادته إلى المضى قدمًا في طريقه، بل وإلى مدى أبعد، فراح يكدس ثروة كبيرة خطوة خطوة، في الأيام التى يسود فيها الرخاء سوق اللؤلؤ وترتفع الأسعار. وتحول البدوى البسيط إلى رجل أعمال داهية، واستثمر أمواله في شراء الممتلكات في العراق وبومباى، وبنى لنفسه بيتاً فخمًا على ساحل البحر في الخليج يستطيع منه أن يراقب

أسطول سفن الغوص عند إبحارها بينما يمكث هو في الكويت ليمارس نشاطه مع أسواق اللؤلؤ في العالم.

ولكن هلالاً – وعلى خلاف بعض الذين تسعفهم الظروف فيصعدون من وهدة الفقر إلى قمم الثراء – لم ينس قومه في البادية. ورغم استقراره بالمدينة ليصبح من سكانها الدائمين، إلا أن قلبه ظل مع أبناء قبيلته الذين لازالوا يعيشون في الخيام السوداء في المناطق الداخلية، وفي كل ربيع، كان يحمل خيامه ويخرج للإقامة بين أهله في مضاربهم في الصحراء.

وعلى امتداد أيام طفولتى في الكويت، ظلت خيمتنا البدوية تأخذ مكانها لعدة مواسم بالقرب من مخيم هلال المطيرى. وجرت بنا العادة أن نزور هذا الرجل المهيب صاحب الوجه الباسم الوضاء واللحية الكثيفة البيضاء _لأن هلالاً كان قد تقدم في السن في ذلك الوقت)، ومازلت أتذكر عدة مناسبات دعانا فيها لتناول الطعام في خيمته واستقبلنا أثناءها واستضفنا في كرم بالغ. ورغم العدد الكبير من الخدم والأتباع المخلصين الذين كانوا يحيطون به دائمًا بصفته شيخاً بين قومه، إلا أنه كان متواضعًا بعيدًا عن أى زهو أو خيلاء. وكان يعتبر نفسه سعيد الحظ، ولكنه لم ير في ذلك ما يميزه بشىء عن قومه البسطاء، أبناء القبيلة التى ينتمى إليها. وطوال حياته كان أى ابن من أبناء دياحين يواجه مشقة أو عسر يستطيع أن يذهب إلى منزل هلال فيحصل بلا شك على وجبة طيبة، ومنحة تعينه على شظف الحياة.

وهكذا كسب هلال المطيرى حب واحترام الكافة في الكويت، وأصبح اسمه مثالاً يُحتذى في الكرم والتراحم الأسرى.

وأثناء السنوات التى ابتعدت فيها عن الكويت، توفي هلال. وعندما رجعت كان البيت الأبيض الشاهق المطل على البحر، بلا سيد يحكمه، يرنو إلى المياه من أعلى المرفأ الصغير الذى كانت سفن هلال تحط الرحال عنده بعد عودتها من ضفاف اللؤلؤ، ولم يعد أى بدوى يحضر الآن في أسماله البالية ليجلس على مقعد من المقاعد

المصطفة أمام بيت هلال، ولكن البدو الذين لمسوا بأيديهم، في هـذا البيـت مـاذا يعنـى الكرم والتراحم لن يسمحوا أبدًا بأن تنمحى ذكرى هلال المطيرى.

وبعد فترة ليست بالطويلة من عودة قوارب اللؤلؤ، تغير المشهد في المرفأ أمام بيتنا مرة أخرى مع رحيل البغلة Bagghala التى ظلت ملقية مراسيها هناك طوال فصل الصيف.

كان ذلك صباح يوم من أيام الخريف – مشرق بنور الشمس – وتشيع فيه الحيوية النابضة بالبهجة على قرع الطبول التى تودع السفينة الشراعية الضخمة، وأخذت أقلِبْ ناظرىّ في المرفأ بحثًا عن اللون الأحمر للعلم الكويتي الذى يرفرف على مؤخرة السفينة وهي على وشك أن تغادر الميناء. ووجدته هناك، يتراقص مع النسيم في حبور وبهجة فوق البغلة، وهي أجمل وأبهى كافة السفن الراسية على امتداد ساحل الكويت.

يقول بعض المؤرخين أن العرب أخذوا تصميم البغلة عن المراكب الشراعية البرتغالية ذات الصوارى العالية التى كانت تجوب الخليج منذ أربعة قرون. ولكن مهما يكن من أمر، فلاشك أن البغلة تتميز بشىء من غليون العصور الوسطى، وهي سفينة شراعية ضخمة، حربية أو تجارية تتميز بمؤخرتها المحدبة التى تطل منها نوافذ خمس، وبمنصتها الرباعية الجوانب والخليج العربى لا يعرف أى سفن أخرى تشبه البغلة، ويبدو أنها تنتمى للأيام الذهبية لعصر النهضة أكثر مما تنتمى للقرن العشرين.

ويقدر آلان فاليارز Alan Villiers وهو كاتب أسترالى خرج في رحلة تجارية على متن إحدى السفن الكويتية وتعرّف على كافة التقاليد والمعتقدات السائدة في الخليج، عدد السفن من طراز البغلة بما لا يتجاوز الخمسين في عام ١٩٤٠. أما اليوم فالعدد أقل من ذلك بعد أن سُحب أغلبها في السنوات الأخيرة إلى ورش النجارة

لتفكيكها بعد أن توصل نجارو السفن في الخليج بعد مئات السنين إلى أن تصميمها لم يعد ملائما، فكفوا عن إنتاج المزيد منها.

وكانت حركة المد ساكنة في ذلك الصباح عندما أخذت أتطلع إلى السفينة الرابضة بلا حراك والتى التفت مراسيها في مرفأنا لمدة شهر. وكانت دقات الطبول والعلم المرفوع تعلن أنها ستبحر عندما يرتفع المد بعد الظهر.

وكان طاقم البغلة منهمكاً في العمل حول بدنها لطلائه بدهان أبيض يصنع من دهن الأغنام والجير، تُدهن به كل الداوات الكويتية أسفل خط الماء. والواقع أن طلاء دهن الأغنام والجير هذا أفضل من أى طلاء تنتجه المصانع الأوروبية لأنه لا يحافظ على الخشب ويقيه من تأثير الماء فحسب، ولكنه يقوم أيضًا بطرد الحيوانات البحرية القشرية والهديبات ومنعها من الإلتصاق بالجزء السفلى الغاطس من السفينة.

ومنذ عدة أيام، تمت معالجة الهيكل العلوى للسفينة بزيت سمك القرش حتى تبدى خشبه الأملس متلألئًا في ضوء الشمس. وكانت السفينة بجسمها الضخم، تنتصب أمامى شامخة وأنا أقف أمعن النظر في النقوش والزخارف والحليات على السطح الخارجى للمؤخرة، والنوافذ الخمس الصغيرة التى تطل من الظلام الدامس للقمرة التى تشغل المنطقة أسفل المؤخرة.

وفي ظل بدن السفينة، كانت مجموعة من الرجال تصفق وتشدو بالأغانى على دقات طبلة يقرعها عبد أسود طويل القامة. وكان هذا هو الصوت الذى تشبع به الجو منذ الصباح. واستمر مع بعض التقطع طوال اليوم، إلى أن بدأت البغلة تشق طريقها عند ارتفاع المد لتخرج من المدخل الضيق للمرفأ بعد أن نشرت أشرعتها الضخمة لتستقبل الرياح والشمس.

ومن عادة أهل الكويت، أن يشيد ملاّك السفن مساكنهم على ساحل البحر حتى يمكنهم سحب قواربهم إلى الدرجات المقامة أمام الأبواب الخارجية، أو لبناء سفن جديدة على الساحل أمام هذه المنازل.

وكان الملاحون القدامى يجلسون في مجموعات بعد تقاعدهم، على المقاعد المصطفة خارج منازلهم، يرنون بأبصارهم إلى البحر، ويستطيع من يمر بهم أن يلم ببعض شذرات مما يدور بينهم من حديث يرددون فيه قصص المغامرات البحرية، ويذيعون أخبار أبنائهم وأبناء عمومتهم الذين يعملون في البحر.

ويمكنك أن تسمع من خلال أحاديثهم أسماء مدن بعيدة مثل زنجبار، وكراتشى، وعدن، ومن حين لآخر يمسك أحد المسنين الذين خط المشيب رؤوسهم ليرسم بها بعض الخطوط على رمال الطريق، والتى تبين خط سير رحلة لا ينسى ذكراها مهما امتد به العمر.

وكان من عادتى أن أتوقف في بعض الأحيان أثناء سيرى على هذا الطريق لتبادل أطراف الحديث مع على الشاهين الذي وجدته خارج الباب الأمامى لمنزله يتفحص البوم Bum الجديدة التى يجرى بناؤها له على جانب الطريق. وفي أحد الأيام وأثناء حديثه عن رحلاته، ناولنى ترخيصًا مبطوعًا لأقرأ ما ورد فيه، فوجد أنه يسمح لعلى الشاهين صاحب سفينة من الكويت، بالدخول بمركبه الشراعية إلى ميناء زنجبار دون أن يرافقه مرشد.

وكان هناك على ساحل البحر حوضًا من أكبر أحواض بناء السفن وترميمها في الكويت، وكانت به ثلاث بومات. ويملك هذا الحوض الحاج أحمد، وهو من بناة السفن الذين طبقت شهرتهم الآفاق في جميع أنحاء الخليج، ومن أبرز مواطنى الكويت.

وكان ابن الحاج أحمد يتواجد عادة في موقع الحوض لمراقبة سير العمل، وكان على استعداد دائم لمرافقة الزوار وهم يتجولون للتعرف على ما يجرى من عمليات في الحوض والإجابة على أى أسئلة يتوجهون إليه بها.

وبناة السفن في الكويت يمارسون مهنة قديمة على درجة عالية من التخصص. وعندما تراقبهم أثناء أدائهم لعملهم يمكنك أن تدرك مدى ما تتطلب مهنتهم من مهارة

وتركيز، فكل قطعة من الخشب تدخل في تكوين جوانب السفينة لابد أن تقطع على شكل معين، وبينما يعمل بعض الرجال في بناء السفينة نفسها، يجلس البعض الآخر في الظل لمعالجة الخشب الخام، فينشرون القطع ويشكلونها، وينجزون كل ذلك مستخدمين أكثر الأدوات بدائية. ويقبل أبناء نجارى السفن مع آبائهم إلى مواقع العمل، وكثيرًا ما يجلسون على الرمال للعب بأدوات أبائهم، ويجربون مهارتهم على قطع الأخشاب التى نحاها النجارون جانبًا، لأنه من المتوقع أن يمارسوا نفس المهنة عندما يشبون عن الطوق. وقد اقتفى الأبناء أثر آبائهم لعدة أجيال في مهنة نجارة السفن في الكويت، لأن صناع السفن يشكلون طائفة لها نظامها الخاص يعرف باسم البحارنة Baharna وهم على المذهب الشيعى، ومارسوا هذه المهنة دون سواها لعدة قرون، إلى أن شهدت الكويت التغيرات الأخيرة التى غيرت نمط الحياة فيها. والحاج أحمد هو زعيم البحارنة في الكويت.

وتتميز طائفة البحارنة بروح جماعية عالية، وبنوع من التعصب الذى يجعلهم في عزلة عن سائر أهل المدينة. وإذا توفي أحدهم، يتوقف كل أعضاء الطائفة عن العمل لمدة يوم كامل مشاركة لأسرة المتوفى.

وحوض بناء السفن الذى يملكه الحاج أحمد محاط بجدار، ولا يفصله عن البحر إلا عرض الطريق، وعندما يكتمل بناء قارب ويصبح جاهزًا للتدشين، يهدم جزء من الجدار، وتدفع السفينة الجديدة بسواعد الرجال وبمساعدة العوارض والبكرات. وبعد تدشين السفينة يعاد بناء الجدار، وتحل أخرى محلها ليبدأ عليها العمل.

وهناك اعتقاد سائد بين البحارنة بأن المرأة العاقر يمكن أن تحمل إذا خطت فوق أول قطعة من الخشب تستخدم كعارضة لإنزال سفينة جديدة إلى البحر، ولكن إذا حدث أن أقدمت امرأة على ذلك، فسوف يحيق الدمار بالسفينة، ولذلك فلابد أن يغامر أحد أفراد طاقمها بحياته مقابل حياة الطفل الذى سيولد. وعندما تمد العارضة يقوم الحراس من حملة المصابيح بالسهر إلى جانبها طوال الليل لمنع أى امرأة من

حوض سفن الحاج أحمد

محاولة الاقتراب منها والخطو فوقها، كما يسارع النجارون ببناء جوانب السفينة حتى يصل ارتفاعها إلى المستوى الذى يحميها دون حاجة إلى هذه الاحتياطات والتدابير.

وصناعة صيد الأسماك في الكويت التى لفت نيبور إليها الأنظار مزدهرة في الوقت الراهن كما كانت الحال أيام أن كتب عنها. ولما كان هناك العديد من صائدى الأسماك العرب ضمن الدائرة الواسعة والمتنوعة من أصدقاء والدى الكويتيين، فقد أتيحت لى الفرصة لأتعرف على بعض أساليبهم وعلى أنواع الأسماك التى يقومون بصيدها.

ويستخدم صائدون الأسماك في الكويت شراكًا يتكون كل منها من سياج يصنع من أفرع الأشجار الجافة التى يُحكم ضمها لبعضها البعض، تنصب أسفل خط ذروة المدّ على شكل رؤوس للسهام مصوبة نحو البحر. وعند الجذر، تظل الأسماك حبيسة في المياه الضحلة عند الطرف المذبب للسهم. وتوفر هذه الشراك التى توضع في أى مكان يصلح لذلك سواء على شاطىء مدينة الكويت نفسها أو بالقرب منها، نسبة كبيرة من الأسماك التى تباع كل يوم في سوف السمك المزحمة الصاخبة، رغم أن نسبة كبيرة أخرى يتم صيدها في البحر بواسطة القوارب المخصصة لذلك. والأسماك التى كانت دائمًا أقل سعرًا من اللحوم، هي أحد المواد الغذائية الثانية بالنسبة للعامة من أهل المدينة، ومن المناظر الشائعة في شوارع الكويت أن ترى العمال عائدين إلى بيوتهم بعد انقضاء يوم العمل وكل منهم يحمل الأسماك التى ستتناولها الأسرة في العشاء.

وإذا ابتسم لك الحظ بأن تتواجد وقت انحسار المد، عندما يقوم صائد الأسماك بتفريغ الحظرة Hadhara أو الشرك، فربما أتيحت لك الفرصة لترى بعض أنواع الأسماك المحلية ذات الألوان الزاهية والأشكال الغريبة. وصائد الأسماك يثبت رداءه حول خاصرته ويؤدى عمله حافى القدمين، ولكنه يحمل سكينًا صغيرة لحماية نفسه من الأسماك الخطرة التى قد يصادفها داخل الشرك. وهو يخوض في المياه الضحلة في

مثلث الشرك ويجمع الأسماك داخل شبكة أو قطعة من القماش. ولا تغفل عيناه طوال الوقت عن مراقبة بعض الكائنات التى يمكن أن تصيبه بجراح مؤلمة مثل سمكة الراي الساعة. أما إذا عثر على سمكة يعلم أنها ضارة أو غير مستساغة كطعام، فهو يقتلها أو يلقى بها خارج الشبكة لتموت على الشاطىء. ولقد رأيت عددًا من الصائدين وهم يلقون نوعًا من الأسماك الكروية أو المنتفخة التى تمتلىء بالهواء كالبالون عندما تخرج من الماء، أو الحبار الذى يفرز سائلاً أسود عندما يحس بالخطر.

وأما بالنسبة للأنواع المتعددة من الأسماك التى تعيش في مياه الكويت والتى تستطيع اللدغ، فلعل أكثر ما يخشاه العربى منها هو الفريالة Fefiala وهي سمكة صغيرة الحجم تكمن في قاع البحر في المياه الضحلة، وغالبًا ما تختفى في الطمى أو في الشقوق بين الصخور. وإذا تخلى صائد الأسماك عن حرصه ويقظته ووطأ هذه السمكة بقدمه، فهى تغرز مادة لاذعة ضارة من شوكة على ظهرها، يقول كل من تعرض لأذاها أنها تسبب آلامًا مبرحة أشبه ما تكون بلدغة عقرب.

وكان شاطىء الشويخ، حيث كنت أرقب الصيادين وهم يعملون أيام طفولتى، هو مكانى المفضل دائمًا على ساحل الكويت. ومنذ عشرين عامًا كان هذا الشاطىء الممتد على الطرف الغربى للمدينة مهجورًا لا ينزل به إلا الصيادين، وكانت الرمال التى غسلتها مياه البحر تنتشر من سور المدينة، دون أن تطأها قدم، إلى مدى البصر. أما اليوم فالشويخ ميناء يعج بالحركة والنشاط تحيط به ضاحية أوروبية الطراز. ومع ذلك فهناك على الجانب البعيد من المنطقة الصناعية مازال الشاطىء يحتفظ بشىء من طبيعته الهادئة الرتيبة الخالية من أى معالم، والتى عرفتها في يوم من الأيام. سرت على هذا الشاطىء منذ قريب، وعندما أدرت ظهرى للبيوت الصغيرة ذات الطابق الواحد ومحطات السفن الرابضة داخل مياه البحر وسفن تفريغ البضائع أحسست وكأن شيئًا لم يتغير. كان البحر هناك بزرقته الداكنة، والرمال تحت قدمى دافئة متماسكة كما كانت حالها في الأيام الخوالى، بينما تتناثر على الشاطىء كرات صغيرة

من الرمال لا حصر لها ولا عدّ، تدحرجها سرطانات صغيرة تحفر جحورها، وترقد قناديل البحر الهلامية وكأنها قطع البللور المصقول انتشرت أعلى خط الماء. ونظرت عبر الخليج وكان سرطانان ينسلان في خفة نحو البحر في اتجاه ضياء الشمس الموشكة على المغيب، فقفزت سمكتان صغيرتان عندما شعرتا بمرورهما.

وحان وقت ارتفاع المد، ورأيت على البعد، على حافة الماء، رجلين من ذوى البشرة السمراء الداكنة التى لفحتها الشمس يعملان على الشاطىء، كانا صيادان يسحبان شبكة ويقتربان بها من المياه لصيد الأسماك التى بقيت في المواقع الضحلة عند انحسار المد. ورأيتهما يقتربان ويخوضان في الماء حتى دخلا بشبكتهما في جرف فسيح، ثم انحنيا ليدفعا صيدهما الثمين بأيديهما ويلقيان به داخل سلة كبيرة.

وكان الصيادان يتحركان في الاتجاه المعاكس للمكان الذى أقف عنده. مجردين تمامًا من أى ثياب فيما عدا قطعة من قماش حول الخاصرة وغطاء رث على الرأس. وكانت أجسامهم السمراء الداكنة هزيلة تنم عما يعانون من شقاء. وكان أحدهما متقدمًا في السن وعلى خبرة عالية، وأخذ يصيح موجهًا النصح للآخر الذى لم يزل غلامًا، ومن الواضح أنهما كانا أبًا وابنه، وبينما هما واقفان على حافة الماء يسحبان الشبكة التى تمتد في قوس البحر الذى يفصل بينهما صعدت الأسماك المحتجزة إلى السطح بالمئات، وقفز بعضها من داخل الماء كالطيور لتتخطى الحلقة المحيطة بها من قطع الفلين الطافية، وتسترد حريتها ومع ذلك - وبالرغم من كل ما تسرب من أسماك، كانت الحصيلة وفيرة وعندما انتهيا من سحب الشبكة إلى الشاطىء كانت ممتلئة بالأسماك التى تشبه الفضة المتألقة بألوانها وبريقها. أما الأسماك التى قفزت من الشبكة، فقد استقرت على الرمال وأخذت أنفاسها تخمد في بطء لتموت مع مغيب آخر شعاع للشمس.

وتحدثت مع هذين الصائدين عن الشويخ القديمة، قبل أن تتسع المدينة وتنمو لتتحول إلى ضاحية صناعيه.

قال الرجل الأكبر في انبهار: وا لله، وا لله يشهد أن العالم كله جاء الآن إلى الشويخ.

وسألت عما إذا كان النشاط الذى يجرى في الميناء وإلقاء الشباك من على الشاطىء تؤدى إلى طرد الأسماك التى كانت تفد إلى هذه المياه بكميات وفيرة، فقال: لا لا أعتقد ذلك، فالسمك متوفر الآن كما كان دائمًا من قبل، ثم أضاف: ولكن حتى إذا قلّت كميات الأسماك، فسوف أظل أعيش حياة طيبة، فمع الثروة الجديدة في الكويت، يمكننى أن أحصل على ثمن لسلة من السمك الجيد يعادل ما كنت أحصل عليه فيما مضى مقابل ثلاثة أمثال الكمية نفسها.

الفصل الحادى عشر
مأدبة الشيخ ورقصة الحرب الرسمية

الفصل الحادى عشر
مأدبة الشيخ ورقصة الحرب الرسمية

تستمر حرارة صيف الكويت أشهرًا طويلة مرهقة، وتجرّ خطاها في تثاقل يبعث في النفس السأم والملل، وعندما يتغير الطقس في خاتمة المطاف، يأتى هذا التغيير فجأة، وبدون سابق إنذار.

في أواخر شهر أكتوبر الدافئ تغير الطقس خلال ليلة واحدة، وانخفضت درجة الحرارة فجأة إحدى عشرة درجة دفعة واحدة. وذات مساء وكنا لانزال نغط في نومنا في الشرفة، هبت رياح شمالية شرقية شديدة، وراحت تزمجر في جنبات البيت وتلقى بالأغطية من فوق الأسرة. وكانت هذه الرياح تندفع نحونا عبر الخليج قادمة من جبال فارس مباشرة، تحمل معها تلك القشعريرة الباردة المنعشة التى تسود المناطق المرتفعة، وفي الصباح وجدنا كل شيء وقد غطته الأتربة بينما تشكل الرياح المحملة بالأتربة هى الأخرى أيضًا والتى لازالت تهب في ضراوة غيوم رمادية تطمس ضوء الشمس.

ولكن الجميع كانوا يرحبون بتغيير الطقس رغم مقدمه فجأة، وعندما تخبو الرياح الباردة يظل النهار منخفض الحرارة تشيع فيه البهجة، وإذ ما جن الليل تشربت الأمسيات ببرودة الخريف المنعشة.

وفي أمسية توفرت لها كل هذه السمات، توجهنا بسيارتنا لتناول العشاء مع الشيخ عبدا لله المبارك في قصره بالصحراء. والشيخ عبدا لله هو عم حاكم الكويت، ويتمتع بشخصية تفيض بالحيوية لها جلالها ومهابتها بين شيوخ الكويت.

كانت السماء أرجوانية اللون وقت الشفق، ونجمة منعزلة وحيدة تتلألأ في الشرق، بينما السيارة تحث بنا الخطى نحو قصر مشرف، ذلك البيت الأبيض

الرابض على التل، ويقيم فيه الشيخ عبدا لله في الفصل البارد. وعندما اقتربنا، والظلمة تحيط بنا من كل جانب، ومضت أنوار القصر من فوق قمة التل، لتضفى على المشهد نوعًا من التألق وكأننا أمام خشبة مسرح.

وبعد حركة نشطة ومفاجئة أخيرة من سيارتنا، وصلنا إلى الطريق المنحدر المفضى إلى الباب الأمامى، وكان الشيخ عبدا لله نفسه في انتظارنا للترحيب بنا.

كان ذلك أيام المرحوم الشيخ أحمد، والذى كان من المتوقع أن يحضر مأدبة العشاء في تلك الأمسية. وعندما اقتادنا إلى غرفة الاستقبال وجدنا أن الحاكم سبق أن وصل بالفعل، وكان وجود الشيخ أحمد يحتم أن تتخذ المناسبة طابعًا رسميًا، ومن ثم رتبت المقاعد في الغرفة في صفوف بجوار الجدران الأربعة، على أن يجلس الشيخ في الطرف البعيد للغرفة في مقعده المركزى.

وشغلنا نحن النساء البريطانيات، وكانت هناك مجموعة صغيرة منا مدعوات تلك الليلة، أحد أركان الغرفة، حيث جلسنا معًا. وعندما يحضر شيخ الكويت اجتماعًا يلتقى فيه بأعداد من قومه، فليس من المطلوب من أى شخص سواه أن يتكلم أو أن يرفع الكلفة، كما أن الشيوخ من المراتب الأدنى يسلمون بمكانة زعيمهم ورئاسته لهم بما يبدونه نحوه من آيات الولاء ونكران الذات في حضرته. وكان ثلاثة من أبناء الشيخ أحمد بين الحاضرين فجلسوا في الأماكن المخصصة لأدنى المراتب في الطرف القصى من الغرفة بعيدًا عن والدهم، ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة طوال الأمسية.

وعندما اكتمل وصول جميع الضيوف، نادى الشيخ أحمد يطلب تقديم القهوة، وكان يتصرف وكأنه هو صاحب الدار والمضيف في بيت الشيخ عبدا لله، وكرر عبد يقف أمام الباب المناداة بطلب (الجهوة)، وتلقى النداء منه ثلاثة عبيد آخرون يقفون في الردهة، إلى أن بلغ النداء مسامع صانع القهوة في الجانب البعيد من القصر، والنداء بطلب القهوة يتميز بجرس خاص وهو يتنقل من عبد إلى آخر عبر الممرات

الداخلية للمبنى، فصوت الشيخ يحمل رنين الأمر الملكى، بينما يتم انتقال النداء وترديده عن خضوع عبيده الذين لا يعيشون إلا لتنفيذ أوامره.

وجاءت القهوة يحملها عبد أسود ممشوق القامة يرتدى عباءة بيضاء، وكان خبيرًا محنكًا في صبّ القهوة لأعداد كبيرة من الضيوف المتجمعين في وقت واحد، وكان يقبض بيده اليمنى على جُـرزة (سلسلة) تضم ستة من أقداح القهوة، وبيده اليسرى على إناء القهوة النحاسى الجميل، وأخذ يصب القهوة للضيوف الواحد بعد الآخر، وهو ينحنى انحناءة مهذبة يؤديها في هدوء ورشاقة. وبدا وكأنه لا ينظر بعينيه إلى هذا العمل الذى يؤديه، ورغم أنه يصب القهوة في أقداح صغيرة رُصت على بُعد تسع بوصات من الإناء، إلا أنه لم يخطىء هدفه أبدًا، ولم تتساقط منه قطرة واحدة بعيدًا عن المكان المحدد لها.

وعندما فرغ القهوجى من مهمته، انتظرا فخامة الشيخ إلى أن ينهض واقفًا ليتوجه لتناول العشاء، وكان الشيخ عبدا لله لا يتدخل في أى شىء على الإطلاق في حضرة الحاكم، بينما الشيخ أحمد هو الذى يتولى دعوتنا لمغادرة البهو ودخول الغرفة التى تنتظرنا فيها مأدبة العشاء.

كان في الفناء خدم يقفون ومعهم الأباريق والأحواض ويصبون الماء على أيدينا قبل أن نتوجه لتناول الطعام. ثم دخلنا غرفة أخرى أُعدت لتشهد أحداث المأدبة. أما أنواع المأكولات التى شهدناها في انتظارنا فتعجز الكلمات عن وصفها.

على الأرض، وسط الغرفة المستطيلة، مدت قطعة كبيرة من نسيج أبيض أشبه بغطاء السرير أو المائدة يبلغ طولها حوالى خمس عشرة قدمًا، وفي المركز منها سبعة عشر صحنًا كبيرًا ومستديرًا كل منها كومًا عاليًا من الأرز واللحم. وكان بكل صحن من الصحون السبعة الأولى خروفًا كاملاً، بينما تعمر العشرة الأخرى بقطع كبيرة من لحم الضأن المشوى. وعلى جانبى الصف الأوسط من الصحون الكبيرة، كانت هناك مئات من الصحاف الأصغر حجمًا مليئة بمشهيات من كافة الأنواع، لحم غزال

طازج من الصحراء، وذبائح من طائر الحبار اصطادها الشيخ عبدا لله بنفسه في رحلة صيد منذ بضعة أيام، وسمك مملح وحمام ساخن شهى مضمخ بصلصة الطماطم والتوابل، ومجموعة متنوعة هائلة من الحلوى.

وجلسنا على الأرض على جانبى الصحون التى تحمل الخراف الكاملة، بينما جلس الشيخ أحمد عند أحد الأطراف. أما عند الطرف الآخر حيث تمتلىء الصحاف بكميات أقل من لحم الضأن، فأقبل سائقو سياراتنا وجلسوا لتناول الطعام معنا، متخذين أماكنهم في المواقع المخصصة للمراتب الدنيا، فقد كانوا هم أيضًا ضيوفًا في بيت الشيخ عبدا لله تلك الليلة.

وشمر الشيوخ أكمامهم اليمنى، ودفعوا بأيديهم بسرعة في صحون الأرز الساخن، ثم بدأوا ينزعون شرائح صغيرة من قطع اللحم سلهة المضغ من جسد الخراف، ويقدمونها لضيوفهم الإنجليز، وكانت مجموعة من العبيد، حفاة الأقدام، يتحركون خلفنا دون أن يصدر عنهم أى صوت ليضع بعضهم الوسائد لنستند إليها، بينما يقترب بعضهم الآخر منا ليخرج الدجاج من جوف الخراف المشوية.

وعندما بدأنا تناول الطعام، ران الصمت المطبق على الجميع، فليس من اللائق وفقًا للتقاليد العربية أن يدور حديث أثناء تناول الطعام، وإذا كانت هناك في يوم من الأيام وليمة تتطلب الالتزام بهذا الصمت، لكانت هي تلك الوليمة، لقد كانت حقًا من ذلك النوع الذى ما كان لهارون الرشيد أن يشعر بأى حرج أو خجل لو أقام مثله لضيف من الملوك.

وبعد وجبة من هذا النوع، لا يمكن أن تكون لدى أحد ممن شاركوا فيها أى رغبة في الحديث، فشكرنا مضيفنا ونحن ننهض متخمين لنبتعد عن موقع الطعام، ثم غسلنا أيدينا في صمت واتخذنا طريقنا نحو غرفة الاستقبال من جديد. وبعد بضع دقائق قدمت القهوة مرة أخرى، وكان ذلك يعنى – وفقًا للتقاليد العربية – أن الوقت حان ليغادر الضيوف المكان. وما أن انتهى الجميع من تناول القهوة، حتى شرعنا في

مغادرة القصر لنتخذ طريق العودة.

وبعد أيام، احتفل العالم الإسلامى بعيد الأضحى، الذى يحيى ذكرى تضحية إبراهيم[1].

وافق اليوم الأول من العيد الثالث من نوفمبر، فذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم إلى ساحة سوق الكويت الواسعة لمشاهدة العرضة Ardha وهي رقصة الحرب الرسمية التى تُؤدى أيام الأعياد والمناسبات الهامة. وعندما وصلنا بسيارتنا إلى الصفاة Safat وهو المكان الفسيح المكشوف الذى يجلب إليه البدو جمالهم لعرضها للبيع، وجدنا حشدًا غفيرًا يتجمع. وكانت الأرجوحات التى نصبت على وجه السرعة تمارس دورها في همة ونشاط لإدخال البهجة على قلوب الأطفال الذين لا حصر لهم ولا عدّ. والذين أخذوا يركضون جيئة وذهابا في الساحة، بينما أعداد ممن تجاوزوا سن البلوغ تذرع المكان، وهي في ملابس العيد، ولا شاغل لهم أو متعة إلاّ التطلع للآخرين ومراقبة ما يفعلون.

وكان العلم الكويتى يرفرف بلونه القرمزى فوق رؤوس الحشد المتزاحم عن يسارنا، وعندما توجهنا بسيارتنا نحوهم، وضغط السائق بأصبعه على صمام أداة التنبيه، سارعوا بالتفرق ليفسحوا لنا الطريق.

وكان العلم مثبتاً في المنطقة التى وقع عليها الاختيار لتكون حلبة لأداء رقصة الحرب. وترجلنا من السيارة عند الجانب الخارجى للحشد الذى التف على شكل دائرة حول المنطقة الخالية، وشققنا طريقنا حتى وصلنا إلى داخل الدائرة. وفي هذا المكان كان الشيخ عبدا لله المبارك يجلس ومعه مجموعة من الشيوخ على صف من المقاعد في جانب الحلبة. وكان الشيوخ جميعًا يرتدون أفخر ثيابهم، ويحملون سيوفهم. وكل سيف في غمده الثمين الذى تحليه الزخارف والنقوش مصنوع من الذهب الخالص. وعندما وصلنا إلى حيث يجلسون نهضوا ليفسحوا لنا مكاناً على المقاعد بجوارهم.

كانت رقصة العارضة قد بدأت لتوها، وفي وسط الحلبة إلى جانب العلم وقف المنشدون في صفين طويلين متقابلين، وكل صف ينشد بالتبادل مع الصف الآخر، مقاطع من أغنية طويلة، ويصافح أفراد كل صف أفراد الصف الآخر، وهم يتمايلون وينحنون في حركة موحدة. وبالقرب من المنشدين وقفت مجموعة من حاملى الطبول تقرع نغمة رتيبة لا تتغير، على طبول صغيرة من الجلد غير المدبوغ، بينما يؤدى قائدهم – وهو عربى ممشوق القامة يرتدى دشداشة زرقاء اللون – عزفًا منفردًا بدقة قصيدة على طبلته، تختلف عن الإيقاع السائد من قرع الطبول الأخرى.

ومن الغريب أن الراقصين بدأوا الرقص في بطء حول الحلبة على إيقاع هذه الموسيقى الرتيبة. وكان هؤلاء الرجال جميعًا مجندين من حاشية الحرس المسلح الخاص للشيخ عبدا لله، ويتولى قيادتهم قائد تمرس في أداء رقصة الحرب. وكان كل راقص يحمل بندقية ويتحركون جميعًا في صف واحد متصل الراقص بعد الآخر حول الحافة الخارجية للدائرة، ويؤدون حركة غريبة بجرّ القدمين على الأرض على دقات الطبول. وعندما رفع قائدهم بندقيته أعلى رأسه باسطًا ذراعه إلى أقصى طولها، أدى كل الراقصين نفس الحركة على الفور، كما كانوا يقلدونه عندما يضع كعب البندقية في كتفه وكأنه يتخذ وضع التسديد. أما عندما طوّح ببندقيته في الهواء ثم تلقاها بين يديه وهي تهبط، فلم يتصرف على نفس النحو إلا من كانوا على ثقة كاملة بقدرتهم على أداء هذه الحركة، بينما شاركه الآخرون بالإيماء فقط.

وجلسنا نرقب الموكب الذى لا نهاية له من الراقصين. كان هناك راقصين من السود طوال القامة يتميزون بأقدامهم الضخمة من الحرس الخاص بالشيخ عبدا لله، وبدوًا غلاظًا تبدو عليهم سمات الرعونة الشديدة والتهور، وفي أيديهم بنادقهم العتيقة. وكان بعض البدو يرتدون سترات ملونة مزينة بجدائل من ذهب، وعندما مرّوا بنا، أمكننا أن نقرأ على أكمامهم أسماء فنادق ودور عرض سينمائى أمريكى، فأمريكا تصدر إلى شبه الجزيرة العربية كميات ضخمة من السترات المستعملة التى يستخدمها

الحجـاب وحـراس المنـازل والمبـانى العامـة، والتـى لا يدخـر البـدو جهـدًا مـن أجـل الحصول عليها.

وربما بدت رقصة العارضة بالنسبة للأجنبـى مجـرد احتفـال رسمـى فخـم لا علاقة له بشؤون الحياة العملية، ولكن الواقع أنها تستمد أصولها مـن غـرض محـدد، وهو إثـارة النخـوة القتاليـة في قلـوب الجنـود اسـتعدادًا للحـرب. وحتـى في السـنوات الأخيرة، كان الجنود الكويتيون يرقصون وهم في طريقهم إلى الصدام والمناوشات.

وفيما مضى، رأيت الراقصـين الذيـن يـؤدون العارضـة وهـم يحشـون مواسـير بنادقهم بالبارود أثناء الرقص، ويتحركون في خطى أشبه ما تكون بالخوض في المـاء أو الوحل مع إيماءات بطيئة متقنة كجزء من الرقصة، وعندئذ يحدث ما يبهج المتفرجين ويثيرهم في نفس الوقت، عندما يطلق الراقصون نيران بنادقهم في الهواء، ولكن دون أن يعيدوا حشوها بالبارود أو إطلاقها مرة أخـرى. وعرفـت فيمـا بعـد أنـه تم حظـر هـذا الجانب من الرقصة.

وبعد فترة وجيزة تغير نظام الرقصة، فبدأ قارعو الطبول الذين كانوا يقفـون في وسط الحلبة يشكلون حلقـة تضـم مجموعتهـم الصغيرة وانضـم إليهـم عـدد قليـل مـن الراقصين حاملى السيوف وبدأوا في أداء حركة جديـدة وكـل منهـم يلـوح بسـيفه بعـد تجريده من غمده.

ثم نهض الشـيخ عبـدا لله المبـارك مـن مجلسـه بجانبنـا وألقـى بشـته Bisht الموشى بالذهب، واستل سيفه من غمـده، وانضـم إلى المجموعـة الملتفـة حـول قـارعى الطبول، ورفع سيفه إلى أعلى ليبدأ الرقص.

وانضم إلى الرقـص أبنـاء العديـد مـن الشـيوخ الآخريـن الذيـن جـاءوا لحضـور الحفل، بعضهم يحمل غدارته أو سيفه الخاص بينما استعاد البعض الآخر سلاحه من أبيه، فهذا الرقص يعتبر جزءًا من التدريب العملى للشيخ الشـاب. وحتـى الأطفـال في سن الثامنة أو التاسعة خرجوا إلى الحلبة يراقبون الأكبر منهم في دقة وانتباه، ويقلـدون

الحركات الغريبة التي يؤديها هؤلاء على قرع الطبول. وكان قائد فرقة الطبالين بزيه الأزرق يرقص هو نفسه أثناء قرعه على طبلته، ويلف ويدور حول نفسه وهو يحجل على ساق واحدة بالتبادل.

وفجأة، ومن وراء الحشد المتزاحم على الجانب البعيد من الحلبة، تعالى صوت ضجيج للسيارات وحركة بين الحاضرين، وأفسح الجميع الطريق لسيارة كرايزلر سوداء ترفع علمًا مثلثًا صغيرًا أحمر اللون على رفرفها كانت قادمة في اتجاهنا.

وتوقف الرقص أثناء اجتياز السيارة للحلبة، وتوقف الراقصون لمشاهدتها وهي تقترب من مقاعدنا، وقبل أن تتوقف السيارة نهائيًا فتح الباب وقفز منها أربعة من السود المسلحين ثم هبط منها حاكم الكويت الشيخ أحمد.

ووراء سيارة الحاكم أقبلت سيارتان تحملان أبنائه، وفي المؤخرة عربة مكشوفة يركبها الحرس المسلح.

وما أن جلس الشيخ أحمد على مقعده بجانبنا حتى قفز حرسه الخاص فوق صد المقاعد، وشقوا طريقهم بين الجالسين واتخذوا مواقعهم في صفوف خلف الشيخ ليشكلوا حاجزًا بينه وبين الحشد الهائج المصطف من الخلف.

وعندما جلس فخامته، أقبل عدد كبير من أتباعه لتقبيل يده تعبيرًا عن الولاء، ثم اقترب الأطفال الذين شاركوا في العارضة في خطى وئيدة وعلى استحياء فقبلوا يده هم أيضًا، فانحنى الشيخ ليطبع قبلاته على وجناتهم.

وبعد أن جلس الشيخ أحمد مرة أخرى، بدأ الطبل والغناء من جديد، وخرج الشيخ عبدا لله الذى توقف عن الرقص عندما وصل فخامة الشيخ أحمد، وانضم مرة أخرى للراقصين في الحلبة.

ثم جاءت المرحلة الختامية للرقصة: توقف الراقصون في الحلقة الخارجية وتراجعوا إلى الوراء ودخل الصفان الطويلان من المنشدين إلى وسط الحلبة، وبينما هم

ينشدون كان أفراد الصفين يتحركون إلى الأمام وينحنون لبعضهم البعض، ثم يعودون أدراجهم إلى الوراء من جديد. وتحرك الشيخ عبدا لله والمجموعة الصغيرة من الراقصين الملتفة حول قارعي الطبول في إتجاهنا ثم ابتعدوا مرة أخرى. وهم يلوحون بسيوفهم المتلألئة مع آخر أشعة الشمس قبل المغيب.

واستمرت الرقصة على هذا النحو حتى غابت الشمس، وفي هذا الوقت كان جزء كبير من الحشد المتجمع في ساحة السوق قد انصرف، واقتربت العارضة من نهايتها، وغادر الشيخ عبدا لله الحلبة، وأغمد سيفه، ووضع عباءته على كتفيه، ونادى فخامته ليطلب حضور سيارته، وعندئذ أخذ موكب السيارات يشق طريقه عبر الحلبة، وتوقف دق الطبول، ولبث الراقصون في أماكن بلا حراك.

وقفز العبيد ليفتحوا أبواب سيارة الشيخ، فركب الحاكم وأبناؤه ووثب الحرس السود المسلحون إلى عربتهم. وتحرك سرب السيارات في بطء مغادرًا المكان. وانتهت العارضة. وعندما وصلنا إلى منزلنا، كانت دقات الطبول وأصوات الغناء لا تزال معنا، وكأنها لم تفارق مسامعنا.

الفصل الثاني عشر

حملة للصيد بالصقور

الفصل الثاني عشر
حملة للصيد بالصقور

ألا تحب الصيد بالصقور؟
إن كل من حاز صقورًا ... سوف يحلق فوق قبره الصياح.
ترويض النمره

في كل مكان في الكويت، يلتقى الوافد الغريب بأشياء يتعانق فيها القديم والحديث ويجتمعان جنبًا إلى جنب، ولعل من أبرزها ذلك المشهد الذى ترى فيه الصقور المدربة وهي تنتظر في مواقعها خارج قصر تنتمى عمارته إلى القرن العشرين بينما سيارات الكاديلاك تتأهب لنقل الشيخ ومرافقيه من الصيادين الذين يستعينون بالصقور إلى الصحراء لممارسة هذه الهواية المحببة إلى قلوبهم.

ومنذ العصور الوسطى كان الصيد، مع الاستعانة بالصقور هو الوسيلة التى يلجأ إليها أمراء شبه الجزيرة العربية لقضاء وقت الفراغ والترويح عن أنفسهم، ولم تستطع كل تطورات الحياة الحديثة وتعقيداتها في الكويت أن تنال من هذه الرياضة التقليدية التى استأثرت بقلوب الجميع وتقديرهم على مر العصور.

وطائر الحبارى Habara الذى يستخدم الصقر أساسًا لتعقبه يهاجر عابرًا أرض الكويت في أشهر الشتاء، ويبدأ موسم الصيد بالصقور بانتهاء الطقس البارد . والصقور الكبيرة غير المستأنسة، والتى يوقع العرب بها لتدريبها واستخدامها في الصيد، تقتات على الحبارى، وتهاجر هي الأخرى عبر شبه الجزيرة العربية سعيًا وراء الطيور التى تتخد منها طعامًا.

وفي أوائل نوفمبر، أبلغنا أحد البدو أن الحبارى شوهد في المناطق الداخلية،

فقمنا – بعد فترة – بتنظيم حملة للصيد بالاستعانة بالصقور لنجرِّب حظنا في الصحراء.

كان أول بصيص من ضوء الفجر يتسلل على استحياء فوق رؤوس المنازل عندما انطلق ركبنا في الخامسة والنصف صباحًا، ووفقاً للقاءات سبق الاتفاق عليها في المدينة، انضم إلينا اثنان من الصائدين بالصقور من أتباع الشيخ، وشاحنة صغيرة لنقل ما ستسفر الحملة من صيد، ومجموعة من الأصدقاء، جاءوا لمرافقتنا في سياراتهم.

وبينما قافلتنا الصغيرة تغادر مدينة الكويت وبندأ السير على طريق الرياض، كانت الشمس قد استوت ساطعة منذ لحظات، وكل شجيرة تلقى بظلها الأزرق الممتد على الأرض حتى اكتست صفحة الصحراء بخطوط متداخلة من الضوء والظلال. وعندما اتخذنا مسيرتنا شطر الغرب من المدينة، أفضت بنا الطريق إلى تلال كبد Chabd المنخفضة التى اكتسب بطبقة بيضاء من الجبس، ووجدنا أنفسنا في خضم مساحات ممتدة من الأرض المتموجة الخضراء بلون الزيتون، تحيط بها شجيرات العرفج Arfaj إحاطة السوار بالمعصم. وعلى بعد ستين ميلاً من المدينة وصلنا إلى بئر للمياه حيث أقامت شركة البترول مضخة لرفع الكميات اللازمة للبدو وعائلاتهم ومواشيهم ودواجنهم، وعند هذا الموقع، توقفنا لنرقب عرب الصحراء وهم يملأون القِرَب المصنوعة من جلود الجمال بالماء، وكانت القرب التى امتلأت إلى أقصى طاقتها، والتى تستوعب كل منها حوالى ٢٥ جالوناً، تحمل على ظهور مجموعات من الجمال.

ولم يكن هناك بعد هذا البئر أى طريق يمكن أن نسلكه، فأخذنا نحث السير في صحراء غير مطروقة بين شجيرات وآجام تزداد كثافة في كل مكان، وكنا الآن في موطن الحبارى، فأعد الصيادان اللذان في رفقتنا صقريهما لأداء المهمة التى تنتظرهما، وكان أحدهما ويدعى عدس Addas يلازمنا في سيارتنا ممسكاً بصقره بقبضته التى يحميها غطاء أشبه بالقفاز. وكانت رأس الصقر مغماة بغطاء من الجلد وهو قابع في



عدس: يخلص الفريسة من الصقر



أحد رجال قبيلة بنو حجير يحمل على يده صقرًا

هدوء دون أن يبدى أى تبرم بينما نحن نتحسس طريقنا في حذر. وهنا أخرج عدس قطعة من خيط متين من جيبه ورفع جناحى الصقر، ثم ضم الريشات الثلاث الخارجية الأساسية من كل جناح لبعضها البعض، وربطها بالخيط. والصقر العنيد أو الجموح غالبًا ما يواصل مطاردته للحبارى الذى يفلت من أول هجمة، ولكن جناحى الحبارى الكبيرة القوية تمكنانه من التفوق على الصقر في الطيران والابتعاد عنه لمسافة طويلة، وهنا يقوم الصائد بربط ريش جناح الصقر لمنعه من تبديد جهده في مطاردة لا طائل من ورائها.

وبعد فترة قصيرة، طلب محمد – الصياد الثانى – أن نتوقف وكنا قد وصلنا إلى موقع يعتقد أنه من المحتمل أن نعثر فيه على الحبارى، ولذلك وقف في مؤخرة الحافلة المكشوفة، ورفع الغطاء من رأس صقره ورفعه إلى أعلى على يده اليمنى حتى يمكنه أن يستكشف المنطقة المحيطة.

والحبارى عندما يشعر بالخطر ينبطح على الأرض بلا حراك وكأنه تجمد، ويصبح من المتعذر التعرف عليه بلونه المشابه للون الرمال المحيطة به، ولذلك يحاول الصياد أن يدفع أى طيور جاثمة على الأرض إلى الحركة بإحداث نوع من الضجيج آملاً أن يرفع الحبارى رأسه ليستطلع ما يجرى فيكشف للصقر عن مكانه. وللصيادين صيحة خاصة يستخدمونها في مثل هذه الحالات، فأخذ محمد يرفع صوته مرددًا، هوا – هوا – هو، عسى أن يؤدى ذلك إلى إزعاج الطير وإجباره على التحرك. وبينما هذا الصوت يجلجل في جو الصباح الساكن، كان الصقر يجول بناظريه في المنطقة المحيطة ليستكشفها، محركًا رأسه في جميع الاتجاهات، مدققًا النظر بكل يقظة بعينه السوداوين الكبيرين. وتكررت الصيحات مرة أخرى، وبعدها تعالى صوت محمد في نغمة متقطعة: ها ها ها ها ، وكأنها ضحكة غريبة خالية من أى دعابة.

وعندما يلمح الصقر الحبارى، فهو يبسط جناحيه على الفور، يزيح الصياد الغطاء الجلدى الذى كان يقيد به حركته، فينطلق وراء فريسته، ولكن الصقر لم يظفر

بشيء هذه المرة، ولذلك أعاد محمد نغمتيه وواصلنا سيرنا. وعند شروق شمس اليوم التالى توقفنا لنحاول مرة أخرى، ولكن دون أى نجاح.

وعندما توقفنا للمرة الثالثة، بعد أن قطعنا مسافة تبلغ حوالى الربع ميل، كان عدس هو الذى يقف في الحافلة ويزيح الغطاء عن رأس صقره. وتكررت الصيحة التقليدية وأخذ الصقر يرفع رأسه وينكسها في ترقب وتشوق وهو يتطلع حواليه. ثم بسط الصقر جناحيه وهو يركز نظره بضع لحظات على نقطة محددة، وفي نفس الوقت فك عدس رباطه ودفعه إلى أعلى ليحلق في الجو، ولم تكن هناك أى حبارى في مجال رؤيتنا ولكن من الواضح أن الصقر رأى شيئًا، لأنه شق طريقه في خط مستقيم، وهو يطير على ارتفاع منخفض فوق شجيرات الحمض Hamadh، وبعد أن ابتعد عن السيارة حوالى الخمسين ياردة، إنقض فجأة وراء شجيرة، وكنت أتوقع نشوب معركة بين صقر وطائر، ولكن الصقر وجّه ضربة واحدة دون سواها لينتهى الأمر في ثانية واحدة، وفي الدقيقة التالية، أخذ الريش الأبيض يتطاير في الهواء ليعلن أن الصقر ينزع الريش عن صدر فريسته التى لقيت حتفها.

وقفز الصياد من الراحلة وجرى نحو الموقع الذى سقطت فيه الفريسة. وما أن وصل إلى هناك حتى كان الصقر يقف فوق فريسته وهو ينزع ملىء فمه من اللحم الأحمر الطازج من صدرها. وبكل لطف وتودد، وكأنه لا يريد أن يثير غضب الصقر، بسط عدس طرف ردائه فوق الحبارى وأبعد الصقر عن ضحيته. وبسرعة، غمىّ عدس الصقر من جديد، ثم أزاح الراد عن الحبارى، وأخرج سكينة وذبحها، وتقضى الشريعة الإسلامية بأن الطائر الذي يُذبح من أجل اتخاذه طعامًا لابد أن يُترك لينزف الدم من جسمه. وكانت الحبارى قد ماتت بالفعل عندما وصل إليها الصائد، ولكن كانت لاتزال هناك فسحة من الوقت تسمح بالالتزام بما تنص عليه الشريعة.

وبينما عدس يتعامل مع صقره وفريسته، ترجلت بقية مجموعتنا لاستكشاف المنطقة المحيطة بنا سيرًا على الأقدام، فأغلب الظن أن العديد من الطيور تختبىء في

المكان الذى عثرنا فيه على إحداها. ولكن البحث لم يسفر عن شيء فعدنا أدراجنا إلى سيارتنا وواصلنا السير.

والتزمنا بالاتجاه الذى حدده الصيادان، وبعد أن توقفنا ثلاث أو أربع مرات دون أن نحقق أى نتيجة، بدأ أحد الصقور وكان غير معصوب العينين يبدى اهتمامًا ملحوظًا بشيء لفت نظره. وكان يتصرف وكأنه لمح حركة، ولكنه ليس على يقين مما إذا كان حبارى أو لا، وأخذ الصياد يردد صيحته مرة بعد أخرى والصقر قابع بلا حراك، وبصره مركز في اتجاه محدد دون أن يطرف له جفن. وأخيرًا حلق في الجو، ولكن بدون ذلك التأكد من الهدف الذى يتجه إليه، كما رأيناه يفعل في الهجوم الأول، ثم حط على شجيرة وهو لايزال متشككًا فيما يلمح على بعد ١٠٠ ياردة من السيارة، وكأنه مازال يحاول التوصل إلى المكان المحدد للحبارى التى يشعر بوجودها على نحو مبهم. وتحركنا نحوه بسيارتنا، وفجأة خرجت أربعة من طيور الحبارى من أسفل سيارتنا وكانت تختبئ وراء العجلات، وبسطت أجنحتها الطويلة التى تجمع بين اللونين الأسود والأبيض، وانطلقت رصاصات من إحدى البنادق على سطح الحافلة مرة من جهة اليمين ومرة من جهة اليسار ورأينا إحدى الطيور المحلقة وهي تتهاوى على الأرض. وفي قفزة كالومضة الخاطفة انطلق الصقر من مكمنه على الشجيرة وانقض على الطائر الذى أزهقت روحه، وهو لا يتردد في الاستفادة من صيد قام به غيره. ومرة أخرى جرى الصائد ليبعد الصقر ويحصل على الحبارى.

ومنذ عهد بعيد، اكتشف البدو أنه لا جدوى من صيد الحبارى دون الاستعانة بالصقور لأنه ما أن يقترب منها الإنسان، على ظهور الجمال أو في سيارة، حتى تهب وتحلق في السماء حتى قبل أن تدخل في مجال النيران، أما إذا رأت صقرًا، فالرعب يسيطر عليها وتظل قابعة في مكانها بلا حراك عسى أن تتاح لها الفرصة للفرار، بل وهي تظل على الوضع نفسه إلى أن تصبح عرضة للمداهمة والسحق تحت الأقدام أو تحت عجلات السيارات، أو إلى أن تتأكد أن الصقر قد حدد موقعها

ومن ثم فالتحليق هو أملها الأخير. والجمع بين استخدام الصقر والرصاص هو أكثر الطرق ضماناً لصيد الحبارى، لأنه إذا عجز الصقر عن قتلها وتمكنت من التحليق، فهناك في العادة فرصة مواتية لاصطيادها بطلقة من بندقية قريبة المدى.

بلغت حصيلتنا حتى ذلك الوقت حبارتين، وخلال الساعة التى أعقبت ذلك، حصلنا على ثلاثة أخرى، اصطدنا إحداها بطلقة بندقية، والأخريان بواسطة الصقر. وبعد ذلك أصبح الصقران مصدر للانزعاج الشديد بيننا.

كان عدس قد أزاح النقاب عن رأس صقره مرة أخرى وتركه ينظر حواليه بالطريقة المعتادة. ولكن الصقر هذه المرة وبدلاً من أن يركز نظره في اتجاه محدد أو يبدى الاهتمام بما تقع عليه عيناه، حلق في الجو بعيدًا عن يد عدس وصعد إلى أعلى، وراح يطوف في حركة دائرية بلا هدف، وأخيرًا، هبط دون أن تبدو عليه أى نية للبحث عن صيد جديد. وترجل عدس عن الحافلة، واقترب من الصقر ونادى عليه باسمه، ولكن الصقر لم تبد عليه أى رغبة في العودة وإنما قبع في مكانه، وأخذ يرنو لعدس، وعندما اقترب منه عدس قفز من فوق شجيرته، وراح يحلق مرة أخرى لمسافة مائة ياردة، ثم حط على الأرض. وخرج عدس في أثره، ومرة أخرى نهض الصقر من مكانه ليواصل الطيران ثم يحط على إحدى الشجيرات. ولما وجد عدس أن الصقر تسيطر عليه حالة من التمرد وعدم الطاعة، عاد إلى الحافلة وسحب إحدى الحباران التى اصطدناها من الغرارة التى وضعها فيها، ثم أخذ ينادى الصقر وهو يدنو منه في حذر، متعمدًا أن تظهر الفريسة الميتة. ومال الصقر برأسه نحو أحد الجانبين، ولما رأى أن العرض المقدم إليه لا سبيل إلى رفضه، بسط جناحيه وقفل راجعًا إلى قبضة عدس. وفصل الصياد رأس الحبارى عن الجسد، وأعطاها لصقره، وعادا معًا إلى الحافلة.

وبعد بضع دقائق، رأينا ثلاث حبارات تجرى خوفًا من السيارة على بعد حوالى الخمسين ياردة. وعلى الفور أزاح عدس القمامة عن رأس صقره، وأشار له في

اتجاه الطيور، وأطلقه ليحلق في الجو، ولكن الحبارى الثلاث كانت هي البادئة بالطيران، وهبت من مكانها قبل أن يصل إليها الصقر، وحملتها أجنحتها القوية واندفعت بها بشدة وإن بدت وكأنها تتحرك في بطء وتثاقل كنوع من خداع البصر. وتوقف الصقر. وكان عدس يدرك تمامًا خطر ترك صقر ليطارد الحبارى في الجو. ونظرًا لما أبداه هذا الصقر منذ فترة من عناد وعدم الاستعداد للعودة إلى صاحبه، استبد القلق بعدس خوفًا من متابعة صقره للحبارى لمسافة بعيدة، يولى بعدها الأدبار متحررًا من الأسر، ونادى على صقره في صرخة مدوية وأخذ يلوح بالغرارة التى كان لايزال ممكسًا بها بيده. ولكن الصقر لم يعره أى اهتمام، رغم فقدانه الأمل في الوصول إلى الفريسة التى يطاردها، واصل الطيران متعقبًا ثلاث حبارات. واستبد الانزعاج بعدس وهو يرى صقره يختفى على البعد، فنادى سائق الشاحنة وأمره بتعقب الصقر، وكان قد خرج الآن من مجال الرؤية وتوارى فوق قمة تل قريب. ومن سيارتنا أخذنا نرقب الشاحنة وهي تجرى بأقصى سرعة على الأرض الجرداء، بينما الرجال من فوقها يكتمون أنفاسهم خوفًا من مصير مجهول. وأخذت الشاحنة تحث خطاها بسرعة حوالى الستين ميلا في الساعة سعيًا للحاق بالصقر من أقرب طريق، وهي تطأ وتسحق تحت عجلاتها شجيرات الحمضة حتى بدا الصوت الصادر عن تكسير الشجيرات وكأن الشاحنة نفسها توشك أن تتناثر كالأشلاء. وطوال الوقت كان عدس يلوح من فوق الشاحنة بحبارة وينادى على صقره بأعلى صوت.

والصقور طيور قيِّمة غالية الثمن، وتتطلب جهدًا كبيرًا لتدريبها. وعندما يهرب صقر، فالمسألة لا تمر مر الكرام، مع ذلك كان المشهد الذى أمامنا بعيدًا عن الوقار حتى بلغ الأمر بكل من كانوا يرقبون ما يجرى من سياراتهم أن لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك.

ومن أجل مواجهة مثل هذه المواقف الطارئة على وجه التحديد يربط الصياد ريش جناحى الصقر لأنه لا يستطيع في هذه الحالة أن يطير لمسافات بعيدة، أما

صقرنا، فبعد أن نال منه الإعياء، اقتنع أنه خسر السباق، ورأيناه يحط على الجانب الآخر من التل. وأخيرًا حلق عائدًا إلى عدس، ولكن بعد كثير من المراوغة والدلال.

وبمرور الوقت، ومع ارتفاع الشمس، أصبح من الواضح أن حماس الصقرين لصيد أصابه الفتور. وعندما انتصف النهار كان كل منهما قد أمسك بثلاثة أو أربعة من الحبارى، وبعد أن التهم كل منهما جزءًا من لحم فرائسه لم يعد الجوع بالدافع الذى يحركهما للحركة، أما الصيادان من الناحية الأخرى فأحسا بأن تناول وجبة خفيفة في ذلك الوقت سيكون أكثر من مجرد ترحيب، ولذلك جلسنا على الأرض وتناولنا بعض الطعام، على سفح أحد التلال.

بعد فترة التوقف أثناء تناول الطعام، بدا وكأن الصقرين راغبان في استئناف العمل من جديد، فاتجهنا بسيارتنا إلى موقع للصيد لم يسبق أن توجهنا إليه. ونزع محمد الغمامة عن رأس صقره. وهو على قمة تل يطل على منخفض صغير، وهنا رأينا أكثر الأحداث إثارة للدهشة والعجب في ذلك اليوم.

كنت مع الصيادين على الجانب الخلفى من قمة التل، ووقفت إلى جانب محمد وهو ينادى على الحبارى، ورحت أتفحص الأرض التى تحيط بنا من كل جانب، ولكن المكان لم يكن به أى أثر لحياة يمكن أن تراه عين إنسان. ومع ذلك، لمحت عيون الصقر الثاقبة شيئًا، وفي ومضة خاطفة انطلق من قبضة الصياد وحلق صاعدًا في الجو. وراقبناه وهو يصعد ثم رأيناه يتوقف فجأة، ويحفظ توازنه بالاستناد إلى جناح لم يبسطه بكل امتداده. وأخذ يرفرف برهة، ثم، وقبل أن ندرك ماذا يجرى ضم جناحيه وانقض في حركة عامودية على الأرض، وكأنه قطعة ثقيلة من معدن هوت من حالق، وعندئذ تراءى لنا لون أبيض يطفو من بين الشجيرات حيث حبارى من مربضها ونشرت زيلها استعدادًا للقتال.

انقض الصقر على الحبارى وضربها في عنقها بساقيه، ثم كرر الضرب قبل أن تفيق فريسته، وقفزت الحبارى والصقر يواصل الضرب، وتمكنت من تجنب الهجوم

إلى حين، وسرعان ما التحم الطائران في قتال على الأرض، والصقر يحاول قتل الحبارى مصوبًا منقاره الحاد إلى رقبتها، بينما الحبارى تحاول رفع ذيلها لتصب على الصقر ذلك السائل الأخضر الذى لم يعد لديها من سلاح سواه ضد هذا الهجوم.

وترك الصقر فريسته ليحلق في الجو من جديد، وبدأت الحبارى تجرى وهي تترنح بين الشجيرات، ولكن الصقر انقض للمرة الثالثة، وكأنه طوربيد يعرف الطريق إلى هدفه. ونشرت الحبارى ذيلها ورفعته مرة أخرى، واستدارت ولكن مخالب الصقر أطبقت على رقبتها، وبعد صراع لم يدم طويلاً، سقطت على الأرض، وتتبعت محمد وهو يجرى ليحصل على الصيد، فوجد مخالب الصقر وقد اخترقت رقبة الضحية بعمق، حتى اضطر إلى إزاحة قبضة الصقر ومخالبه بالقوة. ليغطى الحبارى بدشداشته، ويدفع الصقر بعيدًا.

وخرجت سكين الصياد لتؤدى دورها مرة أخرى، وانضمت حبارى أخرى إلى حصيلة الصيد في ذلك اليوم.

الفصل الثالث عشر
الأمطـــار هي الحياة

الفصل الثالث عشر
الأمطار هي الحياة

طوال أشهر الخريف البارد والطويل في الكويت، يرنو العرب بأبصارهم إلى السماء كل صباح، يحدوهم الأمل ويترقبون ما إذا كان يومهم الجديد سيجلب معه مطرًا أم لا؟ وفي بعض الأحيان تزحف سحب كثيفة من الشمال الغربى ومن الجنوب، وعندما تسقط عليها شمس الخريف عند بزوغها في الصباح تصبغها باللون الأحمر وكأنها اشتعلت بالنيران في مشهد يأخذ بالألباب. ورغم ذلك، لا تهطل أى أمطار. وقرب نهاية نوفمبر يتكون ندى غزير في الليل ويتساقط على الأرض ليتمزج بالرمال السمراء الضاربة للصفار التى تغطى شوارع المدينة فيحيلها داكنة مقبضة في ضوء الصباح. ويتشبع هواء الفجر بالرطوبة، وتحت تأثير الندى، يدب النشاط في أوصال عدد ضئيل من النباتات في الصحراء فتتفتح براعمها الموسمية في استحياء وتكتسى الرمال بغلالة شاحبة من الخضرة في مواقع متفرقة.

ووصلت شائعة من العربية السعودية والمنطقة المجاورة تتحدث عن هطول الأمطار، فالأمطار هي المادة الأساسية لأى حديث يدور بين أهل البادية. والبدو الرعاة الذين يعيشون على الاكتفاء الذاتى يعتمدون على الأمطار قبل أى شىء آخر، وإلاّ استحالت الحياة بالنسبة لهم. لأن ماشيتهم وأغنامهم تلقى حتلفها إذا لم تجد الماء. وعندما يفقد البدوى الماشية والأغنام فهو لا يحرم من مصدر للطعام فحسب، وإنما يحرم أيضًا من الصوف والجلود التى يستخدمها في كثير من الأغراض ويبيع نسبة كبيرة منها في المدينة، ومن الواضح أن البدو لم يُبقوا على حياة أعداد من الجمال والماشية والماعز طوال أشهر الصيف إلاّ وهم يعقدون الآمال على أن تهطل الأمطار فيطيب الكلأ والعشب. أما عندما يتأخر هطول الأمطار، فالهزال يصيب الماشية، ويقترب شبح الجوع والفقر بخطى ثابتة من عرب الصحراء.

ولكن الأمطار ليست على هذه الدرجة الكبيرة من الأهميـة والحيويـة بالنسـبة لأهل المدينة الذين لا يرعون ماشية أو يربون أغنامًا، ولكنهم رغم ذلك يتمنون هطولهـا ويترقبونها في تلهف ورثوه عن أسلافهم البدو، وعندما تـأتي الأمطـار لا تقـل فرحتهـم وابتهاجهم عن فرحة البدو وابتهاجهم.

وذات يوم لا ينمحي من ذاكرتي أبدًا، كنت أركب حصاني بعد الظهر قـرب مغيب الشمس. كنا في أول ديسمبر، وكان الجو شديد الرطوبة والسماء ملبـدة بـالغيوم، وعندما نظرت جهة الغـرب حيـث تنخفـض السـحب لتقـترب مـن الأرض لتكسـوها بغلالة من الضباب الرمادى، رحت أفكر فيما إذا كنت سأتمكن من العـودة إلى المـنزل قبل أن تهطل الأمطار. وفي بطء كانت السحب تزحف نحـو المدينـة، وفجـأة شـعرت بالجو يتغير، وغمرنى انتعاش من نوع جديد كما لو كانت يد باردة تمسـح جبينـى في رفق وحنان. ويبدو أننا انتقلنا من الخريف إلى الشتاء خلال بضع دقائق فحسب. كـان السكون المطبق يخيم في كل مكان، والتوقع والترقب يسيطران على المشاعر، ولا تكـاد تسمع صوتاً، وكأنما احتبست الأنفاس. وأحسست أنا نفسى وكـأننى وقـت في شـرك من الصمت. وأما حصانى، وقد أحس بشيء ما في الجو، فأبطأ من خطاه، ثم توقف. وانتظرنا بضع دقائق، تدفعنا رغبة عامة إلى التصنت. وفجأة، تبدد السكون وتساقطت قطرات متسارعة من المطر على الأرض التى يكسوها الغبار.

وجفلت جنبات حصانى عندما مست أول القطرات بدنـه، وانطلـق يركـض، وبدون توجيه منى شق طريقه نحو المنزل، وهـو يسـرع الخطـى كلمـا تزايـدت سـرعة هطول الأمطار وسرعان ما غطت الأرض دوائر سوداء من الطمـى المشـبع بالمـاء، وأخـذ إيقاع الأمطار يتصاعد ويتعاظم حجم كل قطرة، وتتلاحم القطرات لتحدث صوتاً يـزداد قوة كلما ارتطمت بالأرض.

كان الجو مشبعًا برائحة الطمى الرطب، وبينما كنت في طريقى إلى المنزل عبر المدينة كان هناك في كل مكان إحساس بالارتياح لأن الحياة عادة من جديـد للإنسـان

والحيوان. وكانت النساء والغطاء يستر رؤوسهن تبسطن أيديهن للتأكد مما إذا كان المطر يهطل حقاً، بينما الأطفال يعلبون في الشوارع والطرقات ويضحكون في ابتهاج لا يستطيعون له تفسيرًا، ويشخصون بأبصارهم إلى السماء دون أن يفكروا لحظة في الاحتماء من المياه المنهمرة.

والابتهاج لهطول الأمطار إحساس غريب لا يعرفه أى بريطاني يزور الكويت، ولكن حرارة الصيف وغباره في هذه البلاد تدفع حتى الأجنبي إلى المشاركة في مشاعر البهجة التى تملأ قلب العربى عندما يستقبل أول أمطار الشتاء، تلك المشاعر التى تعنى برودة الجو، واخضرار العشب، والرخاء، وهي النعم التى يتوقع أن تعقب هطول الأمطار الوفيرة في تلك الليلة، ارتوت الأرض بمياه الأمطار ولكن ما كان في مقدورها، شأنها شأن الرجل الذى يكاد يموت عطشًا ولابد أن يشرب في بطء في البداية، أن تمتص كميات ضخمة من المياه، ولذلك كوّنت الأمطار الغزيرة المتساقطة على التربة التى لفحتها وجمدتها حرارة الصيف غدرانًا صغيرة تسيل لتفرغ حمولتها في البحر. وانهمرت من سطح التل الرابض وسط مدينة الكويت جداول تندفع فيها المياه إلى جميع الشوارع والطرقات، بينما السيول الجارفة تشق لنفسها قنوات عميقة في المنحدرات وتكتسح أمامها كل الأوساخ التى تتراكم في أزقة المدينة أواخر الفصل الجاف.

وأشرقت شمس اليوم التالى على مشهد مختلف، كان الإحساس العام بالفرحة يملأ الجو وكأنما اليوم يوم عيد. وكانت وجوه المارة تنطق بما يملأ الصدور من مشاعر. وحتى المدينة نفسها، التى اغتسلت من وحل وحل الصيف وأتربته، بدت وقد انتعشت من جديد. أما برك المياه المنتشرة في الطرقات فكان الأطفال يلهون فيها بمراكبهم التى يصنعونها من أنواع الأشجار وريش الطيور، بينما النساء في أطراف المدينة، حيث امتلأت الحفر بالمياه يغسلن ملابسهن فرحات بوفرة ما أنزله الله من أمطار.

وبعد حوالى الشهر، وفي يوم ٢٦ ديسمبر التالى لعيد الميلاد، توجهنا بسيارتنا إلى الصحراء لنرى أثر الأمطار على المناطق المجاورة. واتخذت مسيرتنا طريق الرياض صوب المنطقة التى ذكرت لنا مصادر أنبائنا من البدو أنها شهدت أكبر كمية من الأمطار في ذلك العام. وبعد أن عبرنا منخفضًا صغيرًا. فوجئنا بوجود طائر (الطهبوج) الرّمال الذى يهاجر عادة مجتازًا أراضى الكويت بعد سقوط الأمطار. وكانت هذه الطيور تتجول بحثًا عن الطعام بين روث الماشية المحيط بمجموعة من الجدران، وعندما سمعت صوت السيارة هبت في مجموعات وكأنها السحب، وملأت الجو بصياحها المميز (كاكا، كاكا).

وبعد فترة وجيزة، خرجنا عن الطريق وسلكنا أحد الدروب التى تمهدها الجمال أثناء سيرها. وكان هذا الدرب يمضى متعرجًا خلال آجام حشائش الثنده Thanda التى تغطى هذه المنطقة على وجه الخصوص. وبعد أن قطعنا شوطًا بعيدًا على هذا الدرب، فوجئنا بالمزيد من طيور (الطهبوج) وكانت هذه المرة من النوع شديد الضخامة، وما أن أحست بدنو سيارتنا حتى حلقت في الجو وهي تصفق في الجو بأجنحتها في ضربات قوية متلاحقة. وكانت تضاريس المنطقة لا تسمح بصيد أو مطاردة، ولذلك اكتفينا بمراقبتها وهي تبتعد محومة في تشكيلات دائرة، ثم تختفى عن الأبصار.

كانت الأمطار في تلك المنطقة غزيرة حقًا واستمرت لفترة طويلة، وتكونت البرك فملأت المنخفضات وأكسبتها لونًا رقراقًا كصفائح الفضة. وكانت قطعان من الماعز والحملان تتناثر هنا وهناك تستمتع بالعشب Esheb الأخضر الطازج، وهو من النباتات الصحراوية التى تنمو بوفرة في المناطق المتاخمة للماء. وكانت أول بركة نصل إليها قد جفت تقريبًا، ولم يتبق منها إلا بعض شقوق في الطمى تحتوى على آخر كمية من المياه التى تجمعت بها منذ سقوط الأمطار، وكان ستة من البدو يملأون قربهم من البرك الموحلة بينما تقف حميرهم في انتظارهم في صبر واستكانة، وكانت فتاة

ترتدى عباءة سوداء وقدماها في الوحل تجمع الماء لتصبه في وعاء مصقول من الفخار، وكانت تبذل نوعًا من الجهد اليائس وكان آخر البرك يوشك أن ينضب معينه أمام ناظريها.

وكان من الواضح أن الأرض في هذا الموقع ليست على درجة كافية من التماسك تسمح بالاحتفاظ بالماء لفترة طويلة، ولكن البرك في مواقع أخرى استمرت لما يزيد عن الشهر دون أن تبدو عليها أى بادرة توحى بتقلص حجمها. والصعود إلى قمة تل في الصحراء والتطلع إلى المساحات الشاسعة من المياه وهي تعكس ما يتساقط عليها من أضواء أثناء الليل، مشهد يبعث البهجة في الصدور. وعلى امتداد الفصل الجاف الطويل تنخدع أعين المسافرين في الصحراء عندما ترى السراب الذى يبدو وكأنه ماء، أما أن ترى على البعد بركة لاشك أنها تحتوى على ماء حقيقى فهو أمر أشبه بتحقق حلم، أو كأن روح الأمل المخادع للسراب تعبت من مواصلة اللعبة، فسمحت لشبحها الوهمي أن يتجسد ماءً حقيقيًا على أرض حقيقية، ولما كنا على يقين من أن ما نرى إنما هو بركة ماء وليست وهمًا أو خيالاً، كان من الطبيعى أن تعترينا تلك الفرحة التلقائية التى تجعلك تنطق مع البدو (الحمد لله). والسراب وليد الجو الحار، عندما يمحو القيظ اللافح معالم الأشياء ويشوه الأشكال البعيدة. أما في صباح يوم من أيام الشتاء، والجو صحو تشيع فيه البرودة، فليس هناك ما يدعو للشك في مصداقية ما تراه العين. وإن بركة تتكون في منخفض من الأرض، وقطع بما تحتويه من ماء، لهي الوعد الذى أنجزته السماء بالخصوبة والحياة.

في ذلك الصباح المشبع بالبرودة من شهر ديسمبر، وصلنا إلى بركة من هذا النوع على وجه التحديد، وعندما دُرنا حول أطرافها الموحلة، رأينا بطة برِّية تهب من فوق سطح الماء. فالبط المهاجر إلى الهند يجد الترحيب والمأوى في البرك التى تكوّنها الأمطار في الكويت، وإذا استمرت هذه البرك لوقت أطول، فسرعان ما تتجمع فيها الطيور المائية من كافة الأنواع، وبأعداد كبيرة. وترجّلت من السيارة ومشيت حول

البركة لأدفع البطة إلى حيث يقف أبى متأهبًا وفي يده بندقية. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت ناقة تقف منفردة تتشمم شيئًا بين قدميها، بدا من بعيد وكأنه بعض المتاع، وعندما ازددت اقترابًا منها، رأيت أن هذا الشيء إنما هو جمل صغير حديث الولادة، يرقد ممددًا فوق الطمى، وساقاه الضعيفتان أوهى من أن تحملانه.

ونظرت من حولى أبحث عن قطيع الجمال، وكما دُهشت عندما أدركت أن هذه الناقة تُركت وحدها مع وليدها دون عون أو رفيق. وعلى بعد بضع ياردات، كانت هناك على حافة البركة كومة من أمتعة البدو وبعض قِرَب الماء، وعندما أمعنت النظر فيما أرى خرج من طيات الكومة اثنان من البدو، تقدما نحوى مرحبين.

قال البدوى: يا لله حياها، ثم تقدم رجل من أبناء القبيلة أكبر سنًا يتبعه شاب وقد مد يديه نحوى، وكان الأسلوب العربى السائد للترحيب هو التقدم نحو الغريب والحديث معه وإلقاء عبارات الترحيب الودية.

وأخبرونى أن الناقة وضعت وليدها ذلك الصباح، وأنهم يحمدون ا لله على ما أنزله من مطر وفير، وما وهبه لهم من حياة جديدة.

ظلت آبار المياه العذبة في الصحراء، ولأجيال لا حصر لها تخدم البدوى الذى يمارس الرعى هو وأسرته وماشيته. ونظرًا لندرة المياه العذبة في شبه الجزيرة العربية، اكتسبت هذه الآبار قدرًا من الأهمية يكاد يصل إلى التقديس في أعين البدو. رغم أن آبار البترول من الناحية النظرية، حق مشاع يستطيع أن ينهل منها كل من يفد إليها دون أن يدفع شيئًا، إلاّ أنه حدث في بعض المناسبات أن اعترضت بعض القبائل التى لها تقاليدها الخاصة في الحصول على الماء من آبار معينة، على استخدام الوافدين من الخارج لهذه الآبار، بل ولجأت إلى القتال وإراقة الدماء تأكيدًا لحقوقها المطلقة.

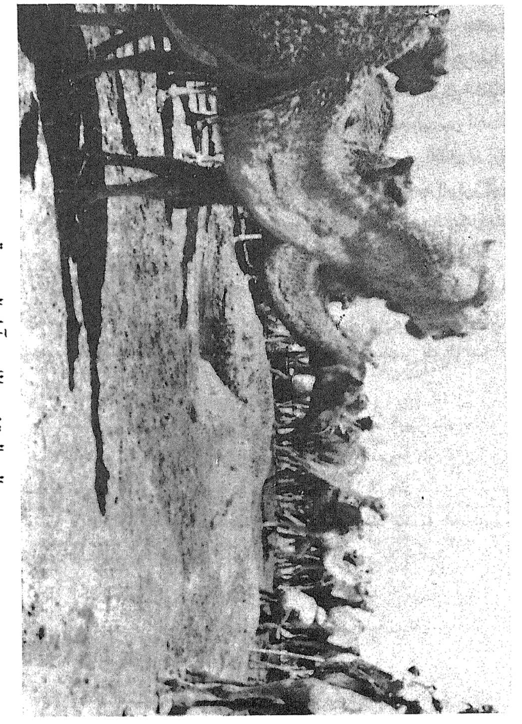
ولعل الماء هو أكبر أسباب النزاع بين أبناء القبائل في الصحراء، وتزويد الحيوانات المشرفة على الموت عطشًا بالماء أمر بالغ الأهمية والحيوية بالنسبة للبدو، حتى يبلغ الأمر بالبدوى – وهو المشهور عادة ببطء الحركة والرزانة في التصرف وعدم

العجلة، والحذر في حديثه ومسلكه - أن يتحول إلى كائن مختلف كل الاختلاف عندما يتوجه بجماله وأغنامه إلى البئر، فهو ينزع أرديته الخارجية التى ربما أعاقته عن رفع الماء، ويعقد إزاره على خاصرته، وينكب على العمل بكل طاقة وتركيز، ويتعالى صوته وهو يصدر التعليمات لرفاقه الرعاة أو للنداء على حيواناته. إن كل خطوة يقدم عليها الآن تتركز في اتجاه واحد دون سواه، هو أن يملأ ما يحمله من أوعية بأقصى سرعة ممكنة، وضمان ارتواء حيواناته حتى الامتلاء، ثم إفساح المكان لغيره دون تلكؤ أو وقوع ما يكدر الصفو. وهناك قواعد صارمة ينبغي مراعاتها عند البئر، لأن الالتزام بالخطوات المتفق عليها منذ القدم عند ممارسة عملية ارتواء الجمال بكل ما تتسم به من إلحاح وتسببه من مشقة، يوفر الجهد ويقطع كل الجدل. فيجب على كل راع أن يرفع الماء الذى يلزمه، وأن يبعد حيواناته عن أوانى القطعان الأخرى. وأما الوافد الجديد الذى يطلب من بدوى أن يرفع له الماء من البئر، فهو لا يستقبل بالترحاب، ويمكن لجهله بالقواعد التى يجب اتباعها أن ينتهى به إل تبادل اللكمات والشجار مع الاخرين.

وفي أحد الأيام، قرب نهاية شهر مارس، وجدنا حشدًا كبيرًا من الجمال يتجمع حول آبار الصبيحيه Subahiyah وهي من أفضل الآبار المعروفة وأوفرها ماء في أراضى الكويت، وكان اثنان من البدو لا يستر جسد كل منهما إلا جلد أسد، وشعرهم الطويل يتطاير في الهواء يرفعان الماء ويصبانه في خزانات من الجلد لتقديمه لقطعانهما، بينما يتزاحم حول البئر عدد كبير من الجمال التى تخور وتزمجر بلا توقف.

وعلى أحد الجانبين، بجوار الحيوانات التى تلاصقت حتى بدت ككتلة واحدة متماسكة، كانت امرأتان غير منقبتين من قبيلة المنتفق تملآن القرب، بعد أن رفعتا الماء من البئر وصبتاه في وعاء مستدير ضخم.

وعلى امتداد السهل المسطح الذى يحيط بالآبار، والذى اكتسى بخضرة نباتات الربيع في ذلك الوقت من السنة كانت أعداد أخرى من الجمال تدنو من الماء.



الجمال تشرب الماء من آبار الصبيحية



اثنتان من السيدات المسافراتِ من قبيلة المنتفق تملآن القِرَب بالماء

وكانت الجمال العطشى تسرع الخطى عندما تقترب من وجهتها، وقد راقبناها وهي تأتي إلى البئر، الواحد تلو الآخر، وهي تركض في قفزات سريعة وأعناقها ممتدة أمامها في لهفة وتشوق. وكان هناك أحد الرعاة الشباب يجثم عارى الظهر وراء سنام جمله، ويشدو بأغنية بدوية مرحة لا يمكن فهمها، ويدفع بحيواناته نحو الماء، ولكنه توقف عن الغناء عندما وصل قطيعه إلى موقع البئر، وبدأ يحدو جماله بالنداءات القديمة الغريبة للبدو.

انطلقت نداءات الراعى، وتقدم البدو المنتشرون بلا نظام عند نهاية صف الجمال وتجمعوا حوله وهو يوجه قطيعه نحو البئر، حيث تمكث بعض الوقت إلى أن يحين دوره للحصول على الماء.

وفي هذه الأثناء، كان البدويان المجردان من ملابسهما يرفعان الماء بلا كلل، وعندما يمتلىء أحد الأحواض تتزاحم الجمال العطشى حوله في سباق محموم حتى تبدو وكأن البعض منها الذى اتخذ مكانه في وسط القطيع سوف يسحق سحقاً تحت ضغط الأخرى التى تندفع إلى الأمام من الأطراف الخارجية. وشربت الجمال إلى أن ارتوت، بينما هى تصدر أصواتاً متحشرجة. وكلما ارتوى أحدها نهض وهز رأسه في الجو والماء يسيل من بين شفتيه.

والجمل، كما هو معروف حيوان يختلف من الناحية الفسيولوجية عن غيره من الحيوانات، حتى يستطيع العيش في الصحراء. وهو يختزن في سنامه احتياطيًا من الدهون يعتمد عليه في الصيف عندما يشح الطعام، كما يمكنه على نفس النحو اختزان احتياطى من الماء في جسمه، وبينما تشرب الثدييات الأخرى الماء وتمتصه في أجهزتها، فالجمل – بعد أن يمتص ما يكفيه لإشباع احتياجاته المباشرة – يستمر في شرب الماء وتخزين الفائض في معدة من نوع خاص، مستخدمًا هذا الاحتياطى في الوقت الذى يتحتم فيه على الحيوانات الأخرى أن تتوجه إلى الآبار للحصول على الماء. وفي أشهر الشتاء والربيع، إذا ازدهرت المراعى وحصل الجمل على كمية وفير من

الرطوبة من طعامه الأخضر، فهو لا يشعر بالحاجة إلى تناول الماء إلاّ مرة واحدة في الشهر. أما في الصيف، عندما يجف الطعام وترتفع درجة الحرارة ارتفاعًا شديدًا، فلابد له من أن يشرب عدة مرات مثل الحيوانات الأخرى. والبدوى يقدم الماء لجمله ليشرب كل يوم إن أمكن في أشد أيام الصيف حرارة. أما إذا لم يتمكن من ذلك، فيشرب الجمل مرة كل يومين دون أن يبدو عليه أى إرهاق أو تبرم.

ومن العادات الشائعة في البادية أن يوضع الوسم Wasm على جسم الجمل - وهو نقش مميز ترسمه كل قبيلة أو أسرة كبيرة على حيواناتها، وهناك بين هذه الجمال عدد يحمل الوسم السعودى الملكى، وهو عبارة عن خط عامودى بين دائرتين صغيرتين. وهناك اتفاق غير مكتوب بين الكويت والعربية السعودية يسمح للبدو من الجانبين باجتياز الحدود إذا توفر الكلأ الجيد خارج أراضيهم. وفي ذلك الربيع، كان المطر في الكويت أفضل منه في العربية السعودية، فأرسل الملك عددًا كبيرًا من جماله لترعى في مناطق الكلأ الجيد في الكويت. وقبل ذلك ببضعة أسابيع، كنا قد توجهنا إلى الشق Shaqq، وهو ذلك الوادى الصحرواى الفسيح الممتد على بعد ستين ميلاً غربى مدينة الكويت، ورأينا فيه الجمال تغطى الأرض إلى مدى البصر. وكانت جمال شيخ الكويت نفسه هناك، ومعها القطعان الضخمة من ممتلكات ابن سعود.

كانت الجمال في كل مكان، ولم يسبق لى طوال حياتى أن رأيت هذا العدد متجمعًا في مكان واحد. وكانت تتجول بالمئات في الصحراء في كل جانب وقاماتها السامقة تسد الأفق البعيد. كانت هناك جمال سوداء، وجمال بنية، وجمال هزيلة مازالت بلا سنام بعد الصيف العسير، وجمال ممتلئة بعد أن حصلت على غذائها من براعم العرفج، وأردافها الثقيلة تتمايل على الجانبين، وجمال حديثة الولادة صغيرة الحجم تلهو إلى جانب الأبوين وتجرى في جماعات وسط القطع، أو تجثو على ركبها لترضع من ضرع الأم المكتنز المستدير.

والجمال تنتمى للصحراء كما ينتمى إليها البدوى، ولا غنى لأى منهما عن

الآخر. فبدون الجمل الذى يوفر الطعام ووسيلة الانتقال لا يمكن للبدو الرعاة أن يعيشوا، بينما يمكن للجمل نفسه أن يلقى حتفه إذا لم يوفر له الإنسان الطعام والماء في الصيف عندما تخلو الصحراء تمامًا من أى أثر لعشب.

والجمال هي الثروة في شبه الجزيرة العربية، وامتلاكها يحقق المكانة السامية للفرد أو للقبيلة. والجمل لا يُقدر فحسب كحيوان شديد القدرة على التحمل، أو كمصدر للبن واللحم، بل إن روثه أيضًا يستخدم كوقود، وتغسل النساء شعورهن ببوله، إلى جانب النوعية العالية لوبره الذى يحظى بالإعجاب في جميع أنحاء العالم. إلى هذه الدرجة يحظى الجمل بالتقدير، بل وبلغ الأمر بالبدوى إلى أن يعتبر بيع وبر الجمل من أجل الربح عملاً مشيناً. فالمرأة البدوية تغزل الصوف لاستعمالها الخاص، أو لتقديمه هدية للآخرين، ولكنها لا يمكن بأى حال أن تبيعه كما يُباع صوف الأغنام في أسواق المدينة.

الفصل الرابع عشر
المنتفق يرتحلون نحو الجنوب

الفصل الرابع عشر
المنتفق يرتحلون نحو الجنوب

عندما تنزل الأمطار في الكويت، ترتحل قبائل الرعاة العراقية، شمّر والمنتفق، إلى الجنوب لرعى أغنامها وماشيتها في أراضى الكويت. وفي فصل الشتاء تبذر حقول القمح والشعير الممتدة على ضفة الفرات من جديد. وهناك اتفاق قديم غير مكتوب بين الزرّاع والرعاة، بأن تهاجر الماشية في هذا الفصل إلى الجنوب، حتى لا تصيب المحاصيل الزراعية بأى أضرار. وبناء على ذلك، تهاجر هذه القبائل العراقية، هجرة جماعية كل عام إلى الكويت، يسوقون أمامهم أغنامهم العراقية ذات اللونين الأبيض والبنى.

في تلك الأيام، أثناء عمل والدى كمسئول سياسى في العراق بعد حرب ١٩١٤ تعرّف على فزاع بن هندال Fezza'a bin Hindal وهو أحد زعماء بنى مالك Bani Malitch أحد بطون قبيلة المنتفق. وعندما علمنا أنه سيضرب خيامه في أوائل العام الجديد شمالى الكويت، في موقع ما على طريق البصرة، قرر والدى – كعادته – أن يتوجه للبحث عن مضرب خيام صديقه القديم.

ومررنا ونحن في طريقنا نحو الشمال بعديد من الخيام، وكانت كلها سوداء، ولكن لم ينقض وقت طويل حتى رأينا خيمة تجمع بين اللونين الأسود والأبيض، فتوقفنا لنسأل عن أخبار فزاع بن هندال. ومن المعروف أن البدو الكويتيين لا يربّون أغنامًا بيضاء اللون، ولذلك فخيامهم دائمًا سوداء، وبالتالى فوجود أى قطع بيضاء من النسيج في تكوين أى خيمة يعنى أن مالكها عراقى، وعندما اقتربنا من هذه الخيمة نهض شاغلها للترحيب بنا. كان يتحدث اللغة العربية بلهجة عراقية، وأخبرنا أن هندال غيّر مكان مضربه منذ عدة أيام، ثم أشار إلى تل قريب وحدد لنا الاتجاه الذى يجب أن نسير عليه إذا أردنا العثور على صديقنا.

وقبل أن نصل إلى وجهتنا، توقفنا مرة أخرى لنسأل عن الطريق، ولكن الخيمة التى توقفنا أمامها لم تكن تأوى إلاّ سيدة بمفردها. وعندما اقتربت السيارة راحت تتطلع إلينا في تشكك، لأنها عراقية، لم تكن محجبة. وترجّل أبى من السيارة واقترب من الخيمة، ولكن قبل أن يخطو خطوتين كانت السيدة قد هبت منتصبة على قدميها وغادرت الخيمة، وهرولت في الاتجاه المضاد. وعندما نادى عليها، نظرت حواليها وردّت عليه دون أن تتوقف، فوجود سيدة بمفردها في خيمة واقتراب شخص غريب بريطاني، على حين غرة، يجعلها تجفل كما يجفل حيوان الصحراء، ويدفعها إلى الهرب. وسألها أبى عمّا إذا كانت تعرف مكان ابن هندال، ولكنها لم تحر جوابًا. ثم عادت لتسأله من يكون، ويبدو أن اسم ديكسون الذى يعرفه جميع البدو تقريبًا في المناطق المتاخمة للكويت، طمأنها بعض الشىء، وعلى أى الأحوال، فقد أبطأت خطاها، وأشارت إلى السلسلة التالية من التلال ردًا على سؤالنا. ولكن ما أن خطى أبى خطوة أخرى في اتجاهها حتى ابتعدت لتحافظ على المسافة التى تفصلها عنه بكل ترقب وحذر.

وعندما وصلنا إلى قمة التل، سعدنا أن نرى أمامنا خيمة تبدو مشابهة لتلك التى نبحث عنها. وركضت ثلاثة كلاب وهي تنبح حول السيارة. وعندما اقتربنا لمسافة أخرى، وقع بصرنا على شخص طويل القامة يلف رأسه بالكوفية Kofiyah العراقية ذات النقوش الزرقاء، يقف أمام الخيمة، كان ابن هندال نفسه. وبسرعة مدّ ثلاثة من أبناء هندال السجاد ووضعوا الوسائد لنا في الجناح المخصص للرجال في الخيمة. ثم أضافوا الوقود إلى نار المخيم، وبدأ أحد رجالهم يطبخ حبوب البن فوق روث الجمال المتأجج. وخلال بضع دقائق تفتحت الحبوب واكتسب باللون البنى، نصبت في هاون وبدأ أحد الأبناء يسحقها بضربات قوية من القضيب المعدنى. وعندما اكتملت عملية السحق، أخذ يضرب جوانب الهاون بالقضيب المعدنى، فيجلجل الصوت الصادر عن هذه الضربات كالناقوس، معلنًا لجميع من يسمع من النازلين في

الجوار أن ثمة قهوة تُعدّ لتقديمها لكل من يرغب.

وبالفعل، بدأ الأغراب الذين رأو سيارتنا وسمعوا رنات الهون يتقاطرون إلى خيمة هندال. وكلما اقترب زائر، كانت مجموعة الرجال الملتفين حول النار تتمتم بكلمات الترحيب بينما يهب المقيمون في الخيمة لاستقباله. وإذا كان القادم من أقاربهم أو جيرانهم، يقبله رجال الخيمة فردًا فردًا، أما إذا كان غريبًا فيكتفون بالمصافحة، ثم يضع كل منهم راحة يده على موقع قلبه تعبيرًا عن المودة

وعندما عرف هؤلاء المهاجرون العراقيون أننا قادمين من المدينة أرادوا أن يعرفوا آخر أنباء الكويت: ماهى أسعار الصوف؟ والزبد؟ وكيف حال الكلأ في الجنوب؟ ولكن حتى عندما جلسنا معهم كانت قطرات المطر تتساقط على الخيمة والسحب الرمادية المنخفضة تحجب الشمس لتبشر بمرعى جيد للماشية العراقية.

وبعد ذلك، توجهنا أكثر من مرة لزيارة هندال، وكان الرجال المتقدمين في السن يحبون حديث الذكريات مع أبى حول الأيام الخوالى على ضفاف الفرات، بينما تجلس أمي وأنا معها مع النساء، أو نتضاحك مع (عليّ)، أصغر شبابهم، ونداعبه لأنه الآن في التاسعة عشرة من عمره، ولم يتزوج بعد.

وعندما وصلنا إلى خيمتهم ذات مرة، لمسنا حالة من التوتر الشديد تسود الجو، ورأينا أن جميع الرجال يحملون بنادقهم. وما أن اتخذنا مجلسنا حتى سألنا ابن هندال عما إذا كنا قد سمعنا أى شيء في الآونة الأخيرة عن جريمة قتل جرت في اليوم السابق.

والقبائل العراقية تشبه أهل كورسيكا في ضراوتها وإيمانها الراسخ بأن الدماء لا تُفتدى إلا بالدماء، وذات يوم علمنا أن شابًا من قبيلة الرفاعية Rifai'at وهي من بطون المنتفق – سبق أن قتل منذ عشر سنوات أحد أبناء قبيلة شمر في العراق، ومنذ ذلك التاريخ كان شقيق القتيل لا يكف عن البحث عن القاتل. وبعد عشر سنوات، التقى به في اليوم السابق وهو يرعى أغنامه وحده في أحد الوديان، ولما كان طالب الثأر

يمتطى صهوة جواده، بينما المطارد يمشى على قدميه، لم يكن أمام القاتل الرفاعى أى سبيل إلى الهرب. وكان ابن قبيلة شمر ينتظر هذه اللحظة منذ عشر سنوات، ولم يتردد عندما لاحت الفرصة، فأطلق الرصاص على غريمه فأرداه قتيلاً، وتركه طريحاً على الرمال حيث سقط.

ويقال أن الآخذ بالثأر اتجه صوب الغرب على جواده. ولكن رغم وصول نبأ الجريمة إلى شيخ الكويت في الوقت المناسب، وخروج الدوريات الراكبة للبحث عن الجانى، إلاّ أنه لم يُعثر له على أثر.

كان هذا الحدث الذى وقع في اليوم السابق هو الذى أشع التوتر بين أبناء القبائل العراقية. فإراقة الدماء تؤدى إلى المزيد من إراقة الدماء. وبالرغم من أن الأزمة كانت بين شمر والرفاعية، بينما الهندال من بطن لا علاقة له بالأمر، إلاّ أن القبائل الثلاث تنتمى إلى المنتفق.

والعراقيون سريعو الغضب بطبيعتهم، وهم متهورون قساة القلوب، ورغم أنهم أقل بداوة في حياتهم في العراق عن سكان وسط الجزيرة العربية، إلا أنهم يحتفظون بكل الضراوة البدائية لشعب كُتب عليه أن يقاتل من أجل البقاء لعدة قرون، ومن السهل أن يندفع إلى العنف وسفك الدماء، ومنذ خمسة وعشرين عامًا، كانت عائلة هندال نفسها توشك على الانقراض عندما أدى النزاع بين أطرافها إلى معركة استخدمت فيها البنادق. ويقال أن أحد شباب الأسرة كان على علاقة حب بفتاة من قبيلة أخرى، ورفض أن يتزوج من ابنة عمه، وهي الفتاة التى اختارها له والده. وفي اليوم الذى شهد المأساة الدامية، تجمعت الأسرة بكامل عددها في مجلس لمناقشة المسألة، والسعى لإذعان الشاب العاق لصوت العقل. ولكن لم تفلح أى حجة من الحجج التى ساقها كبار السن من الأسرة في زحزحته عن إصراره على أن يختار طريقه بنفسه، وأخيرًا، وفي فورة غضب طائشة وعنيفة، أمسك أحد المتقدمين في السن بغدارته وأطلق الرصاص على قريبه الشاب فأرداه قتيلا على الفور. وأثارت الطلقة كل

الضراوة الكامنة في الهندال، وأخذ كل الرجال الذين تواجدوا في هـذه المناسـبة يطلقـون رصاص مسدساتهم بلا تردد أو توقف على أفراد الأسرة المتجمعين. ولم ينـج مـن هـذه المذبحة إلا شخصان، وأما ثالث الذكور من الهندال الذين ظلوا على قيد الحيـاة فكـان في المدينة وقت وقوع المأساة الدامية. وقتل في ذلك اليوم أيضًا ثمانية رجال من القبيلـة الأخرى، إلى جانب الفتاة محل النزاع، وكـانت مـن بـين مـن دُعـوا لحضـور اللقـاء. ولازالت هناك ثمانية قبور نراها في الصحراء تميزها شواهدها التى قـدت مـن الحجـر الأبيض، إلى جانب التل، كنصب تذكارى لهـؤلاء الرجـال مـن الهنـدال الذيـن لاقـوا حتفهم في ذلك اليوم.

والآن يتذكر الجميع هذه المسألة الفاجعة وهم يشعرون بالخجل، ولا يهتمـون بالحديث كثيرًا عنها. وعندما سألت محدثى ذات يوم عمّا إذا كـانت سنّه، في ذلـك الوقت تسمح له بتذكر أى شىء مما جرى في ذلك اليوم الرهيب، أجاب أنه كان طفلاً صغيرًا، إلا أنه مازال يستطيع أن يتذكـر صـوت الطلقـات، ولازالـت ذاكرتـه تحتفـظ بمشاهد رجال أصيبوا في بطونهـم، لأنـه لا يمكـن أن ينسـى أبـدًا اللـبن الـذى شـربه أحدهم منذ وقت قريب، وهو يتدفق من الجرح.

وأبناء قبيلة المنتفق يختلفـون في تكوينهـم الجسـمانى عـن بـدو شـبه الجزيـرة العربية، فهم يأكلون وفرة من الطعام في بلادهـم، والرجـال منهـم طـوال القامـة أشـداء البنية، ولا تحمل وجوههم تلك الملامـح الهزيلـة الكئيبـة لبـدو شـبه الجزيـرة. وعلـى خلاف البشرة الداكنة الشاحبة لبدو الصحراء الحقيقيين، يتميز أبناء القبـائل العراقيـة ببشرة سمراء ضاربة إلى الحمرة، مثل بشرة الهنود الأمريكيين. أما وجوه نسائهم وهـن غـير محجبـات، فهـى مـن نفـس اللـون، أو أغلبهـن مـن ذوات الوجنـات الممتلئـة، وأمارات الصحة تطل من بشرتهن المشربة بلون الورد.

ونساء الهندال تملن إلى المرح، والبسـمة لا تفـارق شـفاههن أبـدًا، وهـن علـى استعداد دائم للمشاركة في المرح، وجميعهن ينقشن وجوههن بالوشم على الذقـن وعلـى

الجبهة، وأيضًا مكان الحواجب بعد إزالتها، وهن شديدات الولع بـالحلي ويصلـن في ذلك إلى حد الإسراف، فالأصابع مثقلة بالخواتم، والرسغ محاط مـن الأسـاور الفضيـة المطعمة بالأحجار الكريمة، ومن أجل أن تستكمل كل منهن زينتها نجد مجموعة مـن الروبيات الفضية التى يربط بينها سلك معدنى، تتـدلى مـن داخـل شـعرها علـى أحـد كتفيها. وكانت العملات كلها من فئة جنيه جورج الخامس، وهي العملـة المسـتخدمة في العراق أثناء الانتداب البريطانى بعد حرب ١٩١٤.

قالت إحدى الفتيات وأنا أتفحص سلسلتها: هذه روبات قديمة، أما الجديدة فليست جيدة، وليس بها أى مقدار من الفضة.

وفي مناسبة أخرى، التقينا بالهندال وهم يسيرون إلى جانب حميرهم المحملـة بالأمتعة، فمكثنا معهم لنرى كيف يضربون خيـامهم. كـان علـيّ يقيـم معنـا في منزلنـا بالمدينة، وعندما خرجنا به ليعود إلى أسرته، التقينا بالهندال وهم على وشـك الانتقـال إلى موقع جديد لمضاربهم. ووقفنا نلقى نظرة على المكان من أعلى قمة تل، فرأينا أمامنا قطيعًا من الحمير المحملة بالأمتعة يمشى مجتازًا السهل. ولم ندرك في بادئ الأمـر أن هذه الجماعة من الهندال، واقتربنا منهم ونحن نعـتزم سـؤالهم عـن الطريـق، ومـا أن التقينا بهم حتى تحققنا أنهم هم الأسرة التى جئنا بحثًا عنها.

وعندما اقتربنا منهم لمسافة أكبر قفز عليّ مـن السيارة وقبّـل والـده وإخوتـه، وفجأة أحاطت بنا مجموعة من النساء، وحشد من الحمير والكلاب التى لا تكف عـن النباح، والأطفال الذين يركضون في مرح في كل اتجاه، وبدأت الأسرة في إقامة المضرب حيث نقف.

ورأينا رضيعًا من خُرْجْ حمار، والدواجن الحيّة تتدلى أرجلهـا مـن بـين قطـع المتاع التى تراخـى رباطهـا، وأنواعًـا مختلفـة مـن الصنـاديق والحقـائب توضـع علـى الأرض. وأخيرًا مدوا النسيج البنى لهيكل الخيمة، وخلال عشر دقـائق فحسـب رفـع مسطحها، وتدلنا منه الحبـال، وأسـدلت الفواصـل التـى تقسـم الخيمـة إلى أجنحـة،

وبسط على الأرض أحسن ما لديهم مــن سجاد، وأوقدت النـار، وبـدأ إعـداد القهـوة للزائرين. حقاً، كان هذا الذى نراه مثـالاً رائعًـا للعمـل الجمـاعى والتعـاون، واكتملـت المهمة بأقصى سرعة، ومع الحد الأدنى من الارتباك.

وبينما نحن جلوس لنيل قسط من الراحة في ظل الخيمة، أخذت أراقب عليّ الذى كان يوزّع على الأطفال الهدايا الصغيرة التى أحضرها معه من المدينة، ثم أخـرج من جيبه حفنة من البندق وهو ينحنى أمام غلام صغير، ابن اخته، ونظر إليــه الغـلام وكأنه يتوقعها، فطلب منه على أن يبسط طرفًا من كوفيته ليضع فيها البندق، ثم شرح له كيف يربطها على شكل صرة. وانحنى ابن اخت الصغـير بسـرعة وقبّـل يـده، ثـم انسحب في استحياء إلى أحد أركان الخيمة، بينما تقدم الأطفال الآخرون ليحصل كـلٌ منهم على هديته، في دوره.

وفي منتصف شهر أبريل كانت أغلـب القبـائل العراقيـة قـد غـادرت الكويـت راجعة إلى بلادها، وفي ذلك الوقت أيضًا كان أكثرها قـد جـزّ أغنامـه لبيـع صوفهـا في الكويت قبل بدء رحلة العودة.

وفي يوم ٩ أبريل جاء فزاع ليخبرنا أنه سيجزّ صوف أغنامــه في اليـوم التـالى، ودعانا لتناول العشاء في مضربه عندما ينتهى الجزّ.

والمنتفق يقارنون بين أسـعار الصـوف في العـراق وأسـعاره في الكويـت قبـل أن يجزّوا أغنامهم. وهم يفضلون إنجاز هذه العملية في الكويت لأن الأغنام تتحرك وتمشى في همة ونشاط أكبر في الجو الحار عندما يُجز صوفها. وأما إذا كانت الأسعار في العراق هي الأفضل، فهم يتوجهون إلى الشمال ويجزّون أغنامهم في الزبير، ويبيعـون صوفهـم بها، ثم يستكملون رحلة العودة إلى وسط بلاد ما بين النهرين.

وفي ذلك اليوم على وجه التحديد كانت الأسعار مجزيــة في الكويـت. وعندمـا توجهنا إلى الشدادية Chedadiyaha وهي موقـع علـى بعـد سـبعة أميـال مـن المدينـة حيث يقيم فزاع مضربه، وجدنا أن جميع الرعـاة العراقيـين قـد انتقلـوا بمضـاربهم إلى

مواقع قريبة من المدينة حتى لا يضطرون إلى السير مسافات طويلة لتوصيل الصوف إلى السوق. وفي طريقنا مررنا بالعديد من قطعان الأغنام، بعضهـا تم جـزّه والبعـض لم يتـم بعد.

كان فزاع يقف خارج خيمته ليرحب بنا عند وصولنا بينما تجمع من خلفه ما بدا وكأنه كل أفراد أسرته من أشقاء وأعمام وأخوال وأبناء عمومته، أى جميـع الذكـور الذين أقبلوا للمشاركة والمساعدة في عملية جز الصوف.

وبعد عبارات الترحيب التقليديـة، دخلنـا الخيمـة وجلسـنا، وكـان الصـوف الذى تم جزه في ذلك اليوم مكدسًا في أحـد أركـان الخيمـة، ومقسـمًا إلى قسـمين وفقًا للونـين الأبيـض والبنـى، وتحسسـنا الصـوف بـأطراف أصابعنـا فوجدنـاه مليئـاً بالأشواك.فقلنا لفزاع، مازحين، أن صوفه لن يحقـق إلاّ سـعر منخفضًا لعـدم نقائـه، ولكنه كان على ثقة من نفسه، وتغمره البهجة، فقال: إن لدىّ من الصوف ما يتجـاوز سعره ألف روبية.

وفي السنوات الأخيرة، أخذ الرعاة يسعون للحصـول علـى أفضـل الأسـعار في الكويت، لأن التجار الكويتيين يقومون الآن بتصديره إلى أمريكـا. ومنـذ بضـع سـنوات عـرض الأمريكيـون أن يدفعـوا سـعرًا أعلـى إذا أمكـن تنقيـة الصـوف مـن الأشـواك، وتخليصه من الشوائب قبل تصديره، ولذلك قام كبار التجار باستئجار عدد من النسـاء لغسل الصوف في ماء البحر وتخليصه من أية عوالق غريبة.

وبينما نحن في انتظار إعداد وليمة العشاء عرض علينـا أبنـاء فـزاع تلـك الأداة الغريبة التى يستخدمونها في جزّ أغنامهم، سكينان مربوطتـان ببعضهمـا البعـض مـن المنتصف تستخدمان وكأنهمـا مقـص بدائـى، وتسـمى هـذه السـكين بـالزو Zo، ومـن الواضح أن استخدامها بطريقـة فعالـة كـان يحتـم توفـر قـدر معـين مـن المهـارة فيمـن يستخدمها. وكشف لنا فيصل ابن أخو فزاع، عما في يديه مـن قـروح وآثـار للجـروح، وقال أنه قام وحده بجز عشرين شاة.

وقبل مغيب الشمس، جلبوا الطعام، ولكن عشاء لم يدعونا لأن نأكل مع بقية المجتمعين لديه في ذلك اليوم، وإنما قُدم الطعام لهم وحدهم في البداية، فرأينا اثنين وعشرين شخصًا عضهم الجوع يتجمعون حول إناء الأرز واللحم، ويأكلون وهم في قمة المتعة. وبعد ذلك قدم لنا الطعام وحدنا في إناء أصغر حجمًا. وبينما كنا نأكل جلس مضيفنا معنا وأخذ يصب اللبن الرائب (المتخثر) فوق الأرز على نحو ما يفعل العراقيون، ويتناول الأجزاء من اللحم ينزعها بنفسه من الكمية المكدسة بالإناء، ولكنه لم يأكل معنا، لأن البدوى يرى أن من واجبه كمضيف أن يخدم ضيوفه أثناء تناولهم الطعام، وألا يأكل هو نفسه.

وعندما انتهت المفاوضات والمساومات مع التجار الكويتيين، حان الوقت لترحل أسرة هندال راجعة إلى العراق. وعندما غادرنا مضاربهم في تلك الليلة كنا نعرف أننا نودّعهم إلى لقاء لن يتحقق إلا في الربيع التالى، وقلنا للفتى عليّ، ونحن نتضاحك، أننى أتوقع أن نراه متزوجًا عندما يأتى في الرحلة التالية.

وتجمع الرجال حول السيارة لوداعنا، وتبادلنا الكلمات العربية الودية التى يتبادلونها في مثل هذه المناسبات: فلترجعوا لنا سالمين في المرة التالية، فليحفظكم الله أثناء الطريق. وأخيرًا وفي صوت جماعى: في أمان الله، وخرجنا لنبدأ طريق العودة في جنح الليل.

الفصل الخامس عشر

إلى الجنوب
مع قافلة الجراد

الفصل الخامس عشر
إلى الجنوب مع قافلة الجراد

نشأت المنظمة الدولية لمكافحة الجراد من بدايات أولى صغيرة – في السنوات الأخيرة من الحرب الماضية – عندما أصبح تدمير الحاصلات الزراعية الغذائية بواسطة الجراد مشكلة أشد إلحاحًا وإثارة للقلق مما كانت عليه في أى وقت مضى. والآن تقوم هذه المنظمة – التى تتخذ من نيروبى مقرًا لرئاستها – بالتنسيق بين نشاطها الذى تمارسه في أماكن متعددة، والجهود التى تقوم بها الفاو، والدور الذى تقوم به الدوائر الرسمية التى تشارك بما تقدمه من مساعدات في عديد من البلدان. وتبذل هذه المنظمة الكثير من أجل القضاء على الجراد أينما وجد في شمال شرقى آسيا وفي الشرق الأوسط. والتعاون عنصر بالغ الأهمية في مكافحة الجراد، لأن من عادة هذه الحشرة المهاجرة أن تتخذ هجرتها شكل الغارة الكاسحة التى تنطلق من أحد البلدان على حدود أرض مجاورة بمجرد أن تصل الحشرات الوليدة إلى أقصى درجات قدرتها التدميرية وتتجاوز المرحلة التى يسهل القضاء عليها فيها. ومن أجل أن تحقق مكافحة الجراد للحد الأقصى من النجاح، يتعين إبادة الأسرة قبل أن تبلغ الحشرة طور النضج، حيث تكون غير قادرة على الطيران. ولذلك يجب على السلطات المختصة بمكافحة الجراد أن تفرض رقابة دائمة طوال أشهر الشتاء والربيع على تلك الأجزاء المنعزلة من العالم التى تضع فيها الحشرة البيض وتتركه إلى أن يفقس. وتقوم بهذا العمل في الشرق الأوسط فرق استكشافية محمولة بالسيارات، تحت قيادة مسئولين بريطانيين، يقومون برصد ومطاردة اليرقات حديثة الفقس وتنظيم أسلوب القضاء عليها. أما المناطق التى تضع فيها جرادة الصحراء بيضها ليفقس (وجرادة الصحراء هي أحد النوعين اللذين يتحركان في أسراب ضخمة ومدمرة)، فهى تمتد عادة في صحراء شبه الجزيرة العربية.

ويشهد المواطنون البريطانيون الذين وقع عليهم الاختيار لممارسة العمل الميدانى

في مجال مكافحة الجراد بأنهم غير تقليديين في تفكيرهم وأساليب عملهم. إنهم رجال عاشوا فترات طويلة من العزلة، ومارسوا وخبروا حياة الرعاة في الصحراء، وهم على استعداد لمواجهة مخاطر الإصابة بالمرض أو التعرض للحوادث على بعد مئات الأميال من موقع أقرب خدمة طبية. وتحدوهم روح المستكشفين الذين يرتادون أرضًا لم تطأها قبلهم قدم أو لا يعرف عنها إلا النزر اليسير. وهم يخرجون ليعبروا قارة كاملة في قافلة صغيرة تتكون من ثلاث أو أربع من سيارات الجيب والشاحنات، وكأنهم مقبلين على نزهة للترويح عن النفس قبيل الغروب، ثم يعودون ولا أحد يذكرهم بكلمة تقدير أينما وجد الجراد أو راجت الشائعات حول وجوده.

في شهر فبراير ١٩٤٧ تعرفت لأول مرة على مجموعة العاملين في وحدة مكافحة الجراد في الشرق الأوسط، عندما وصلت إحدى قوافلهم إلى الكويت واتجهت إلى مستشفى الإرسالية الأمريكية لحماية عضو من أعضائها أصيب بكسر في فخذه عندما انقلبت سيارته على بُعد مئات الأميال في جوف الصحراء.

أقام مرافقو هذا الجريح مخيمهم خارج أسوار مدينة الكويت، حيث عثرنا عليهم ذات يوم، وقد انتظمت خيامهم في صف واحد إلى جانب مجموعة من الشاحنات صفراء اللون تحمل رسم شعارهم – الجرادة. وكان المشرف على هذا المخيم ومديره هو عالم الأحياء (جيم جيبونز)، والذى تدفعك حيويته المتوثبة إلى التشكك في أنه تجاوز السادسة والأربعين حقاً. وكان هذا العالم الفذ يجد متعة بلا حدود في تلك الحرية التى لم ينالها من قبل والتى ظفر بها في حياته الجديدة كمسئول أول لمحافحة الجراد بعد سنوات من العمل المكتبى في السلك المدنى. وكان من بين من أقاموا معه في الكويت لفترة قصيرة، ديزموند فيسى، فيتزجرالد، وكان في ذلك الوقت كبير المسئولين عن مكافحة الجراد، وهو من أشد علماء الطبيعة والمستكشفين حماسًا، وأحد الرواد، في مكافحته في شبه الجزيرة العربية. وبعد عدة أسابيع في الصحراء لفحت الشمس الرجلين فاصطبغت بشرتهما بالسمرة القاتمة، واستطال شعر رأسيهما،

وظهرت لحيتهما. ولكن الجدية والصرامة كانت هما السمتان المميزتان لهذين الرجلين، مع العزوف عن الركون إلى الراحة والدعة، والنفور عمّا يُفرض عليهم أحيانًا من ابتعاد عن النشاط.

وعلمنا أن هذين الرجلين اقترحا أثناء إقامتهما بالكويت عندما وجدا أنهما يشاركان أمى اهتمامها الشديد بالتاريخ الطبيعى لشبه الجزيرة العربية - أن نرافقهما في الحملة الاستكشافية التى استعدا للقيام بها في الجنوب من أجل جمع عينات من أنواع الحياة النباتية والحيوانية، ورصد أماكن تواجد الجراد، وتم اختيار سيارات الجيب والشاحنات التى استخدمناها في هذه الحملة من نوعيات تحقق الأغراض العملية المطلوبة في الصحراء. وكانت الموافقة على المشاركة في هذه الحملة تعنى بالنسبة لنا إتاحة الفرصة أمامنا لاستكشاف مناطق لا يمكن لأى سيارة عادية أن تسير عليها. ووافقنا على الدعوة، بكل حماس. وعندما وصلنا صباح ذلك اليوم من أبريل للانضمام إلى القافلة المتجهة إلى الجنوب، كان مخيم الجراد يعج بالحركة والنشاط، والشاحنات يجري ملؤها بالمياه والنفط اللذين تعتمد عليهما حياة المسافر في الصحراء. وكانت كل التفاصيل الهامة المتعلقة بالنقل ولعتاد والتجهيزات تراجع للمرة الأخيرة. أما السيارت الخمس التى تشكلت منها القافلة فكانت سيارة الجيب التى يقودها فيس، وشاحنة تحمل جهاز لاسلكى (للاتصال بقاعدة مكافحة الجراد في جدة)، وسيارة ستيشن واجون، طراز شيفرولية، وسيارة جيب يقودها ج.ج، وشاحنة حمولتها ١٥ هاندردويت. ووفقًا لهذا الترتيب، انطلقنا إلى الصحراء.

والرحلة في الصحراء أيًا كانت الفترة التى تستغرقها، قد تكون بالنسبة للغريب الذى لا يتمتع بشيء من قوة الملاحظة، مجرد تجربة مملة لا تُحتمل، ولا يحتفظ في ذاكرته منها إلا بما عاناه من الغبار والحرارة. أما بالنسبة للمسافر الذى يسعى لتحقيق هدف محدد محبب إلى نفسه، فالصحراء بكل قسوتها لا تمثل له إلا مشهدًا خلابًا آسرًا، بينما يعمل خلال الطبيعة التى لم تطأها قدم من قبل من أى

معالم على إبراز التفاصيل القليلة المتناثرة لصورة تتكون من مساحات شاسعة من لون شاحب. إن صفيحة نفط علاها الصدأ تتبدى واضحة للعيان من بعيد، على خلفية من المساحات السمراء المصفرة من الصحراء التى لفحتها الشمس، وتتحول الصخرة الكبيرة إلى أحد معالم الطريق الهامة، ويتضخم حجم جمل يتهادى في الأفق لدرجة مبالغ فيها وتثير الدهشة، نظرًا لغيبة أى مقياس للمقارنة به. وفي الربيع تظهر النباتات التى بلغت طور النضج متناثرة منعزلة عن بعضها البعض، بينما تقتفى أوراقها الزاحفة على التربة شيئًا من جمالها.

ويصف السير ريتشارد بيرتون، الرحالة والمستشرق الشهير، تأثير الصحراء على الخيال المرهف في فقرة من كتاباته يقول فيها: من الغريب أن يجد العقل ما يسليه في مشهد لا يضم إلا القليل من الأشياء، ولكن أى تغيير في الشكل أو في اللون، ومهما كان طفيفاً في مثل هذه البلاد، يستحوذ على الانتباه: فالمشاهد تكتسب ملامح حادة، والقدرة على الملاحظة – التى تتعرض للذبول والصدأ في مواجهة حشد غير مرتب من الأشياء الطبيعية – تصبح في أوجها عندما تستثيرها القدرة على استيعاب كل جزئية تفصيلية[1].

ولدرجة أو أخرى، أدركنا جميعًا في مجموعتنا الصغيرة في ذلك اليوم، معنى السطوة الطاغية للصحراء، وأخذنا نترقب في توقع مشترك تغمره البهجة، ما يحتمل أن تتمخض عنه بضعة أيام نقضيها في البادية الجرداء.

وكان أول لقاء لنا بالجراد، مكان هو اللقاء الأخير أيضًا، على بعد حوالى خمسة عشر ميلاً جنوبى الكويت، عندما توقفت قافلتنا – رناء على إشارة من سيارة الجيب التى تتصدر الركب في المقدمة – أمام بقعة داكنة من الصحراء تمتد في اتجاه يتقاطع مع خط سيرنا. كانت أمامنا سحابة من الجراد النطاط – أو الدبة Dibba كما يسميها العرب. وكانت كل حشرة لا تزيد في طولها عن حوالى البوصتين ونصف البوصة، ولكنها كانت على درجة من الكثافة وهي جاثمة على الأرض بحيث بدت

وكأنها سجادة سوداء بُسطت على الرمال، وأحالت لون الشجيرات التى كانت تلتهم آخر أثر للخضرة فيها إلى الأسود أيضًا. وتحرك ج. ج. بسيارته حول هذا الحشد من الجراد ليستكشف أبعاده، ولكنه قرر عندما رأى أنها لا تغطى إلاّ حوالى عشرين ياردة مربعة إرجاء القضاء عليها لبضعة أيام إلى أن نعود من رحلتنا في الجنوب.

ونظرًا لتوقفنا في هذا المكان، قررنا أن نتناول وجبة الظهيرة، واخترنا موقعًا يخلو من الجراد وبدأنا نستعد. لم تكن هناك أى خيام للبدو على مدى البصر، ولم نلمح أحدًا ونحن نقترب من هذه المنطقة. ولكن ما أن تصاعد الدخان من نار مخيمنا حتى ظهر رجل فوق الحافة المنحدرة لتل قريب، وأخذ يحث خطاه في اتجاهنا، وكما يعرف كل مسافر في الصحراء، فالبدو لديهم طريقتهم الخاصة والخارقة في تصور ما يمكن أن يحويه مشهد قد يبدو خاليًا من أى معالم، وكان من الطبيعى أن يجذبهم الدخان المتصاعد بما يبشر به من طعام وقهوة، تمامًا كما تنجذب الفراشات إلى مصدر الضوء.

كان هذا الزائر الذى تناول طعام الغداء معنا يرعى قطيعًا من الجمال التى توارت وراء التل، وعندما نهضنا لنواصل السير دخلنا منطقة طاب كلأها بعد أن هطلت الأمطار بوفرة. ووجدنا الموقع غاصًا بالنازلين، وخيام البدو حولنا من كل جانب، ومعهم ما يرعونه من ماشية وجمال.

كانت الشمس شديدة الحرارة بعد ظهر ذلك اليوم، رغم أن النسيم الصادر عن حركة السيارة كان يوفر لنا قدرًا ملائمًا من البرودة. أما عندما كنا نتوقف، فسرعان ما كانت الجوانب المعدنية للسيارة ترتفع درجة حرارتها حتى يتعذر لمسها. وكنا عازمين كل العزم على التحرك، فاستمرت مسيرتنا بقية اليوم بلا توقف. وعندما عبرنا الحدود الجنوبية للكويت واصلنا طريقنا في المنطقة المحايدة، واقتربنا والشمس توشك على المغيب من آبار آراك Araq التى تقع على الحدود بين الكويت والعربية السعودية. وعلى مسافة غير بعيدة عن المنطقة المحيطة بالبئر انتهينا إلى موقع تغطيه الأعشاب

على منحدر تل صغير، وجدنا فيه مكانًا ملائمًا لضرب الخيام، فقررنا أن نتوقف لنمضى الليل. وأُعدت خيمة لأمى وأنا معها، أما الرجلان المسئولان عن مكافحة الجراد فلم يستخدما أية خيمة، واكتفيا بالنوم على سريرين في العراء ومن فوقهما النجوم. ولم يمر وقت طويل على وجودنا في هذا المخيم حتى تبين لنا أن الموقع الذى بدى لأول وهلة أنه مناسبًا تمامًا تشوبه عيوب لم نكن نتوقعها، فالحشائش الجافة التى تغطى الأرض تحمل بذورًا مدببة كالجراد من نوع خاص شديد الصلابة تلتصق بإحكام بملابسنا وأغطية الفراش، وبالإضافة إلى ذلك، ينمو على جانب التل محصول وافر من السعدان Sa'adan وهو نبات تلتصق بذوره المفلطحة ذات الأشواك – والتى أبدعتها الطبيعة لتعلق بالوسادة اللينة لخف الجمل – بأى شىء يوضع على الأرض وتجعل الجلوس عليها أمرًا مؤلمًا ومريرًا، لأن الأشواك الحادة تخترق كل شىء حتى الوسائد التى نجلس عليها. ونفذ صبرنا نهائيًا عندما اكتشفنا أن الأرض المحيطة بنا تعج بجحور العقارب. وعلى أى الأحوال، وبالرغم من المتاعب وطبيعة الحياة الحيوانية في الموقع، قررنا أن نترك المخيم حيث أقمناه، تحدونا الرغبة في مواصلة السير بحثًا عن مكان أفضل. وبعد غروب الشمس وضعنا مصائد الفئران في الأماكن المتوقع أن توجد بها هذه الهوام في المنطقة المحيطة بالمخيم، يراودنا الأمل في الحصول على بعض عينات من القوارض المحلية على أن نعود للكشف عما ظفرت به المصائد بعد أن ننتهى من وجبة العشاء. في ذلك الوقت، كانت ظلمة الليل تخيم على المنطقة ولكن القمر كان بدرًا، والصحراء من حولنا تسبح في ضوء شاحب. كان كل شىء هادئ وصمت غريب منعش يطبق على كل شىء، وعندما ننادى على بعضنا البعض، كانت أصواتنا تتصادم لتحدث صريرًا لا تسيغه الأذن، فكانت بعض الكائنات الصحراوية الصغيرة تنطلق كالبرق عبر طريقنا ونحن نسير متجهين إلى التلال، ولكننا لم نجد شيئًا في المصائد. وعدنا إلى المخيم واستولى النوم علينا على الفور، وغبنا في أسر السكون المطلق لليل الصحراء.

كان اليوم التالى هو يوم الجمعة الحزينة، وانبلج الصباح عن سماء صيفية صافية. وكنا قد تأهبنا للقيام بجولة للتعرف على المكان في اتجاه المشرق، مستخدمين سيارتي الجيب وحدهما، وتركنا الحافلات ومرافقينا العرب في المخيم. وكنا نعتزم تحديد موقع عين العبد، وهو ينبوع الكبريت المنصهر الحارّ في المنطقة المحايدة، والذى يتدفق في منطقة يكاد يتعذر الوصول إليها، على بعد حوالى ستة عشر ميلاً من الساحل، وينطلق منه جدول عريض متعرج يتجه نحو البحر. ويشهد هذا المكان بأنه مأوى للجان أو الأرواح الشريرة، حتى إن البدو رغم معرفتهم بهذه الحقيقة جيدًا لا ينزلون كثيرًا بالمنطقة المجاورة إلا عندما يأتون بجمل أجرب للاغتسال في المياه الكبريتية، أما النبع نفسه فيقع في النطاق الفسيح من المسطحات المالحة التى تحازى الساحل في تلك المنطقة. وليست هناك أية دروب أو مسالك تفضى إليه، ويتعذر على السيارة العادية أن تشق طريقها على الأرض المالحة المشبعة بالرطوبة. ولكننا كنّا على ثقة من أن سيارتى الجيب اللتين نستخدمهما تستطيعان حملنا في أمان عبر المسطحات المالحة. وقد حدث بالفعل في ذلك الصباح أن ركبت سيارة الجيب التى مضت في مسيرتها بنجاح وهي تجتاز أكثر المناطق التى شهدتها في الكويت وعورة. وبينما نحن نرتاد أرضًا غير مطروقة، وفيس يقود الركب في المقدمة، محددًا خط سيره بواسطة بوصلة وخريطة، اكتشفنا أن مواصلة السير في نفس الاتجاه يحتم علينا اجتياز منطقة تغطيها شجيرات الثمام Thamam الضخمة، والتى تراكمت حولها الرمال لتشكل آكامًا شديدة الانحدار. وكان ارتفاع كل آكمة يناهز الثلاثة أقدام، والمسافات بين الشجيرات ممتلئة بالرمال الناعمة. وبعد قليل من التشاور قررنا اجتيازها. وفي إصرار وعناد اندفع ج. ج. في طريقه بعد أن رفع معدل سرعة سيارته إلى الحد الأقصى. وكانت الشجيرات على درجة من الكثافة يتعذر معها تفاديها، ولذلك شققنا طريقنا في جلبة صاخبة بين الأكمات ونحن نترنح من جانب إلى جانب وكأننا في قارب صغير في لجة بحر كبير، ولكن الجيب أدت مهمتها بنجاح، ومضت في طريقها بشكل رائع.

وبعد أن اجتزنا منطقة الثمام، وجدنا أنفسنا في السبخة، أو المسطحات المالحة، فغيرنا مسارنا واتجهنا نحو الجنوب حتى نتمكن من الوصول إلى جدول الكبريت عند نقطة بين المنبع ومصبه على البحر. وكما توقعنا كان السير مرهقًا إلى أقصى حد فوق السبخة، ولكن الأرض كانت مستوية على الأقل، فأمكننا بمحافظتنا على السرعة المناسبة أن نتقدم بلا متاعب. وعند إحدى النقاط، حيث كانت الشجيرات تنمو داخل المسطحات المالحة التقينا بقطيع صغير من الجمال. واتجه فيس ليتحدث مع البدوى الذى يرعاها. وعرض الرجل أن يقدم لنا لبنًا طازجًا من إحدى نوقه، فوافقنا على الفور. وكنا نسير في اتجاه الريح، ولكن الحرارة كانت شديدة لدرجة مرهقة، وكانت طاسة اللبن الدافئ التى قُدمت لنا والزبد لازال يغطيها، شهية ومنعشة.

وبعد أن قطعنا خمسة أو ستة أميال أخرى من السبخة، اضطررنا إلى التوقف عند نقطة وعرة تنمو بها الشجيرات في كثافة شديدة، ووجدنا أنفسنا على ضفة غدير يبلغ عرضه حوالى العشرين قدمًا، يتدفق صافيًا كالبللور على امتداد مجرى من الطمى المشرب بالخضرة والزرقة، بين جانبين من التربة المالحة. وعند أحد طرفى الغدير كانت مئات من الأسماك الصغيرة تتكاثر هنا وهناك، كما زخرت الضفتان بالعديد من جحور الفئران. وحاول فيس – الذى لا يفارقه أبدًا تطلعه المسيطر عليه للبحث عن آثار نادرة لكائنات حيوانية – أن يحضر أحد هذه الجحور، ولكنه لم ينجح. وبعد ذلك، أطلق رصاصة من بندقية في الماء وجمع بعض عينات من الأسماك الصغيرة. وعندما تذوقنا ماء الغدير وجدناه غير صالح للشرب بأى حال، كان شديد الملوحة ومشبعًا بطعم الكبريت ومذاقه كريه.

وكان من الغريب أن نعثر على هذا الغدير من الماء المتدفق في الصحراء. فوقفنا لبعض الوقت ندقق النظر في الغدير وقد ران علينا الصمت، ولكن يبدو أن مجرد رؤيتنا له أدخلت الانتعاش على أعيننا ونفوسنا. وبعد أن دققنا النظر بما فيه الكفاية، ركبنا

سيارة الجيب مرة أخرى واتجهنا إلى اليمين على امتداد الضفة، وسرنا بحذاء الغدير المتعرج إلى الداخل في اتجاه نبع العبد. وبينما نحن نحث الخطى على هذه الضفة التى تزداد ضيقاً كلما توغلنا إلى الداخل، رأينا الطمى في القاع يزداد سوادًا بالتدريج، بينما تزداد رائحة الكبريت وضوحًا ونفاذاً، وأخيرًا وصلنا إلى النبع نفسه بعد أن استدار الغدير دورة كاملة ثم عاد إلى مجراه الأصلى.

والجدول يبدأ من بركة مستديرة يبلغ قطرها حوالى الأربعين قدمًا تحيط به جوانب عمودية يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام. وتتدفق داخل البركة سلسلتان من العيون متحدتا المركز، تندفع منهما المياه إلى أعلى في فوران متقطع لتكون فقاقيع كبيرة سوداء على السطح. وكان الماء المتدفق من فتحة البركة صافيًا إلى أقصى حد، ولكن نظرًا لانبثاقه من باطن الأرض، فهو يحمل معه مادة رسوبية سوداء ترتد إلى الخلف كلما تلاشت فقاعة من الفقاقيع الكبيرة مخلفة وراءها ماءًا صافيًا كالبللور، يجف بالتدريج دون أن يصيبه أى تلوث.

وعندما دققنا النظر في هذه الفقاقيع، والتى يبلغ حجم كل منها مثل حجم رأس رجل، والتى كانت تنبثق من الأعماق السوداء، أدركنا معنى الاسم العربى للنبع. وبعد بضع دقائق، عرفنا سببًا واحدًا على الأقل من أسباب الإيمان بالخرافات التى تدور حول المنطقة: فبينما نحن وقوفًا على حافة البركة، سمعنا فجأة صوت زئير خافت لا يخطئه السمع، ربما كان صادرًا عن طائرة أو شاحنة تتحرك على البعد. ولكن لم يكن هناك أى أثر لطائرات، ولم يكن هناك درب أو طريق على مسافة قريبة تسمح بوصول أصوات حركة المرور إلى موقعنا. وعندما تذكرنا قصص البدو عن الأصوات الغريبة التى تصدر من تحت سطح الماء، والتى يطلقها الجان الذى يسكن البركة، أخذنا ننصت في تركيز وانتباه، وأدركنا أن الصوت الذى نسمعه يصدر بالفعل من أسفل، وربما كان ناتجاً عن حركة الماء في كهف أو تجويف في باطن الأرض.

كانت الرائحة طاغية في الربيع، وبدا الجو وقت الظهيرة وكأنه مشبع بالأبخرة الكبريتية. ولكننا بقينا لبعض الوقت مبهورين لمنظر الفقاقيع السوداء وهي تعلو وتهبط في البركة، وتمكن فيس – وكان حريصًا على الحصول على عينة من المسحوق الرمادى الفضى الذى يحمله الماء – من الاستحواذ على بعض هذه الفقاقيع مستخدمًا صفيحة ربطها في طرف حبل، وثبت ج. ج. صامولة في أحد طرفي كرة من الخيوط المجدولة وألقى بها في مركز إحدى الدوائر التى تنبثق منها الفقاعات في محاولة للتعرف على عمق العين، ولكنها غاصت لمسافة حوالى الثلاثة أقدام، ولم تتمكن من التعمق إلى مدى أبعد حيث ينفجر الماء مندفعًا إلى أعلى من خلال الرمال السوداء.

وبعد أن قمنا باستطلاع الأوضاع بقدر المستطاع، غادرنا عين العبد وعدنا إلى المخيم لتناول طعامنا، وشهدت الساعات المتبقية من اليوم حدثين أقل إثارة، فقد عثرنا على أفعى ذات قرنين، وهي من أشد الأفاعى السامة التى تعيش في الصحراء خطورة، عثرنا عليها بالقرب من المخيم، ثم عثرنا على عقربين مختبئين تحت الرمال ونحن نحاول حفر أحد جحور الفئران.

وللصباح الباكر في الصحراء بهاؤه الذى لا ينمحى من الذاكرة لكل من شاهده، فمع أول أشعة النور، تبدأ جميع الطيور شدوها وتغريدها، كما يتميز جو الصباح رغم تأثره بحرارة اليوم السابق، بذلك الصفاء الذى لا تلتقى به إلا في المساحات الفسيحة التى تذروها الرياح، بينما يرقش الصفاء الشديد لشمس الصباح الصحراء بظلال طويلة تمتد من كل شجرة ومن كل حجر. وعندما خرجت من خيمتنا صباح اليوم التالى، كان سرب من الجمال يتهادى عند سفح التل، متجهًا نحو آبار آراك بينما النداء الغريب واو هو Waa-Ho الذى يطلقه الراعى وهو يحدو جماله يصل إلى مسامعنا عبر الهواء الساكن.

وقبل الإفطار، فحصنا مصائد الفئران التى تركناها الليلة السابقة. ونجحنا هذه المرة في الإمساك بفأر، وكان كبير الحجم ولونه من لون الرمال. وكان الإمساك به باعثًا للغبطة الشديدة بيننا بعدما سبق أن واجهناه من فشل. وكُلِّفت بمهمة سلخ الفأر وتحنيطه (لإرساله إلى المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعى بلندن)، فبدأت العمل على الفور على منضدة على متن شاحنة فيس الصفراء، لأنه كان من المقرر أن ننهى مخيمنا في أقرب وقت بعد الإفطار. وألقيت بما تبقى من الفأر بعد سلخه خارج الشاحنة، ووجدنا بعد فترة وجيزة أن خنفساء سوداء عثرت عليه وسحبته بعيدًا، لأن الجيف تمثل طعامًا جيدًا لصغارها مثل كرات الروث التى تضع فيها بيضها عادةً.

وعندما اتجهنا إلى الجنوب من جديد، سرنا على درب مرّ بنا عبر أراك، واجتزنا المنطقة الدائرية من الأرض المعشبة المحيطة بالآبار. وفي هذه المنطقة القينا بورل ضخم أخذ يقفز عبر طريقنا وكأنه ومضة البرق. وأخرج ج. ج. غدارته عيار ٢٢ واتخذ وضع التسديد وتمكن من إصابة الورل وهو يحاول الفرار داخل جحر فأر كان أضيق من أن يسمح له بالدخول. وينتشر وجود هذا الورل في الصحراء شمال شرقى شبه الجزيرة العربية. وكان طول الورل الذى ظفرنا به في ذلك اليوم أكثر من قدمين، ولونه من لون الرمال، وتتبدى على ظهره تلك النقاط الملونة المميزة، وذيله طويل يشبه السوط وملون بحلقات متتابعة من اللونين الأسود والأسمر. والورل من حيوانات الصحراء القليلة التى يمكنها مهاجمة والتهام الحيات السامة، ولذلك لا يأكله البدو، رغم أنهم اعتادوا أن يأكلوا السحالى الكبيرة ذات الذيل الشائك – أو الغبت – الذى يوجد أيضًا في الصحارى المحيطة بمدينة الكويت.

ورأينا في المنطقة المتاخمة لأراك عديدًا من السحالى زرقاء الرقبة، من نوع لا يعيش في الأراضى المتاخمة للمدينة مباشرة. وكانت هذه السحالى قابعة بين شجيرات العرفج، ورؤسها بارزة على السطح لاستكشاف المنطقة المحيطة بها. وعندما مرّت سيارتنا، توارى بعضها عن الأنظار بين أفرع الشجيرات بينما ظل البعض الآخر في

مكمنه بلا حراك، شاخصًا لنا من بعض المواقع الآمنة، وقد رفع رأسه إلى أعلى بحيث تمكننا من أن نرى اللون الأزرق لرقبته بكل وضوح.

وكان الهدف الذى حددناه لأنفسنا في ذلك اليوم هو الوصول إلى أبراج الخليجة Abrag Al-Khalija وهي نقطة على بعد بضعة أميال جنوبى حدود العربية السعودية، توجد بها عين كبيرة أشبه بفوهة البركان. وفقًا لما يقول البدو الذين أخبرونا أيضًا أن هذه العين ظهرت لأول مرة منذ ثمانين عامًا، ولكنهم لا يقدمون أى تفسير لهذه الظاهرة سوى قولهم أنها ربما نشأت عن سقوط نجم من السماء.

ومثل عين العبد، قيل عن هذه العين أيضًا أنها مأوى للجان، لأن العادة جرت بين العرب، شأنهم شأن الشعوب البدائية الأخرى، أن يربطوا بين كل ما هو غير مألوف والخرافة.

وكنا نتطلع منذ سنوات عديدة لزيارة هذا الموقع، وضاعف من تطلعنا تلك القصص التى سمعناها، ولكن البدو لم يقدموا لنا أى معلومات واضحة أو محددة عن مكان هذه العين، ولذلك ترددنا في محاولة العثور عليها دون توافر معلومات كافية. ولكن الجيولوجيين العاملين في شركة أرامكو – شركة النفط العربية الأمريكية – قاموا منذ وقت قريب باستكشاف المنطقة التى تقع على بعد بضعة أميال فحسب من أقصى آبارهم تطرفًا نحو الشمال بالقرب من الحدود، وقدموا لنا تفسيرًا أكثر تماشيًا مع العلم لهذه الظاهرة الطبيعية، وهو أنها تمثل انخفاضًا أو هبوطًا في سطح الأرض.

وفي الصباح، وصلنا إلى بئر أرامكو، فتوقفنا لتناول الشاي والقهوة مع الحارس العربى في كوخه الصغير المشيد من جزوع النخيل والمطلى بالملاط الأبيض. لم يكن هناك، في هذا المكان أيًا من العاملين الأمريكين، لأن البئر كانت مجدبة. ولكن المنطقة لم تعد تتميز بذلك الهواء النقى الذى يسود الصحراء الفسيحة، وذلك نتيجة للآثار الناجمة عن حركة المواصلات منذ إنشاء خطوط النقل التابعة لأرامكو، وازدحام المكان بتقاطعات الطرق.

لم تكن لدينا خرائط محددة نهتدى بها للوصول إلى أبراج الخليجة، ولم نكن نعرف عنها سوى أنها تقع على مسافة غير بعيدة جنوب بئر أرامكو، واختبرنا المنطقة بحثًا عن العين، ولكن رتابة الأرض الممتدة التى تغطيها شجيرات العرفج لم تمكننا من الوصول إليها. ورحنا نستكشف الأراضى المحيطة بنا من فوق قمم التلال، ولكننا لم نر شيئًا. ولم ندرك لماذا كان من المحال رؤية العين من بعد إلا عندما وجدنا أنفسنا أمامها فجأة، فالمنخفض حدث في الأراضى المرتفعة لأحد تلال الصحراء، ولذلك كان من المتعذر رؤيته من أى نقطة في المنطقة المتاخمة له. ووصلت سيارتنا الجيب إلى حافة التل لنجد أنفسنا، وعلى غير المتوقع على حافة منخفض كبير. وكان المشهد الممتد أمامنا مثيرًا حقًا، عين كفوهة البركان عرضها مائة ياردة وعمقها سبعين قدمًا، وجوانبها تكاد تكون عمودية، تنحدر فجأة من سطح الأرض الصحراوية. وفي مركز التجويف الضخم حيث تجمعت مياه الأمطار نمت النباتات الصحراوية بكثافة، ومن موقعنا كان المشهد الذى يتبدى أمامنا أشبه ما يكون بجزء من مرج من المروج الإنجليزية.

وأخذنا نزحف هابطين على الجوانب شديدة الانحدار للمنخفض، ونحن نتحسس طريقنا بين الكتل الضخمة وجلاميد الحجر الرملى التى تلتصق بالمنحدرات الشاهقة التى غسلتها الأمطار. وهنا وهناك على الضفة التى غطتها الأعشاب الجافة، رأينا جحورًا للثعالب، وأمامها أكوام صغيرة من العظام البيضاء عند مدخل كل عرين. وكانت هناك أيضًا آثار للعديد من الحيوانات الأصغر حجمًا، ولكن ليس بينها ما ينبىء بوجود ما هو نادر أو غير مألوف كما راودنا الأمل لبعض الوقت.

وعند الظهر، وصلنا إلى أبراج الخليجة، وبعد أن خرجنا من المنحدر ونصبنا خيمة صغيرة، كان الإرهاق قد أخذ منا كل مأخذ. لم تكن هناك رياح، وبلغت درجة الحرارة ٩٧° في الظل، فسمحنا لأنفسنا بالاسترخاء والحصول على قسط من الراحة وتناول وجبة الظهيرة. وأخذنا نناقش ما ننوى إنجازه بعد الظهر ونحن ملتفين حول

بعض الحلوى وقطع البسكويت. وتبين لنا أنه ليس هناك ما يستحق الاهتمام في المنطقة المحيطة بأبراج الخليجة، وطوال مسيرتنا الاستطلاعية التى استغرقت البقية الباقية من يومنا لم نلتق بأي جديد، ولم نعثر على أى أثر للجراد منذ اليوم الأول لتحركنا.

وعندما عدنا إلى خيمتنا استقر في يقيننا أن هذه الليلة ستكون ليلتنا الأخيرة في الصحراء. وفي فجر اليوم التالى، غادرنا فيس متجهًا إلى الداخل، أما بالنسبة لبقيتنا فكانت واجباتنا في الكويت تحتم العودة إلى المدينة.

وفي تلك الليلة عشنا أحد التقلبات الجوية المفاجئة في درجة الحرارة والتى نادرًا ما تحدث في مثل هذه الأشهر من السنة، بين الشتاء والصيف. فقد انخفضت درجة الحرارة فجأة لتصل إلى ٥٤°، فاستيقظنا من نومنا ورحنا نبحث عن الأغطية التى لم نتوقع أننا سنضطر إلى استخدامها. وعندما تسللت أول خيوط الفجر إلى مدخل خيمتنا، شاعت بيننا البهجة بعد أن وجدنا أنفسنا نستيقظ في أمان بعد ما عانيناه طوال الليل.

وخرجنا من الخيمة لنجد أن فيس قد أكمل استعداداته للرحيل ويتأهب للتحرك. وبعد أن حيانا مودعًا، انطلق في اتجاه الجنوب في صحراء غير مطروقة تدفعه رغبة عارمة في أن يكون مرة أخرى أول من يرتاد المجاهل المنعزلة في جوف شبه الجزيرة. واصطحب معه إحدى الشاحنات وسيارة اللاسلكى التى كانت الصلة الوحيدة بينه وبين العالم الخارجي. وكان يزمع أن يجتاز منحنى الدهناء الرملى متوجهًا إلى القصيم حيث يتوقع الانضمام إلى مجموعة أخرى من العاملين في مكافحة الجراد تمارس نشاطها في الداخل.

وبالرغم من التطورات الأخيرة السريعة في العربية السعودية والأخذ ببعض أسباب الحضارة في هذه البلاد التى كانت بدائية حتى عهد قريب، كانت لاتزال هناك مناطق معزولة لم تطأها قدم في شبه الجزيرة العربية، تفتح المجال أمام ذوى

الجسارة والعزيمة من الرجال للقيام بالمزيد من الاستكشافات وتوسيع حدود المعرفة العلمية.

وعدنا إلى مدينة الكويت في ذلك اليوم وذاكرتنا تحفظ تلك الأحداث التى شهدناها معًا يوم الجمعة اليتيمة، تذكرنا ليالي الصحراء الهادئة والمتعة التى تجلبها قيادة السيارة عبر أراض لم تطأها قدم من قبل، والطيور والوحوش التى رأيناها، وروح الزمالة الصافية التى استمتعنا بها ونحن نلتف حول وجباتنا الهزيلة. ورجعنا من نفس الطريق الذى سلكناه في اليوم السابق، ومررنا من جديد ببرج وآبار أرامكو في أراك، واتبعنا الطريق عبر منطقة المراعى الخضراء بما تضم من خيام سوداء متعددة وقطعان الماشية والجمال. وأثناء النهار كنا نرى أنوار حقل مرجان. كانت الصحراء الموحشة من ورائنا، ومن أمامنا تنتصب أبراج آبار النفط. وتتراءى الشاحنات، ومحطات الضخ، وكل ما يجرى عمله، كل ذلك من معالم الحضارة.

وفيما بعد في أواسط الصيف، ونحن نجلس معًا في منزلنا نحاول الاحتماء من شدة الحرارة، تذكرنا بكل الاشتياق ذلك الهواء المنعش والانطلاق بلا قيود، والذين لا نلتقى بها إلا في رحاب البادية.

ويختلف حجم وتوزيع أسراب الجراد في شبه الجزيرة العربية من عام لعام، لأن الظروف التى تنشأ في ظلها الحشرة والأسراب يحكمها سقوط الأمطار ودرجة الحرارة. والشائع بين البدو أن حجم الأسراب وتتابعها في أى منطقة يصل إلى الذروة كل سبع سنوات، بينما لا ترى السنوات الأخرى إلا أعدادًا قليلة من الجراد، أو لا تشهد جرادًا على الإطلاق. والعرب يحسبون السنوات السبع بطريقة تقريبية، ولكن من المسلم به أن الأسراب الضخمة تظهر بشكل عام على مراحل يفصل بين كل منها والأخرى عدة سنوات.

وفي الكويت، التى ليست بها أى أراض زراعية، لم يمثل الجراد في أى وقت من الأوقات ذلك الخطر الذى يمثله على سبيل المثال في العراق، حيث تتعرض

المحاصيل التى تُزرع على مياه الأنهار وبساتين النخيل لهجماته. وكان الجراد يسبب العديد من المتاعب لسكان المدينة فيما مضى نتيجة لتلوث الآبار التـى يحصلـون منهـا على مياه الشرب، وتدمـير الحدائـق الصغـيرة التـى يزرعـون فيهـا الخضـروات التـى يكسب العديد من الأهالى رزقهـم مـن تجارتهـا. أمـا بالنسـبة للبـدوى الـذى لا يملـك حاصلات زراعية يتعين عليه حمايتها، فالجراد لا يسبب لـه أيـة مشـكلات. إلا إذا بلغت أسرابها الحجـم الـذى تتمكـن معـه مـن التهـام كـل مـا هـو أخضر في المراعـى الصحراوية، وبحيث لا تترك لحيواناته ما تقتات به. وعندما يظهر الجراد في المنـاطق الداخلية، يمسك به البدو، ويباع كمادة غذائية في سوق الكويت.

وكانت المجموعة الصغيرة من الحشرة النطاطة التـى رأيناهـا أثنـاء رحلتنـا في الجنوب نذيرًا بظهور الجراد على نطاق واسع في أراضى الكويت في ذلك العام، وكـان بالفعل العام السابع وفقًا لحسابات البدو. وأخذت التقارير تتواتر من قريب ومـن بعيـد عن اقتراب الأسراب، وانهمكت فرق المكافحة في نشاط متصل، وأخذت تبحـث عـن الأسراب في الصحراء، منطلقة من مخيمها المركزى في الكويت الذى تحصل منه على المواد السامة لاستخدامها أينما ظهرت الحاجة إليها.

وفي أحد الأيام تمكنت من مرافقة ج. ج. عندما كان يعمل بمفرده للقضاء علـى عدة مجموعات صغيرة ظهرت في المنطقـة المتاخمـة لمدينـة الكويـت مباشـرة، بعـد أن أرسل معاونيه العرب لمواجهة الأسراب الكبيرة في الداخل. وكان أول ما تبـين لنـا هـو أننا كنا بجوار سرب يتكون من عدد قليل من الحشرات النطاطة الغريبة التى ظهـرت على الطريق الصحراوى الرملى الذى كنا نسـير نحـن أيضًا عليـه وتركنـاه بحثًـا عـن المجموعة الرئيسية.

وعلى مسافة غـير بعيـدة مـن الـدرب المطـروق، وجدنـا هـذه المجموعـة مـن الحشرات تنتشر على مساحة من رمال الصحراء وهي تتحرك في اتجاه الشمال الغربـى وكأنها نهر متماسك يتشح باللون الأخضر المائل للصفرة في ضـوء الصحـراء المتحجـرة،

يبلغ اتساعه عشرين ياردة وطوله ميلين ونصف الميل. وبالرغم مما يتسلح به الجراد الصغير الذى لم يبلغ طور النضج بعد من سيقان قوية تمكنه من القفز، إلا أن الحشرات الصغيرة أخذت تزحف في بطء ووهن دون أن تقفز، ويصدر عن زحفها صوت حفيف خافت وكأنه صوت نسيم وهو يعبر فوق حقل من القمح. وكان جميع الجراد الذى يتكون منه هذا السرب متشابهًا ويتحرك في نفس الاتجاه، إلى الأمام دائمًا، متدفقاً في حركة مستمرة، دون أن يجيد عن مساره أو أن يتوقف. والجراد لا يبدأ القفز إلا عندما يشعر باقتراب الخطر، وعندئذ يشيع الارتباك في صفوفه، وينسى غريزة القطيع، وتتصرف كل حشرة بمفردها في محاولة للنجاة بنفسها.

كانت هذه الحشرات النطاطة هي الطور الرابع للجراد، بعد اجتيازها ثلاثة أطوار من الأطوار الخمسة إلى أن تصل الحشرة عند اكتمالها إلى مرحلة النضج. وكان طول كل حشرة حوالى ثلاثة أرباع البوصة. ولونها مزيج من الأصفر والأسود، ولازالت بدون أجنحة. ولكن كان من الصعب الإمساك بها نظرًا لخفة حركتها. والحشرات في طور شبابها هي الأكثر شراهة، وهي تأكل وتنمو بمعدلات ضخمة غير عادية، وتلتهم كل شيء أخضر تلتقى به في طريقها، ولا تخلِّف وراءها إلا هشيمًا جافًا لا حياة فيه، وأرضًا جرداء.

ويتكون الطعم السام الذى تستخدمه فرق مكافحة الجراد من النُخالة (الردّة) والجامكسان وهو مبيد حشرى قوى، يوضع عادة على شريط من الأرض يبلغ عرضه حوالى القدم، في طريق تقدم السرب، وأسرعنا بتفريغ أكياس النخالة التى أحضرناها على متن سيارة جيب، ووضعنا الطعم في المكان المحدد، وبعد أن رأينا الحشرات النطاطة وهي تلتهمه بشراهة، انتظرنا لنرى السم وهو يحدث أثره. وبعد نصف الساعة، بدأت الحشرات تترنح، وتحاول عبثًا – أن تتحرك إلى الأمام. وأخذ زحفها يزداد شرودًا وابتعادًا عن مسارها الطبيعى، إلى أن انهارت الواحدة بعد الأخرى، وماتت جميعها.

الفصل السادس عشر
خاتمة

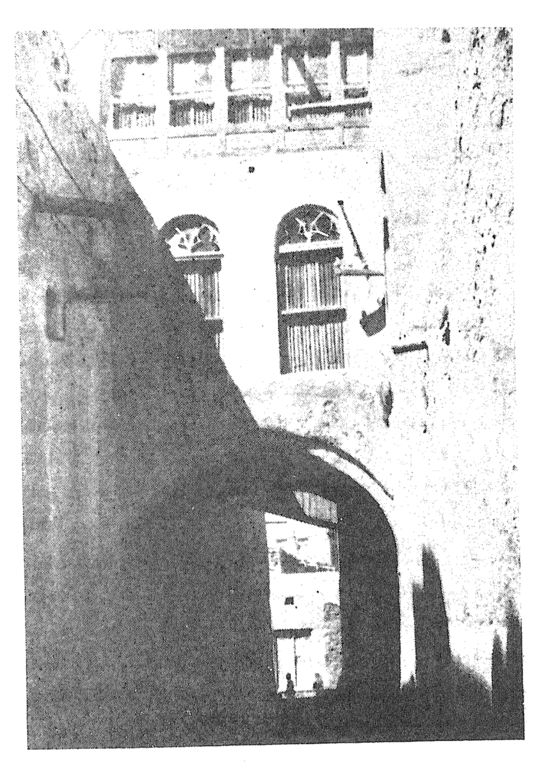
الفصل السادس عشر

خـــــــــاتمة

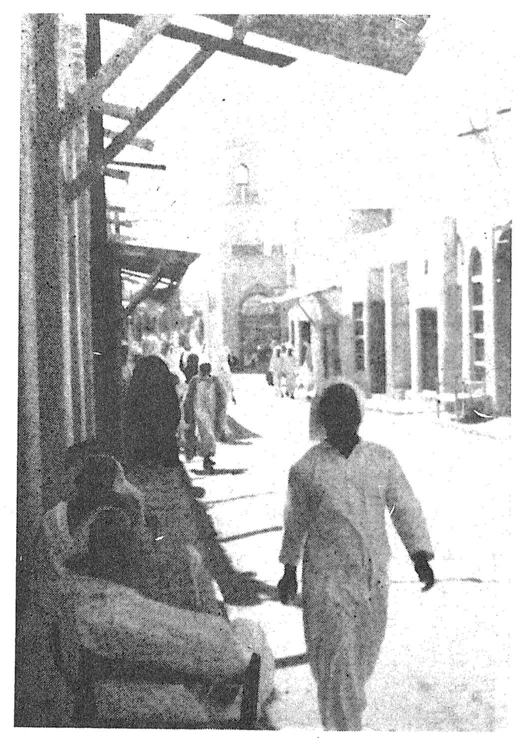
ماذا يحمل المستقبل لأهل الكويت؟ التعليم ورفع مستوى معيشة عامـة النـاس هدفان يتحققان بخطى وئيدة، ولكن في ثقة وإصرار. والسخاء الذى يميز مـا يخصصـه الحاكم من أجل رفاهية شـعبه يؤكـد أننـا أمـام رجـل مسـتنير حقًـا، ومحـبّ للخـير بلاجدال.

ولكن من المحتم، أن تكون هناك مشكلات ضخمة لازالـت قائمـة ولابـد مـن التصـدى لهـا، فالانتقـال مـن الكويـت القديمـة إلى الكويـت الجديـدة لم يبـدأ إلا في السنوات الثمان الأخيرة، ولم يسمح التدفق المفاجىء للثروة بفسحة من الوقـت للتطـور التدريجى. والكويتيون لا يدركون بعد طبيعة المشكلات التى تُلح عليهم نتيجـة للأخـذ بنمط الحياة الغربية في مدينتهم. وإن كان زعماؤهم يسعون إلى الحصـول علـى مساعدة بريطانيا، إلاّ أن المشاعر الشعبية، والتى تنم بالفعل عن نزعة قوميـة كامنـة، تتـوق إلى التخلص من هذه المساعدة وتتعجل تأكيد استقلال الكويت، وإثبات قدرة أبنائها علـى إدارة شئونهم بأنفسهم.

ومع تنـامى حجـم واجبـات الإدارة المحليـة وتعقيدهـا مـن أجـل التوسـع في التعليم والخدمات الصحية، وزيادة حجم القوات المسـلحة والشـرطة، ومواصلـة خطـة التنمية، فسوف يتطلب الأمر وجود طبقة مـن الكويتيـون المتعلمـين لممارسـة الوظـائف الحكومية. ويشكل النقص في أعداد الموظفين المدربين حتى من ذوى الخبرات الإدارية الأولية، أحد العقبات التى يتعين على الإدارة مواجهتهـا في الوقـت الراهـن. وفي ظـل هذه الأوضاع ينتهز العرب من غير أهل الكويت والفلسـطينيون علـى وجـه الخصـوص الفرصة لشغل مراكز المسئولية والنفوذ.



منازل الكويت القديمة



أحد شوارع السوق



أحد نماذج العمارة الكويتية

والكويت تشيد مدارس فاخرة تهدف إلى تخريج طبقة متوسطة متعلمة من بين صفوف الجيل الصاعد لسد احتياجات الدولة، ولكن ثمة تساؤل يتردد من الآن حول كيفية تمكن الكويت من توفير فرص العمل لستة آلاف من أبنائها الذين يحصلون الآن على تعليم رفيع المستوى، والذين سيتطلعون إلى وظائف لائقة عند استكمال دراستهم. إن البنية الاجتماعية في المدينة يجب أن تتغير كلها مع تعلم أولئك الذين كانوا حتى وقت قريب في عداد العمال والعاملين غير ذوى المهارات.

وسوف تواجه الكويت أيضًا مشكلات اجتماعية كبيرة نتيجة لما يجرى من تغير عادات الناس ونظرتهم الأخلاقية، والجيل الجديد من العرب الذين يحركهم طموح لا حدود له للتحضر والتقدم والانتقال إلى ما يتجاوز الظروف التى نشأ فيها أسلافهم، هذا الجيل يأخذ بالمظاهر الخارجية الواضحة للحياة الغربية، ويتخلى عن العادات المرتبطة بالتقاليد العربية، بل وكثيرًا ما ينبذ أيضًا الجوانب الدينية التى كانت مصدر قوة قومه وفخارهم في الماضى. والثروة تجلب معها إلى الكويت الرفاهية المادية للغرب، وكثيرًا ما نجد هذه الثروة اليوم حيث لا يوجد علم أو أخلاق، مع ما يتولد عن ذلك من نزعات للتفاخر وسوقية تتعارض تعارضًا صارخًا مع البساطة المفرطة التى كانت تميز حياة الكويت في يوم من الأيام. ولسوء الحظ تشمل الصادرات الغربية إلى الكويت أشياء ليس لدى الغرب ما يدعو للاعتزاز بها، والتى يدرك الآثار الضارة للعديد منها، بينما الشرق لا يعى من ذلك شيئًا.

وفيما مضى، كان أهل الكويت يشتهرون بالأمانة الشديدة والالتزام بالعدل، ولم تكن السرقة أو الجرائم الوضيعة معروفة بينهم. ولكن تطور الدولة لم يجذب إلى المدينة ذلك النمط من الأجانب الذى يسعى وراء العمل الشريف فحسب، وإنما جذب أيضًا كل أنواع المغامرين والمحتالين مما أدى إلى انحدار المستوى العام للأخلاق، وبعد أن كان كل كويتى يثق في جاره أصبحت هذه الثقة الآن في عداد الماضى.

والمهاجرون الأجانب في الكويت، حتى من ذوى السمعة الطيبة، يعاملون

معاملة قاسية من جانب السكان المحليين الذين يقولون أنه لم يعد في الإمكان الآن أن تلتقى بكويتى حقيقى حتى وإن ذرعت المدينة طولاً وعرضًا ليوم كامل. والأرجح أن المهاجرين من الفرس والعراقيين والذين يشكلون أكبر نسبة بين القوى العاملة الأجنبية في الكويت، سيعودون إلى بلادهم عندما ينتهى الطلب على الأيدى العاملة في الكويت، ولكن اللاجئين الفلسطينيين، وهم بالآلاف في المدينة، ليس لديهم أرضًا يرجعون إليها. ويجب أن نعترف بالرغم من تعاطفنا مع هذا الشعب الذى لا مأوى له، بأن تأثير الفلسطينيين والمثال الذى يضربونه في السلوك والأخلاق غالبًا ما لا يحظى بالقبول، بل وهو مثال ينم عن الفساد الصارخ في بعض الأحيان*.

ومن الطبيعى أن يكون أكثر ما تحقق من تغيرات في الكويت هو ما نشهده في المدينة. ولكن ماذا عن البدو؟ وإلى أى مدى يمكن أن يستمر نمط الحياة القديمة في البادية؟ هناك من يعتقدون أن البدو سيضطرون خلال بضع سنوات إلى مغادرة الصحراء تحت ضغط الضرورة الاقتصادية، لأن ارتفاع مستوى المعيشة في المدن ليس فقط في الكويت وإنما أيضًا في العربية السعودية، يؤدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية وضروريات الحياة إلى الحد الذى يتجاوز الموارد المتواضعة للبدوى المتوسط، مما يضطره إلى تغيير النمط الرعوى لحياته. ولكن ما تحقق حتى الآن لا يعدو أن يكون بعض التعديل الذى أصاب الحياة القديمة ولم يبلغ بعد حد التخلى عنها. ولقد توصل العديد من البدو في جوف الصحراء إلى حل وسط بالموافقة على إرسال شاب أو شابين من أبنائهم القادرين إلى المدن للعمل مقابل أجر، بينما يواصل النساء والأطفال والكهول حياتهم في الصحراء، ويرعون الأغنام والماشية، ويختلف البدو الذين يجدون عملاً في المدينة عن سكانها الأصليين المبذرين، فهم يحرصون عادة على إدخار نقودهم حتى يمكنهم ترك العمل والعودة إلى ذويهم في الصحراء حتى يستهلكوا مدخراتم فيضطرون إلى البحث عن العمل من جديد.

* رأي المؤلفة، والمترجم يعتقد أنه فيه قسوة في الحكم.

والبدوى بنظرته المحافظة الحذرة إلى الحياة أقل عرضة للتغيير عن ابن المدينة، وبالرغم من العوامل التى تجعل الحياة الرعوية أمرًا يصعب مواصلته إلا أن هذه النزعة المحافظة العميقة والتمسك الشديد بالتقاليد، سوف تبقيان لبعض الوقت بين قطاع سكان البادية على الأقل. والبدوى الحقيقى الذى يعيش في شبه الجزيرة العربية يسرى في عروقه حب صادق للحياة في الصحراء، وليس من المحتمل أن يتخلى عن استقلاله وحريته الشخصية التى كانت دائمًا مصدرًا لاعتزاز أهله، وهو يشعر بالاختناق إذا أجبر على أن يعيش في المدينة لأى فترة من الزمن، ولا يقبل أن يعمل في خدمة شخص آخر.

ولكن ربما اضطر البدوى من أجل الحصول على المرعى لماشيته وممارسة حريته التى لا يجدها إلا في الصحراء إلى التراجع إلى المناطق الداخلية لمسافات أبعد، لأن سكان المدينة يزحفون الآن على مجاله الطبيعى. وفي السنوات الأخيرة امتدت مدينة الكويت إلى ما وراء سورها القديم وظهرت الضواحى الجديدة مكان ما كان صحراء ذات يوم. وهناك طرق معبدة تختصر المسافة إلى المدينة، وسوف يبنى سكانها حتما المزيد من المساكن التى تتغلغل إلى مدى أبعد في الصحراء، بحيث يتبدد ذلك الأمان وتلك العزلة التى كنت تلتقى بهما حتى على بعد عشرين ميلاً فحسب من المدينة.

ومن السهل على كل من عرف الكويت القديمة وأحبها أن يشعر بالشوق للأشياء التى ولت، أما الكويتيون أنفسهم، وربما استثناء عدد قليل من الكهول، فهم ينظرون إلى الأمام وليس إلى الوراء. وربما يرى الغربى في الكويت اليوم أنواعًا من الفجاجة والسطحية التى تميزان فترات الانتقال، ومع ذلك، فلقد تم إنجاز أعمال لها قيمتها الحقيقية، ومازال يجرى إنجاز الكثير منها. ولا يمكن لأحد إلا أن يعجب بما يجرى في مجال الخدمات الصحية التى نجحت في التصدى لانتشار المرض والفقر، ويبدأ التأكيد على ضرورة التعليم في الكويت الجديدة من الحاكم نفسه والذى يدرك

تمامًا أن الإصلاح الاجتماعى الفعال وتحسين الأوضاع الصحية ورفع مستوى المعيشة لا يمكن أن يتحققان بدون تعليم.

ومن أجل التوصل إلى حكم عادل على حجم التغيرات التى تحققت في الكويت، يجب ألا ننسى أنه منذ خمسة عشر عامًا كان شعبها في إطار مجتمع يكاد يكون إقطاعيًا، ولذلك يجب الحكم على ما تم إنجازه حتى الآن، ليس وفقاً لما يتمناه الناس في ظل أوضاع مثالية، وإنما وفقًا لما تحقق في ظل الظروف السائدة بالفعل. وعندما نتذكر الفقر والجهل والإيمان بالخرافات والتى كثيرًا ما كانت تعوق في الماضى أى تحسن في الأوضاع، لا يسعنا إلا أن نبدى الإعجاب لهذه السرعة والدقة اللتين انطلقت منهما الكويت لتوفير الخدمات التى طالما افتقدها الناس من قبل، والتى أصبح في الإمكان تقديمها الآن من خلال تطوير الموارد الطبيعية للكويت واهتمام الحاكم ورعايته لشئون شعبه.

تصميم وطباعة مطابع المنار - الكويت
تليفون - ٤٧٤٤٨٨٠ - ٤٧٣٩٧٨١ فاكس - ٤٧٤٣٥٧٢

هذا الكتاب

نحن أمام كتاب غريب في نوعه، فهو يتحدث للقارئ عما جرى من انقلاب في حياة الكويت بعد تدفق النفط مباشرة. والمؤلفة إذ تسجل أحداث ١٠ سنوات من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٦ عن كيف غيَّر الناس حياتهم ونمط معيشتهم من الغوص في البحر والرعي في الصحراء إلى تشييد المدارس والمستشفيات والطرق الحديثة، وكيف تغيَّر نمط الحياة اليومية من مدينة هادئةووادعة إلى مدينة بدت تهدر بها الآلات وتزل كل قديم في ذلك الوقت.

والمؤلفة عندما تتحدث عن الكويت تتحدث بحب ومودة خاصة، إنها من أسرة عاشت في الكويت وقضى والدها ووالدتها حياتهما بها وحتى وفاتهما.

والمؤلفة التى سُميت باسم عربي وصادقت في طفولتها عدد من الأطفال في سنها، وتكلمت بلهجة أهل الكويت، وعاشت بآمالهم وطموحاتهم، تسجل قصة اكتشاف النفط، وقصة تغيير الحياة على ساحل الكويت، حيث منزلها المعروف الآن بـ (بيت ديكسن)، إنها قصة فيها كثير من الحقائق التى نعتقد أن أبناء الكويت في الوقت الحاضر لم يشاهدوها وعليهم أن يعرفوها ويتعلموها.

وللمؤلفة آراء خاصة بها نعتقد أنها طرحتها من باب تجربتها، وهي تتحمل هذه الآراء.

ونعتقد أن الكويت قد كسبت كتبًا كثيرة كتبها والدها، أشهرها (الكويت وجاراتها) و (عرب الصحراء)، أما والدتها فأشهر كتبها (أربعون عامًا في الكويت) وقد كتبت المؤلفة كتابها المعروف بالزهور البرية ف

إننا في حاجة في المستقبل إلى نقل ما كتبته المؤلفة حتى ن نتصور الكويت قبل نصف قرن من الآن. فالنفط قد مر على اكتشاف عامًا والمؤلفة تتحدث عن تلك الفترة وعن الكويت قبل النفط والكوي اكتشافه، واقتناعها بأن الكويت القادمة ستكون أكثر ازدهارًا من الأ

فتوح عبدالمحسن